# هل نحن متّفقون؟

تحليل بروتستانتيّ لتعليم كنيسة روما الكاثوليكيّة

**أر. سي. سبرول**

Copyright © 2012 by R.C. Sproul. Originally published by Ligonier Ministries under the title Are We Together?: A Protestant Analyzes Roman Catholicism. Translated by permission. All rights reserved.»

الطبعة الأولى: ٢٠٢٢

الكتاب: هل نحن متّفقون؟ تحليل بروتستانتيّ لتعليم كنيسة روما الكاثوليكيّة
المؤلّف: أر. سي. سبرول

تصميم الغلاف والتصميم الداخلي: kreactiv.net

ترجمة: بولس رعد

مراجعة لغويّة: سامي معروف

الهاتف: 96171981341+
البريد الإلكتروني: info@new-nation.org
موقع إلكتروني: www.new-nation.org

ISBN: 978-1-5136-9903-5

جميع حقوق الطبع باللغة العربيّة محفوظة للناشر وحده ©
ولا يجوز استخدام أو اقتباس أيّ جزء منه من دون إذن الناشر.
وللناشر وحده حقّ إعادة الطبع.

# تنويه

«ظلّ الإنجيليّون يتراجعون بشكلٍ مستمرّ طوالَ عقدَيْن (أو أكثر) عند كلّ جبهة خلافٍ تاريخيٍّ مع عقائد كنيسة روما الكاثوليكيّة. أدّى البيانُ المسمّى «الإنجيليّون والكاثوليك معًا» إلى تسريع السعي لتحقيق الانفراج الإنجيلي-الكاثوليكي في منتصف التسعينيّات. ويبدو أنّ عددًا كبيرًا من الإنجيليّين يعتقد أنّها كانت حركةً تهدف إلى بثّ روح الإيجابيّة والوحدة. أمّا أنا فمقتنعٌ بأنّ ما حدث هو انحرافٌ خطير. من اللحظة التي بدأتُ فيها أكتشفُ هذا المناخ المسكونيّ الجديد حتى الآن، كان أر. سي. سبرول أحدَ الأصوات القليلة المحذّرة بشكل واضح وثابت بشأن هذا الانحراف، فهو يرى بشكلٍ واضح أنّ الإنجيل نفسه على المحكّ. والبياناتُ المسكونيّة الأخيرة تُظهر هذه الحقيقة وإن كان ذلك بعباراتٍ مُبهمة وغير مباشرة.

بإمكاننا أن نعثرَ على مزيدٍ من الأدلّة في التعاليم المنشورة للكنيسة الكاثوليكيّة نفسِها. لمدّة خمسة عشر عامًا على الأقلّ، كنتُ أتمنّى رؤية عرضٍ واضحٍ يَسْهُل الوصولُ إليه باستخدامه أحدث كتب التعليم الديني الكاثوليكي الروماني لإظهار سبب تعارضِ عقيدة تلك الكنيسة،

لا بـل معاداتِهـا، مـع الإنجيـل الحقيقـيّ ليسـوع المسـيح. أنـا سـعيدٌ جـدًّا الآن لأنّ لـديّ مثـل هـذا الكتاب بقلم الدكتور سـبرول. لا أحـدَ مؤهّل أكثرَ منـه للتحـدّث بشـكل قاطـع عـن هـذه القضايـا، وقـد قـامَ بعمـلٍ رائع في إثبـات ذلـك مـن الكتاب المقـدّس ومن تاريخ الكنيسـة ومن كتـب التعليم الدينـي للكنيسـة الكاثوليكيّة نفسِـها».

**- الدكتور جون ماك آرثر**
راعٍ ومعلّم، كنيسة غرايس كوميونيتي
سان فالي، كاليفورنيا

«نحـن نعيـشُ فـي زمـنِ مـن الفوضـى اللاهوتيّـة الإنجيليّـة، وتفضيـلُ العـروض الترفيهيّـة للمؤسّسـات والهيئـات المسـيحيّة غيـر الكنسـيّة علـى لاهـوت الكنيسـة الكتابـيّ، الأمر الذي جعل مـن روما خيـارًا جذّابًا للعديدِ مـن المسـيحيّين الذيـن يبحثـون عـن شـيءٍ يُرضـي طموحَهـم الفكـريّ والمؤسّسـاتيّ للكنيسـة. لهـذا السـبب، أعتبـرُ أنّ كتابَ الدكتور سـبرول قد جـاء فـي الوقت المناسـب، حيث يوضّـح الاختلافـات بين تعاليم الكنيسـة البروتسـتانتيّة المسـتقيمة وكنيسـة روما الكاثوليكيّة بشكل واضح وموجز ومفيـد. يجـب علـى أيّ شـخصٍ يرغـب فـي أن يعرفَ مـا هو علـى المحكّ فـي النقـاش بيـن جنيـف وروما أن يقـرأَ هـذا الكتاب».

**- الدكتور كارل ر. ترومان**
رئيس فرع پول وولي لتاريخ الكنيسة
كليّة وستمنستر اللاهوتيّة، فيلادلفيا

عند مناقشة لاهوت كنيسة روما الكاثوليكيّة الرومانيّة، كان البروتستانت يُظهرون في معظم الأحيان أنّهم جاهلون بها، أو غيرُ مبالين بها، أو غير مُنصِفين. تكمنُ القوّة في هذا الكتاب بأنّ أر. سي. سبرول كان عادلًا ودقيقًا ومُفيدًا، لأنّه يُثبتُ أنّ أخطاءَ كنيسة روما الكاثوليكيّة عميقة وهامّة في آنٍ واحد، وأنّ إنجيلَهم ليس إنجيلَ الكتاب المقدّس. وعلى الرغم من دعوته لنا بأن نُحبّ أصدقاءَنا في كنيسة روما الكاثوليكيّة، إلّا أنّه يحذّرُ من اعتبارهم إخوةً وأخوات عندما يكون الإنجيل نفسُه على المحكّ».

**- تيم تشاليز**
راعٍ، كنيسة غرايس فيلوشيب، تورنتو
صاحب مدوّنة في موقع *www.challies.com*

«ينجذب البعضُ إلى كنيسة روما الكاثوليكيّة بسبب رؤيتهم للتّقاليد الغنيَّة فيها، ولكنّهم لا يرَوْن فيها كثيرًا من العقيدة الإنجيليّة المُصلَحة (أي عقيدة الخلاص بالنعمة فقط بالإيمان بكفّارَةِ يسوع المسيح). حتى قادة الكنيسة ومعلّمو تاريخ الكنيسة يخبروننا بأنّ الانقسام البروتستانتي / الكاثوليكي قد ولّى. نحن بحاجة إلى إجابةٍ سليمةٍ وصحيحة من الناحية الكتابيّة والتاريخيّة. هذا الكتاب هو هذه الإجابة التي نبحثُ عنها. بطريقة إقناعه المميّزة ووضوحه، يُظهر أر. سي. سبرول أخطاءَ كنيسة روما الكاثوليكيّة بالمقارنة مع جمال وحقيقة إنجيل يسوع المسيح المُعلَن في الكتاب المقدّس».

**- الدّكتور ستيڤن ج. نيكولز**
الرئيس
كليّة الكتاب المقدّس المُصلَحة، سانڤورد، ڤلوريدا

«الحقيقة ثمينةٌ لأنّها تحرّرُنا (يوحنا ٨: ٣١-٣٢). تتمحور وحدتُنا في كنيسة المسيح، حول معرفة ما نؤمن به (أفسس ٤: ١٢-١٣). غالبًا ما تشوبُ المناقشات حول الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة إظهارُ اللامبالاة بالعقائد، أو نشرُ الواحد عن الآخر رسومًا كاريكاتوريّةً غير عادلة لوصف معتقداتهم. في كلتا الحالتين، نحن لا نحبُّ معرفةَ الحقيقة، وكتابُ أر. سي. سبرول هو تُحفةٌ من الإنصاف، مليئة باقتباسات من الكتابات الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة الصادرة عن مراجع رسميّة موثوقٍ بها. يُقدّم لنا في نطاقٍ صغير، نظرةً واضحةً عن المسائل المحوريّة للإصلاح، ويساعدنا لنرى بأنّنا لا نستطيع التقليلَ من أهميّة اختلافاتنا والبقاءَ مُخلصين للمسيح في الوقت نفسِه، لأنّ الإنجيل نفسَه على المحك».

**- الدكتور جول ر. بيكي**
رئيس وأستاذ في اللاهوت النظامي والوعظ
كليّة اللاهوت المُصلَح البيوريتاني، غراند رابيدز، ميشغن.

«إنّه مؤلَّفٌ رائع كنت آمل أن أجدَه منذ فترة طويلة. يدافع سبرول بحزم وحقّ عن الإيمان المُصلَح، ولكن من دون اللجوء إلى الضغينة أو السخرية. إنّه يبذل جهدًا كبيرًا ليُنصفَ روما، مع الأخذ في الاعتبار الفروق الدقيقة في التعليم الديني الكاثوليكي وأهميّة المجمع الفاتيكاني الأوّل. سيكون هذا أوّلَ كتابٍ أوصي به عندما يسألني البروتستانت أو الكاثوليك عن الفرق بين الاثنين».

**- القسّ كافن ديونغ**
الراعي الأوّل، الكنيسة المُصلَحة الجامعيّة
إيست لانسينغ، ميشغن

«مؤلّف هامّ للغاية في مرحلة من التحوّل في العلاقات بين كنيسة روما الكاثوليكية والبروتستانت. يعرض هذا الكتاب كلّ ما نتوقّعه من الدكتور سبرول: الوضوح والدقّة والصدق والاقتناع العميق بطبيعة وجوهر الخلاف المستمرّ. إنها قراءَةٌ حاسمةٌ مكتوبة بشجاعة ومحَبَّة».

**- الدكتور ديريك و. هـ. توماس**
خادم متقدّم
الكنيسة المشيخيّة الأولى، كولومبيا، ساوث كارولاينا

«هذا الكتاب ليس تكرارًا لشعاراتٍ كما يفترض البعض، بل هو كتابٌ تمهيديّ وجذّاب لأتباع الطائفتين البروتستانتيّة والكاثوليكيّة على حدٍّ سواء حول ما تُعلّمه روما بالفعل، والمسائل العميقة التي تستمرّ في فصل البروتستانت الإنجيليّين عن كنيسة روما الكاثوليكية. هذا كتاب يجب على البروتستانتيّ أن يُقدّمَ منه نسخةً لجيرانه من كنيسة روما الكاثوليكيّة، وعلى القساوسة البروتستانت (بعد قراءته) أن يقدّموه لأعضاء كنائسهم. وهو أيضًا كتابٌ يجب أن يقرأه عددٌ من اللاهوتيّين ومعلّمي تاريخ الكنيسة قبل الجولة التالية من المناقشات وعرض الوثائق المسكونيّة».

**- الدكتور ر. سكوت كلارك**
بروفيسور في تاريخ الكنيسة واللاهوت التاريخي
كليّة وستمنستر، اسكونديدو، كاليفورنيا.

«في ردِّهِ هذا غير المساوم على محاولات الإنجيليّين الأخيرة للقول إنّه لا يوجد شيءٌ جوهريٌّ في العقائد الرئيسيّة يفصلهم الآن عن كنيسة روما الكاثوليكيّة المعاصرة، يوضّح أر. سي. سبرول بحقّ أنّ هذا تفكيرٌ مضلَّل للغاية. فيما يختصّ بالقضايا الأساسيّة التي تتعلّق بطبيعة الخلاص والكنيسة، يوضّح سبرول بعنايةٍ وتروٍّ الطريقة التي كان فيها الفكر الكاثوليكي بعيدًا كلّ البعد عن فكر المصلِحين، وبأنّه إنْ أردنا أن نكونَ صادقين مع الكتاب المقدّس، لا يمكنُنا أن نتجاوزَ الخطوط التي تمّ وضعُها في عصر الإصلاح، فطبيعة الإنجيل هي على المحكّ. هذا كتابٌ مفيد للغاية، ويجب أن يقرأه جميع المهتمّين بكنيسة روما الكاثوليكيّة اليوم».

**- الدّكتور مايكل أ. ج. هايكين**
بروفيسور في تاريخ الكنيسة والروحانيّة الكتابيّة
الكليّة اللاهوتيّة المعمدانيَّة الجنوبيَّة، لويسفيل، كنتاكي.

«سنحتفلُ قريبًا بمرور خمسمائة عام على الإصلاح البروتستانتيّ. في الوقت الذي يتساءَل فيه البعض عن أهميّة الإصلاح للكنيسة الإنجيليّة، يُعتبَر المسحُ الذي قدّمَه أر. سي سبرول عن الاختلافات الرئيسيّة بين البروتستانتيّة والكاثوليكيّة أمرًا هامًّا ومطلوبًا على حدٍّ سواء. بالإشارة إلى التعاليم الرسميّة للكنيسة الكاثوليكيّة وشرحِها، يوضّح سبرول بعناية الاختلافات بين الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة. جاءَت كتابتُه بالطريقة التي كنّا نتوقّعها، فهي واضحة وسهلة، وهي أيضًا كتابة بطريقة رعويّة، أوضَحَ من خلالها سبرول بشكل مقنع أنّ القضايا التي

حرّكت الإصلاحيّين منذ قرون لم تكن تضرب الإنجيلَ في جوهره فحسب، بل هي قضايا ما زالت موجودة في حياتنا حتى يومنا هذا أيضًا. في الوقت الذي يولي فيه العديدُ من الإنجيليّين اهتمامًا متجدّدًا بإنجيل الكتاب المقدّس، يساعدُ كتابُ سبرول الكنيسة بشكلٍ مثيرٍ في توضيح الإنجيل بأمانةٍ وحكمة».

**- الدكتور غاي برانتيس ووترز**
جيمس م. بيرد جونيور، بروفيسور العهد الجديد
كليّة اللاهوت المصلَح، جاكسون، مسيسيبي

# جدول المحتويات

تمهيد: محاربة الانجـراف ..... ١٥

المقدّمـة: الإنجيل: على المحـك ..... ٢١

١. الكتاب المقـدّس ..... ٣٤

٢. التبرير ..... ٥٨

٣. الكنيسـة ..... ٨٥

٤. الأسرار المقدّسـة ..... ١٠٥

٥. البابويّـة ..... ١٢٧

٦. مريم ..... ١٤٦

الخاتمـة: كيف نتابع من هنا ..... ١٦٩

ملاحظات ..... ١٧٢

# تمهيد: محاربة الانجراف

هنالك افتراضٌ واسع الانتشار حتى بين البروتستانت الإنجيليّين بأنّ عصرَ الإصلاح قد انتهى. نسمع منهم من يقول إنّ المسائلَ التي قسَّمَت المسيحيّة الغربيّة في القرن السادس عشر بعيدة كلّ البعد عن مشاكل الحياة المعاصرة. ويتابعون قائلين إنّه إضافة إلى ذلك، فإنّ التقاربَ المسكونيَّ قد نزع فتيلَ الإدانات المتبادَلة، وبأنّ التعليمَ الكاثوليكيّ الرسميَّ يؤكّد الآن بقوّة على عقيدة النعمة في الخلاص، وبأنّ كنائسَ الإصلاح اعترفت أخيرًا بالدور البشريّ فيه. ويسألون قائلين إنّه في مواجهة العلمانيّة العنيفة وثقافة الموت، ناهيك عن عودة ظهور الحركة الإسلاميّة في جميع أنحاء العالم، أليست انقساماتُنا – والجدالاتُ العنيفة التي ترافقها- غيرَ ضروريّةٍ وتشكّل فضيحةً لشهادتنا المشتركة عن المسيح؟

لا يتّفقُ سبرول، المعروف على نطاقٍ واسع كبروفيسور مسيحيّ رائد وقسّ ومؤلّف ومعلّم، مع هذا الافتراض. هو من تلاميذ توما الأكويني الغيورين، وهو ينتمي إلى تقليدٍ طويلٍ من علماء لاهوت الإصلاح الذين ساهموا على نطاقٍ واسع في تراث ما قبل الإصلاح.

وهـو يعلـم، مثـل المصلِحيـن، أنّ الكنيسـة فـي العصـور الوسـطى أكّـدت دائمًـا علـى أهميّـة النعمـة والمسـيح والإيمان والكتـاب المقـدّس، وتؤكّد علـى ذلـك التعاليـمُ الكاثوليكيّة الرسـميّة أيضًـا اليوم. إنّ ربـطَ الإصلاحيّين كلمـة «سـولا» (باللغـة اللاتينيّـة: وحـده) بهـذه التأكيـدات هـو الـذي أثار نشـأة الإصـلاح واسـتمرّ فـي انقسـام هذَيـن القطبَيْـن التاريخيَّيْـن. يَعـرِف سـبرول معرفـةً تامّـة أيـن تتّفـق هـذه الاعترافات وأيـن تتباعـد وتتعارض فـي المسـائل الجوهريّـة. هـذه المعرفة تجعل مـن هذا الكتاب استكشـافًا مُفيـدًا يتجنّـب فيـه السـخرية الكاريكاتوريّـة والإعلانـات الفضفاضـة بأنّنـا قـد وصلنـا أخيـرًا إلـى حـلٍّ خلافاتِنا.

انجـرفَ العديـدُ مـن البروتسـتانت أنفسِـهم علـى مـرّ السـنين عـن القناعـات الجوهريّـة التـي أشـعلت حرَكـةَ الإصـلاح. لقد ابتعـدت طوائفُ كاملـةٌ ذاتُ جـذورٍ إصلاحيّـة عـن كلمَـةِ اللـه نحـو فلسـفةٍ وروحانيّـةٍ محورُهُمـا الإنسـان، لدرجـة أنّ اختلافاتِنـا مـع رومـا تبـدو هامشـيّة بالمقارنـة معهـا. فـي الوقـتِ الـذي اسـتطاع فيـه المصلِحـون فـي كنيسـة العصور الوسـطى أن يميّزوا انسـلالَ التعاليم شـبه البيلاجيانيّة* التي تُعتبَر تعاليـم طبيعيّـة للقلب السـاقط، تقـوم العديدُ من الطوائف البروتسـتانتيّة اليـوم بتشـجيع تعاليـم بيلاجيـوس بشـكلٍ صريـح وصـارخ. إذا لـم تكـن حالـة الإنسـان كمـا يشـير الكتـابُ المقـدّس إليهـا، فليـس مـن المسـتغرَب

(ملاحظـة: لقـد تـمّ إضافـة الحـواشي الموجـودة أسـفل صفحـات هـذا الكتاب لـشرح بعـض المصطلحات وهـي غـير موجـودة في الكتـاب الأصلي)

* يعلّـم الفكـر الشـبه بيلاجيـاني أنّ النمـوّ في الإيمـان هـو عمـل اللـه، في حـين أنّ بدايـة الإيمـان هي فعـل إرادة حـرة مـع النعمـة كهبـة تعطـى لاحقًا. وصفتهـا الكنيسـة الغربية بالهرطقـة في المجمع الثـاني لأورانـج عـام ٥٢٩ م

أن يتحوّلَ تصوُّرُنا للخلاص من عمليّة إنقاذٍ قام بها الله المتجسّد، إلى مجرّد تقدّمٍ ونموٍّ على الصعيدَين الشخصيّ والاجتماعي. بكلّ تأكيد، سيصبحُ يسوع لهؤلاء الناس مُجرّد مثال ملهم، وبالكاد يعتبرونه مُخلّصًا إلهيًّا ليقوم بدور الخلاص. ليس من المستغرب أن يتبَعَ ذلك تأليهٌ للذّات الداخليّة (الغنوصيَّة) وإنكار شخص المسيح الفريد وعمله (الآريوسيَّة / السوسينيّة)*، كما يتبعُ الليلُ النهارَ. لا أحدَ يحتاج أن يُعلنَ هذه الحقيقة. لا ضرورةَ لقطع العلاقة بشكلٍ رسميٍّ مع المسيحيّة. قد نستمرّ بالتأكيد على قوانين الإيمان، لكنّها لم تعد هامّة، لأنّنا نُحدّدُ إيمانَنا وحياتَنا من خلال لاهوتنا الطبيعيّ أكثر من تحديدهما بواسطة الإنجيل المذهل والمربك.

هذا الانجرافُ بعيدًا عن نور كلمة الله والعودة إلى ما تُمليه علينا قلوبُنا الساقطة واضحٌ اليوم في الأوساط الإنجيليّة حيث كان يتمّ الدفاعُ عن أساسيّات الإصلاح والإعلان عنها بحرارةٍ وشغف. وفقًا للعديد من الدراسات، لا يعرفُ الإنجيليّون الأمريكيّون بشكلٍ عامٍّ ما يؤمنون به ولماذا يؤمنون به.

نتيجة لذلك، يشاركُ معظمُهم مع مُحيطِهم الأوسع ثقةً في صلاح الإنسان ورؤيةً ضعيفةً للحاجة إلى نعمة الله المُخلّصة في يسوع المسيح. وفقًا لهذه التقارير، يعتقد معظم الإنجيليّين أنّنا نخلص بصلاحِنا، وأنّ هنالك طرُقًا عديدة للخلاص بعيدًا عن الإيمان الصريح بيسوع المسيح.

* نسبة إلى سوسينوس اللاهوتي الإيطالي (١٥٣٩ - ١٦٠٤)، الذي علّم أنّ المسيح لا يمكن أن يكون في الحقيقة إلهًا.

لذلك، إذا كان سؤالُ الإصلاح التالي «كيف أجدُ إلهَ النعمة؟» لم يعد هامًّا، فإنّ المسيحيّة نفسَها لم تَعُدْ هامّة. وإذا فقدت البروتستانتيّة الإنجيليّة إطارَها المرجعيَّ للإجابة عن هذا السؤال، فمِنَ المنطقيّ أن تبدو الانقساماتُ العقائديّة للإصلاح غير هامّة عندما يكون أمامنا الكثير لنقوم به معًا لتغيير وتحويل عالمنا.

أمّا بالنسبة لمؤلّف هذا الكتاب، فإنّ الإصلاحَ لم ينتهِ بعد، لكنّه يحتاج أن يكتسحَ مشهدَ الحياة الكنسيّة المعاصرة البروتستانتيّة والكاثوليكيّة على حدّ سواء. فيما يلي بعضُ الاتّجاهات المُقلقة التي تحتاج إلى مراجعةٍ وإصلاح:

- نحن جميعًا واثقون جدًّا بكلماتِنا الخاصّة، بحيث أصبحت الكنائس مجرّدَ قاعاتٍ تصدح فيها أحدثُ صيحاتِ وتوجّهاتِ علم النفسِ الشعبيِّ والتسويقِ والسياسةِ والترفيه والقيادة الرياديّة. غير أنَّ ما نحتاجُه هو استعادَةُ ثقتِنا بالله المثلّث الأقانيم وبكلامِه بينما يخاطبُنا بسلطان كلمتِه.

- نحن جميعًا واثقون جدًّا من أساليبنا الخاصّة للنَّجاح في التحوّل الشخصيّ والكنسيّ والاجتماعيّ. بينما ما نحتاجُه هو أن نلتفِتَ مرَّةً أخرى إلى دينونة الله ونعمتِه وعملِه من خلال وسائل النعمة التي حدّدَها.

- نحن واثقون جدًّا من أعمالنا الصالحة. غير أنَّ ما نحتاجُه هو أن نتوبَ مَرَّةً أخرى وأن نشعر بيأسِنا ليس فقط من خطايانا ولكن من برّنا المزعوم.

- نحن جميعًا مفتونون جدًّا بمجدِنا الشخصيّ وبالملكوت الذي نبنيه. بينما ما نحتاجُه هو العودة إلى الثقة في المسيح لكي ندركَ تمامًا قبولَ «ملكوتًا لا يتزعزع» (عبرانيّين ١٢: ٢٨)، لأنّ الله يبنيه لمجدِه، وأبوابُ الجحيم لن تقوى عليه. فقط عندما نسدّ آذانَنا عن سماع الوعود الكاذبة لهذا العصر العابر ونُصغي إلى كلمة الله وإعلانه الخلاصيّ في المسيح باعتباره الإنجيلَ الوحيد، ولمجد الله المثلّث الأقانيم كهدف وحيد في حياتنا، عندها فقط نستطيع أن نتوقّعَ رؤية انتعاشٍ حقيقيّ في التلمذة المسيحيّة والعبادة والعمل المُرسليّ في عالم اليوم.

حتى إذا كنتَ لا توافقُ على كلّ ما سيَرِدُ في هذا الكتاب، إلّا أنّك ستجدُ فيه مشورةَ راعٍ حكيمٍ ومؤمنٍ ومُطّلع بشكلٍ جيّد. إنّ القسّ سبرول مُتحمّسٌ للدّفاع عن الإصلاح لا بصفتِهِ أمينَ مُتحَفٍ، ولكن بصفتِه راعيًا لقطيعِ المسيح. ولأنّ هذه الأسئلة على وجه التحديد هي قضايا دائمة تهمّ كلّ إنسان في أيّ مكان منذ سقوط البشريّة في جنّة عدن، لذلك هو يلفتُ انتباهنا باستمرار إليها. لقد شكّلني وحفّزني وعلّمني من خلال تركيزه الدقيق على هذه الأسئلة التي كنت أطرَحُها طوال حياتي.

أتمنّى من روح الله أن ينيرَ عقولَنا وقلوبَنا لسَماعِ وفهم كلمتِه على طول هذا الطريق الهامّ والشاقّ أحيانًا الذي يُشعله المؤلّف عبر هذه الصفحات. قد لا تُصبح الأمورُ أكثرَ وضوحًا في فهم الاختلافات

بيننا وبين أصدقائنا الكاثوليك فحسب، بل قد نشعر بسعادةٍ أكبر بسبب الكنز المحفوظ لنا في كلمة الله الحيّة والثابتة.

**- الدكتور. مايكل س. هورتون**
أستاذ علم اللاهوت النظاميّ والدِّفاعيّات
معهد وستمنستر اللاهوتي في كاليفورنيا

# المقدّمة: الإنجيل: على المحك

إنّ إنجيلَ يسوع المسيح مُعرّضٌ دائمًا لخطر التشويه. أصبحَ مشوّهًا في القرون التي سبقت الإصلاح البروتستانتيّ في القرن السادس عشر. لقد تمّ تشويهُه في نقاطٍ أخرى لا حصرَ لها من تاريخ الكنيسة، وغالبًا ما يتمُّ تشويهُه اليوم أيضًا. لهذا قال مارتن لوثر إنّه يجب الدفاع عن الإنجيل في كلِّ جيل. الإنجيلُ هو النقطة المركزيّة التي تهجُمُ عليها قوى الشرّ. يعرفون أنّهم إذا تمكّنوا من التخلّص من الإنجيل، فيمكنُهم بالتالي التخلّص من المسيحيّة.

للإنجيل، أي أخبار العهد الجديد السارّة، وجهَان: جانبٌ موضوعيّ وجانبٌ شخصيّ. المحتوى الموضوعي للإنجيل هو شخص يسوع وعمله: أي من هو، والأمور التي أنجزها في حياته. الجانبُ الشخصي هو السؤال عن كيفيّة منحِ فوائدِ عمل المسيح للمؤمن. هنا تأتي عقيدة التبرير إلى المقدّمة.

تطرّقَ المُصلحون إلى العديد من القضايا خلال فترة الإصلاح، ولكن كان الإنجيلُ الموضوعَ الأساسيَّ والملموس للإصلاح، وبشكلٍ خاصّ عقيدة التبرير. لم يكن الخلافُ كبيرًا بين سلطات كنيسة روما

الكاثوليكيّة والمُصلحين البروتستانت حول المحتوى الموضوعيّ للإنجيل. لقد اتّفقَ جميعُ الأطراف على أنّ يسوعَ هو شخصٌ إلهيّ، وبأنّه ابنُ الله وبأنّه وُلِدَ من مريم العذراء، وبأنّه عاشَ حياة الطاعة الكاملة، وبأنّه مات كفّارَةً عنّا على الصليب، وبأنّه قام من القبر. كانت المعركة تدور حول الوجه الثاني من الإنجيل، أي الجانب الشخصي المتعلّق بكيفيّة منح فوائد المسيح للمؤمن.

لقد آمن المُصلحون أنّنا مُبرَّرون بالإيمان وحده وعلّموا ذلك. قالوا إنّ الإيمان هو المُسبّب الأساسيّ الوحيد لتبريرنا. كانوا يقصدون بهذا أنّنا نُمنح كلّ فوائد عمل يسوع من خلال وضع ثقتِنا فيه وحده.

علّمت كنيسة روما الكاثوليكيّة أيضًا أنّ الإيمانَ شرطٌ ضروريّ للخلاص. أعلنت السلطات الكاثوليكيّة في مجمع ترنت (١٥٤٥-١٥٦٣)، الذي صاغ ردّ روما على الإصلاح، أنّ الإيمان يوفّر ثلاثة أمور هي: البداية والأساس والمصدر. أي أنّ الإيمان هو بداية التبرير، والإيمان هو أساس التبرير، والإيمان هو مصدر التبرير. لكنّ روما اعتبرت أنّه يُمكن للإنسان أن يتمتّعَ بإيمانٍ حقيقيّ ويبقى غيرَ مُبرّر لأنّ التبريرَ في النظام الروماني يحتاج إلى أكثر من الإيمان.

في الواقع، كانت وجهة نظر كنيسة روما الكاثوليكيّة للإنجيل، كما تمَّ التعبيرُ عنها في مجمع ترنت، هي أنّ التبرير يتحقّق من خلال أسرار الكنيسة. في البداية، يجب على من يسعى وراءَ التبرير أن يقبلَ ويتعاونَ من خلال سرّ المعموديّة التي من خلالها ينالُ النعمَة المُبرِّرَة. إنّه يحتفظ بهذه النعمَة حتى يرتكبَ خطيئَةً مميتة. وُصفت الخطيئة

بكلمة «المُميتة» لأنّها تُميتُ نعمة التبرير. لذلك يجب أن يُبرَّر الخاطئُ مرّةً ثانية. يحدث ذلك من خلال سرّ التوبة، الذي عرَّفَهُ مجمعُ ترنت على أنّه «دعامة ثانية» للتبرير لأولئك الذين تحطّمت سفينة أرواحِهم[١].

كان الاختلافُ الأساسيُّ هو التالي. أقرَّ مَجمعُ ترنت أنّ الله لا يُبرّرُ أيّ شخصٍ حتى يتأصّلَ البرّ الحقيقيُّ في الإنسان. بعبارة أخرى، لا يُعلنُ الله أنّ الإنسان بارّ ما لم يحصل ذلك الإنسان على التبرير. لذلك، وفقًا لعقيدة الكنيسة الكاثوليكيَّة الرومانيّة، يعتمد التبرير على تقديس الشخص. على النقيض من ذلك، قال المُصلحون إنَّ التبرير يرتكز في برّ يسوع المنسوب للإنسان. إنّ الأساسَ الوحيد الذي يُمكن لأيِّ شَخصٍ أن يَخلُصَ به هو برُّ يسوع، الذي يُحسَب له عندما يؤمن.

كانت الآراءُ حول الخلاص مختلفةً اختلافًا جذريًّا لدرجة لا يمكن التوفيقُ بينها. كان واحدٌ من هذه الآراء حولَ الإنجيل، ولم يكن الإنجيلُ أحدَ الآراء الأخرى. وهكذا، فإن ما كان على المحكّ في الإصلاح هو إنجيل يسوع المسيح. على الرغم من أنّ مجمَعَ ترنت قد قدّم العديد من التأكيدات الرائعة للحقائق التقليديّة للإيمان المسيحيّ، إلّا أنّه أعلنَ أنّ التبريرَ بالإيمان وحدَه هو أناثيما[٢]، متجاهلًا العديد من التعاليم الكتابيّة الواضحة مثل رومية ٣: ٢٨: «إِذًا نَحْسِبُ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ يَتَبَرَّرُ بِٱلْإِيمَانِ بِدُونِ أَعْمَالِ ٱلنَّامُوسِ».

## الليبراليَّة والمسكونيَّة

تعرّض الإنجيل في القرنَيْن التاسع عشر والعشرين للتهديد من قِبَل

اللاهوتيين الليبراليّين الذين أنكروا أعمال يسوع الفائقة للطبيعة. كان هذا ما زالَ يُمثّلُ التهديدَ الأكبَر للإنجيل عندما دخلتُ معهد اللاهوت في الستينيّات. في نهاية المطاف، كانت التنازلات صارخة لدرجة أنّني اضطُررت إلى مغادرة الكنيسة التي نشأت فيها ورُسمت فيها قسًّا.

بعد حوالي عشر سنوات من رسامتي، تمّت مُحاكمَةُ خادمٍ تابعٍ للطائفة التي رُسِمتُ فيها قسًّا بتُهمَةِ الهرطقة. في ذلك الوقت، كانت تُعتبر مثلُ هذه المحاكم أمرًا من الماضي تقريبًا، لكنّ هذا الرجل أنكرَ علانيّة كفّارة المسيح ورفض الاعترافَ بألوهيّة المسيح حين كان خادمًا مرسومًا، فحُوِّلت قضيّتُه إلى المحكمة العليا في الكنيسة.

عندما أصدَرَتْ تلك المحكمَةُ قرارَها، قامَت بالإعلان عن تأكيدَيْن. أوّلًا، أعادت المحكمة تأكيدَ عقائد الإيمان التاريخيّة للكنيسة التي أعلنت جميعُها ألوهيّةَ المسيح وكفّارَةَ المسيح. ثمّ تابعت المحكمَةُ وقالت إنَّ آراء هذا الرجُل كانت ضمن حدود تفسير العقيدة. إذًا، أعادَت المحكمة تأكيدَ عقائد الإيمان من ناحيةٍ، ولكنّها قالت من ناحيةٍ أخرى إنّ خُدّام الكنيسة ليسوا مُضطرّين حقًّا إلى الإيمان بهذه العقائد.

أظهرت لي تلك الحالةُ أنَّ الطائفة التي كنت أخدم فيها كانت مستعدّةً للتّسامح والتساهل مع ما لا يُمكن التسامحُ أو التساهلُ معه، إذ يمكن للخادم أن يُنكرَ ألوهيّةَ المسيح أو كفّارة المسيح ويبقى مُحافظًا على صفتِه كخادم. كشفت لي هذه الأزمة عن نفورٍ عميقِ الجذور وواسع النطاق للحقيقة الموضوعيَّة المُعتَرف بها.

أعتقد أن أكبرَ أزمَةٍ مرَرْتُ بها بشأن نقاء الإنجيل خلال مسيرتي

في الخدمة المسيحيّة، كانت المبادرة المعروفة باسم «الإنجيليّون والكاثوليك معًا» (عام ١٩٩٤). كانت هذه المبادرَةُ مدفوعةً بقلقٍ عميقٍ بين بعض الإنجيليّين وكنيسة روما الكاثوليكية البارزين بشأن ما يُسَمَّى بـ «قضايا النعمَة المشتركة»، كالقيَم العائليّة والإجهاض والنسبيّة الثقافيّة*. أرادَ القادة البروتستانت وكنيسة روما الكاثوليكية أن يتكاتفوا للتحدّث كمسيحيّين متّحدين ضدّ هذا المدّ المتزايد من الانحلال الأخلاقي والنسبيّة. هذا كلّه كان أمرًا مقبولًا، فأنا مُستعدّ أن أسيرَ مع أيّ شخص سواء كان من كنيسة روما الكاثوليكية أو المورمون أو حتى المسلمين من أجل الدفاع عن الحقوق المدنيّة للبشر والأطفال الذين لم يولدوا بعد.

لكن حين تصلُ في القراءَةِ إلى منتصف بيان «الإنجيليّين والكاثوليك معًا» تجد العبارة التالية: «نؤكّد معًا أنّنا نتبرّر بالنعمة من خلال الإيمان بالمسيح».[٣] بعبارة أخرى، تذكر هذه الوثيقة أنَّ لدى الإنجيليّين والكاثوليك وحدَةَ إيمان بالإنجيل. يوجد مبالغة أو مغالاة في هذا التصريح، لأنّني إنْ شاركتُ في مسيرةٍ مع أشخاصٍ مسلمين لأنّنا متّفقون على بعض قضايا حقوق الإنسان، فإنّ هذا يختلف عن قولي إنّه أصبح لديّ وحدة إيمانيَّة مع المسلمين. هذا ليس صحيحًا على الاطلاق. وبالطريقة نفسِها، بصفتي إنجيليًّا، ليس صحيحًا أنّه أصبح لديّ وحدة إيمان مع كنيسة روما الكاثوليكيّة. لذلك، أثارَ ذلك البيانُ جدلًا كبيرًا بين الأوساط الإنجيليّة المُصلحة.

ثمّ جاءَ بعد مبادرة «الإنجيليّون والكاثوليك معًا» مبادرة أخرى

* النسبيَّة الثقافيَّة تقول بما أنّ ما هو مقبول في ثقافة الآخر هو أمر جيّد حتى لو كان مرفوضًا في ثقافتي.

هـي «هبَـةُ الخـلاص» (عـام ١٩٩٧)، والتـي تناولـت بشـكلٍ أكبـر المسـائل اللاهوتيـة التـي تكلّـم عنهـا العديـدُ مـن الأشـخاص بعـد انتهـاء المبـادرة الأولى، لا سـيّما فيما يتعلّقُ بمسـألةِ التبرير. وأكّد الجانبان، أي الإنجيليّون وكنيسـة روما الكاثوليكيّـة، الاتّفـاقَ علـى العديد مـن جوانـب التبرير، بما فـي ذلـك شـرط الإيمـان للحصـول علـى التبريـر. لكن فـي نهايـة المطاف، تـركا عقيـدَةَ الاحتسـاب جانبًـا. فـي تقديـري، كانـت هـذه الوثيقـة أسـوأ بكثيـر مـن الأولـى لأنَّ واضعيها كانوا مسـتعدّين للمحافظة علـى تأكيدِهِم علـى وحـدة الإيمـان في الإنجيل مـن دون تأكيد عقيدة الاحتسـاب*، وهي مسـألة أساسـيّة في القرن السـادس عشـر.

بالنسـبة إلـيّ، فإنّ عقيدَةَ الاحتسـاب هـي عقيدةٌ غيرُ قابلـة للتفاوض. فـي عـام ١٥٤١، فـي نـدوة ريغنسـبورغ، بـذل مصلحـون عظمـاء جهـودًا جـادّةً للتصالـح مـع رومـا. لقـد اقتربـوا مـن المصالحـة، لكنّهم فـي النهاية لـم يتمكّنـوا مـن التوفيـق بيـن وجهـات نظرهـم المتنافسـة حـول عقيـدة الاحتسـاب. فقـد شـدّدَ لوثـر علـى أنّ البرّ الوحيـد الموجود عنـد المؤمنين فـي نظـر اللـه هـو بـرٌّ أجنبـيّ، أيّ بـرُّ المسـيح الـذي يَحسِـبُه لهـم اللـه أو ينسـبُه إليهـم. ليـس عنـد المؤمنيـن أمـلٌ فـي أن تُصبـح طبيعتُهـم بـارّةً لدرجـة أنّ اللـه سـيقبلُهم. لـو كان علـيّ أن أصبـحَ بـارًا بطبيعتـي قبـل أن يقبلَنـي اللـه، فسـوف أفقد فـورًا أملـي بالمسـيحيّة.

فـي عـام ٢٠٠٩، تـمّ إصـدارُ وثيقـةٍ جديدةٍ هـي «إعلانُ مانهاتـن: نداء للضَّميرالمسـيحيّ». كانـت محاولـة أخـرى لإيجـاد قضيّـة مشـتركة حـول

* الاحتسـاب: هـي لفظـة مُحاسـبيَّة تعني «الصرف والإيداع في حسـاب العميل». لقد أكمل المسـيح كلّ شيء مـن أجلنـا وبـدلًا عنّـا، لـذا لا ينبغـي أن نخـاف غضـب اللـه مطلقًـا إذا كنّـا في المسـيح.

مسـائل مُختلفة كقدسـيَّةِ الحياة والـزَّواج التقليديّ والحرّيّـة الدينيّة. وكان مـن بيـن الموقّعيـن علـى الوثيقـة إنجيليّـون وكاثوليـك وأرثوذكـس. لقـد كان مشـابهًا فـي كثير من النواحي لمبـادرة «الإنجيليّيـن والكاثوليك معًا»، وكان مدفوعًـا بالعديـد من الأشـخاص أنفسِـهم. لسـوء الحـظّ، أعطت هذه الوثيقـةُ التأييـدَ الشـاملَ نفسَـه لروما كهيئَةٍ مسـيحيّة.

يقـول إعـلانُ مانهاتـن: «المسـيحيّون هـم ورثـة تقليـدٍ عمـره ٢٠٠٠ عـام لإعـلان كلمـة اللـه». لكن من هـم المسـيحيّون الذين يتحـدّث عنهم؟ تشـير الوثيقـة إلـى «المسـيحيّين الأرثوذكـس والكاثوليـك والإنجيليّيـن». عـلاوة علـى ذلـك، تدعـو الوثيقة المسـيحيّين إلـى الاتّحاد فـي «الإنجيل»، «إنجيـل النعمـة الغاليـة الثمـن» و«إنجيل ربّنا ومُخلّصنا يسـوع المسـيح»، وتذكـر أنّـه مـن واجبنـا إعـلانُ هـذا الإنجيـل «فـي وقـت مناسـب وغيـر مناسـب».[٤] هـذه الوثيقـة تشـوّش الإنجيـل، وتحجـبُ التمييـزَ بيـن من هو مسـيحي، ومـن هـو غيـر مسـيحي، فأنـا لا أعتقـد أنّ الكنائـس الكاثوليكيّة والأرثوذكسـيّة تكـرزُ بالإنجيـل نفسِـه الـذي يكـرز بـه الإنجيليّون.

لـم أقـدرْ لهـذه الأسـباب أنْ أوقّعَ على إعلان مانهاتـن، وكذلك لا يقدرُ أنْ يفعـلَ ذلـك رجـالٌ مثـل جـون مـاك آرثـر ومايـكل هورتـون وأليسـتير بيـچ. كنّـا متّفقيـن مع تسـعةٍ وتسـعين بالمائة ممّـا ورَدَ في الإعـلان، وكلّنا نؤيّـدُ بشـدّةٍ قُدسـيّة الحيـاة والـزَّواج التقليـديّ والحريّـة الدينيَّـة. لكنّنا لم نتّفـقْ مـع هذا الإعـلان فـي تأكيداتِهِ المسـكونيَّة.

كانـت إحـدى المفارقـات الموجـودة فـي مبـادرة «الإنجيليّـون والكاثوليـك معًـا»، مـن بيـن أمـورٍ أخـرى، أنّ مـن صاغـوا الوثيقـة أرادوا

التغلّب على النسبيّة الثقافيّة. ولكن، انتهى بهم المطاف إلى جعل الحقيقةَ الأكثر أهمّيَة على الإطلاق حقيقةً نسبيّةً، وهي الإنجيل.

## سوءُ الفهم والارتباك

أعتقدُ أنّ مبادرَةَ «الإنجيليّون والكاثوليك معًا» والمبادراتِ الأخرى المماثلة لتحقيق قضيّةٍ مشتركة مع كنيسة روما الكاثوليكية تستند إلى سوءِ فهمٍ أساسيٍّ للموقف اللاهوتيّ للكنيسة الكاثوليكيّة وما تعلّمُه بالفعل. ليس هناك أدنى شكّ في أنّ الكنيسة الكاثوليكية قد تغيّرت منذ القرن السادس عشر. لكنّ التغييرات التي طرأت عليها لم تسدَّ الفجوَةَ بين روما والبروتستانتيّة. في الواقع، أصبحت الاختلافاتُ أعمقَ الآن. على سبيل المثال، الإعلان الرسميّ المُحدّد عن عصمة البابا وجميع البيانات المريميّة جاءَت بعد ظهور الإصلاح. كما أنَّ روما لم تتراجع عن أيّ من المواقف التي اتّخذتها في مناظرة القرن السادس عشر. في التعليم المسيحيّ المُحدَّث للكنيسة الكاثوليكيّة، والذي صدر في منتصف التسعينيّات، تمّ التأكيدُ مُجدّدًا على خزينةِ الجَدارة والمَطهر والكفّارات والتبرير من خلال الأسرار المقدّسَة، كما تمَّ التأكيد على عقائد أخرى.

أعتقدُ أنَّ سوءَ الفهم هذا كان مدفوعًا بشكلٍ أساسيّ بالارتباك الموجود حول أهميّة المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥). كان هذا المجمعَ المسكونيَّ الثاني للكنيسة الكاثوليكيّة منذ مجمع ترنت، والآخر هو المجمعُ الفاتيكاني الأوّل (١٨٦٩-٧٠). لذا، تُعتبر هذه المجامع اجتماعات نادرة، وقد تفاجأت الكنيسَةُ والعالم عندما دعا البابا يوحنّا الثالث والعشرون إلى عقد المجمعِ الفاتيكاني الثاني.

أشارت التصريحات الصادرة عن المجمع الفاتيكاني الأوّل إلى البروتستانت على أنّهم مُنشقّون ومُهرطِقون. في تناقض ملحوظ، كان خطاب المجمع الفاتيكاني الثاني لطيفًا ودافئًا ومريحًا، فقد دُعيَ البروتستانت «إخوَةً منفصلين». كانت رغبة البابا يوحنّا القلبيّة، التي أوضحها في رسالته الراعوية، أن تكون حظيرة الربّ واحدة. قال إنّه يجب أن تكونَ حظيرَةُ الربِّ موحّدَةً تحت راعٍ واحد مع عودة جميع المسيحيّين إلى الكنيسة الأمّ المقدّسة تحت سلطان البابا الروماني[٥]. كان يُنظَر إلى هذا البابا على أنّه طيبُ القلب وودودٌ ودافئ، لذلك استنتج الناس بسرعة أنّ روما قد غيّرت لاهوتَها. ولكن تغاضى كثيرون عن حقيقة أنّ البابا يوحنّا استبعَدَ أيَّ نقاشٍ حول التبرير في المجمع الفاتيكاني الثاني.

في عصر المجمع الفاتيكاني الثاني نفسِه، حدث شرخٌ كبيرٌ داخل الكنيسة الكاثوليكيَّة بجناحَيْها الغربيّ واللاتينيّ. تبنّى مُعظم الجناح الغربيّ ما سُمّي بـ «اللاهوت الجديد»، والذي كان أكثر توافقًا مع البروتستانتيَّة التاريخيَّة منه مع اللاهوت الروماني اللاتينيّ الأرثوذكسيّ الكلاسيكيّ.

أظهر هذا الشرخُ صُدفة أنّ الشَرِكة الرومانية الكاثوليكيّة المعاصرة ليست متينة كما كانت عليه تقليديًّا. يرى البعضُ أنّ هذا الشرخ يشكّل الخطورة نفسَها التي شكّلتها حركة الإصلاح. حين تسمع بعض الكهنة وحتى بعض الأساقفة يظنّ المرءُ أنّهم بروتستانتيّون في آرائهم. لكن من الهامّ أن نتذكّرَ أنّه عندما نقومُ بتحليلِ الكنيسة الكاثوليكيَّة، فإنّنا لا نتحدّثُ عن الكنيسة الأميركيّة أو الكنيسة الهولنديّة أو الكنيسة الألمانيّة أو الكنيسة السويسريّة. نحن نتحدَّث عن الكنيسة الكاثوليكيَّة

في روما. الحبرُ الأعظم للكنيسة الرومانية الكاثوليكيَّة ليس هو أسقفَ كنيسة نيويورك أو لوس أنجلوس. إنّه ليس أسقفَ برلين أو هايدلبرغ أو فيينّا. إنّه أسقف روما. هو الذي يحدّد، إلى جانب المجامع الكنسيّة، نظامَ معتقداتِ الكنيسة الكاثوليكيَّة في روما.

حقّقَ هذا اللاهوتُ الجديد نجاحاتٍ كبيرة، لا سيّما في ألمانيا وهولندا والولايات المتّحدة. نتيجةً لذلك، بدأ الكهنة الكاثوليك في هذه البلدان يبدون كما لو أنّهم مثل البروتستانت في التعاليم التي كانوا يعلّمونها. قالوا مثلًا إنّهم يؤمنون بالتبرير بالإيمان وحده. ولكن، لم تعكسْ معتقداتُهم المواقفَ الرسميَّة للكنيسة.

أدّت هذه التغييرات إلى انضمام العديد من البروتستانت إلى كنيسة روما الكاثوليكيّة. أظنُّ أنّ أعداد الذين يغادرون كنيسة روما الكاثوليكيّة إلى الكنيسة المُصلَحة أكبر بكثير، لكنّ عددًا من الإنجيليّين البارزين انضمّ إلى روما، وكان أبرزَهم على الأرجح فرانسيس بيكويث، الذي استقال من منصبِ رئيس الجمعيَّةِ اللاهوتيّة الإنجيليّة في عام ٢٠٠٧ عندما قرّر التحوّلَ إلى الكاثوليكيّة الرومانيّة.

أعتقدُ أنّ الأسبابَ الكامنة وراءَ هذه التحوّلات كثيرَةٌ. أوّلًا، يحبّ أولئك الذين يتحوّلون الى روما الليتورجيا الرومانيّة، ويرَون أنّها أسمى من العبادة غير الرسميّة والمعاصرة التي تمارَسُ في عددٍ متزايد من الكنائس الإنجيليّة. إنّهم يشعرون بانجذاب إلى جمال وجاذبيّة وعظمة العبادة الكلاسيكيّة الجليلة. أعتقد أنَّ هذا هو العامل الأكبر الذي يجذب الإنجيليّين نحو كنيسة روما الكاثوليكيّة.

ثانيًا، يبدو أنّ البروتستانتيّة منقسمة إلى عددٍ لا حصرَ له، ويشوبُها اضطراباتٌ بسبب الخلافات والمناقشات التي لا نهاية لها حول العقيدة، بينما تبدو روما موحّدةً ومستقرّةً عقائديًّا. هذا يلائمُ كثيرين من الذين يتوقون إلى الوحدة والسلام واليقين.

في خضَمّ كلّ هذا، طرح كتابٌ صدر عام ٢٠٠٥ السؤال التالي: «هل انتهى الإصلاح؟» وأكّد أنّ «الأشياء لم تعدْ كما كانت عليه من قبل».[٦] أمّا رَدّي أنا على هذه الفكرة القائلة بأنّ الإصلاح قد انتهى، فهو أنّ المؤلّفين لم يفهموا الإصلاح ولا البروتستانتيّة ولا الكاثوليكيّة. كان الإصلاح مجرّدَ التزامٍ بالحَقِّ الكتابيّ، وطالما هنالك انحرافاتٌ عن الحَقِّ الكتابيّ، يجب أن نشاركَ في مهمّة الإصلاح.

لذلك، عندما يقول الناسُ إنّ الإصلاح قد انتهى، وإنّنا لم نعد بحاجةٍ إلى خوض المعارك التي خاضها المُصلحون، وإنّه يمكنُنا أن نصنعَ السلام مع روما، فإنّهم يكشفون عن نقصٍ خطير في فهم القضايا التاريخيّة والحاليّة التي تفصل بين البروتستانت وكنيسة روما الكاثوليكيّة.

إنّ الحقيقةَ التي لا جدالَ فيها، هي أنّ روما قدّمَتْ عددًا من التأكيدات اللاهوتيّة القويّة والواضحة في مجمع ترنت. كان مجمع ترنت مسكونيًّا. لهذا السبب، فقد كان يقف وراءَهُ كلُّ ثقلِ عصمَةِ الكنيسة. لذلك، هناك شعورٌ بأنّ روما، ومن أجل الحفاظ على رؤيتِها المنتصرة لسلطة الكنيسة والتقاليد، لا تستطيع إلغاء قوانين ومراسيم مجمع ترنت. لقد أوضحَ التعليم المسيحيُّ للكنيسة الكاثوليكيّة في نهاية القرن العشرين، إعادَةَ تأكيده وبشكل واضح لا لُبسَ فيه لتعاليم

ترنت. لذا، فإنّ أولئك الذين يجادلون بأنّ هذه التعاليم حول التبرير لم تعد ذاتَ صلةٍ بالنقاش بين البروتستانتيّة والكاثوليكيّة الرومانية، يتجاهلون ببساطة ما تعلّمُه الكنيسة نفسُها. نعم، يوجد بعض الكهنة والعلماء في كنيسة روما الكاثوليكيّة الذين يعارضون بعض تعاليم كنيستهم، ولكن فيما يتعلّق بالتسلسل الهرميّ الروماني، فإنّ مجمعَ ترنت بقي ثابتًا في تعاليمِهِ فيما يتعلّق بالتبرير. لا يمكنُنا أن نتجاهلَ ما قاله ترنت في تقييمه موقفَنا فيما يتعلّق بكنيسة روما الكاثوليكيّة والأهميّة المتزايدَة للإصلاح.

لحسن الحظّ، نشهد اليوم ارتفاعًا في الاهتمام بالإنجيل الكتابيّ الذي تميّزَت به جهودٌ مثل «معًا من أجل الإنجيل»، والتي ترعى المؤتمرات التي تجمع بين الآلاف من الخدّام والعلمانيّين، ومعظمُهم في العشرينات والثلاثينات من العمر. هذه المجموعة الشَابّة هي التي تثير حماستي. نحن نرى جيلًا جديدًا من الخدّام الشباب الملتزمين بالحقيقة الإصلاحيّة والكتابيّة. أملي أن يصبحوا أكثر فأكثر راسخين في اللاهوت الذي يعتنقونه.

## روما مقابل البروتستانتيّة

لي في هذا الكتاب هدفٌ بسيط. أريد أن ألقيَ نظرَةً على تعاليم كنيسة روما الكاثوليكيّة في العديد من المجالات الهامّة، وأقارنَها بالتعاليم البروتستانتيّة. آملُ أن أُظهر، غالبًا باستخدام كلمات كنيسة روما الكاثوليكيّة الخاصّة، أنّها لم تتغيّرْ عمّا كانت تؤمن به وتعلّمُه في عصر الإصلاح. هذا يعني أنّ الإصلاحَ لم ينتهِ، ويجب أن نستمرّ ثابتين

فـي إعـلان الإنجيـل الكتابيّ.

سـنبدأ بالنظـر إلـى سـلطة الكتـاب المقـدّس، التـي كانـت السـببَ الرسـميَّ للإصـلاح البروتسـتانتيّ، ثـمَّ ننتقل إلى السـببِ الحسّـي للإصلاح، أي مسـألة التبريـر.

بعـد ذلـك، سـنتأمّلُ بـرأي الكنيسـة الرومانيَّـة الكاثوليكيّـة بعلاقـة الكنيسـة المنظـورة بالفـداء. فـي الفصـل الرابـع، سـنقارن ونقابـل بيـن وجهات نظر الكاثوليك والبروتسـتانت حول الأسـرار المقدّسَـة، ثمّ نتناول قضيّـة عصمـة البابـا، والتـي تشـكّل طبعًا مصـدرَ قلـقٍ كبير للبروتسـتانت. أخيرًا، سـننظر في تقسـيم اللاهـوت الكاثوليكيّ الرومانيّ المعروف باسـم «اللاهـوت المريَمـي»، أو دراسـة مـكان ودور ووظيفـة مريـم العـذراء في الحياة المسـيحيّة.

مهمّتُنـا، كمـا أراهـا، هـي أن نكـون أوفيـاءَ ليـس لتقاليدنـا أو حتـى لأبطـال الإصـلاح، بـل أن نكـون مُخلصيـن وأوفيـاءَ للحَـقِّ الكتابـيّ. نحـن نحـبّ الإصـلاح لأنّ المُصلحيـن أحبّـوا الحَـقَّ الإلهـيّ ودافعوا عنه ببسـالة، وبذلـك اسـتطاعوا أن يسـتردّوا نقـاءَ الإنجيـل. يجـب أن نكـون مسـتعدّين للمـوت مـن أجـل تلـك الحقائق الأساسـيّة جـدًّا للإيمـان المسـيحيّ. عندما يكـون الإنجيـلُ علـى المحـكّ، علينـا أن «نتخلّـى عن أهلنـا وأقراننـا وحتّى عـن هـذه الحيـاة الفانيـة أيضًا».[٧]

## الفصل ١

# الكتابُ المقدّس

عندما يدرسُ البروتستانتيّون علم اللاهوت الكاثوليكيّ، يكون التركيز عادةً على القضيّة الرئيسيّة للانقسام بين الفكر البروتستانتيّ والفكر الكاثوليكيّ الرومانيّ، وهو عقيدة التبرير. فالموقف البروتستانتيُّ يُشدّد على التبرير بالإيمان وحده. سوف أتناول مسألة التبرير في الفصل الثاني، ولكن هناك مسألةٌ أكثرُ جوهريّةً تفصل بين البروتستانت والكاثوليك، ألا وهي مسألة الكتاب المقدّس ومصدرُ السلطة.

سُمّيَ الإصلاحُ البروتستانتيُّ في القرن السادس عشر بهذا الاسم لأنّه كان احتجاجًا على تعاليم وممارسات مختلفة للكاثوليكيّة الرومانيَّة. ومع ذلك، فإنّ الكثيرين ممّن يُسمّون أنفسَهم بروتستانت اليوم، ليس لديهم فكرة واضحة عمّا كان الإصلاحيّون يحتجّون أو يعترضون عليه. عند تحديد القضايا الرئيسيَّة المَعنيّة، غالبًا ما يشير المؤرّخون إلى ما يُسمّى بالسبَب المادّي، والسبَب الرسميّ للإصلاح. التبرير كان السببَ الماديّ، أي كيف يتمُّ فداءُ الإنسان بواسطة يسوع المسيح. أمّا المسألة

الرسميّة، والتي كانت القضيّة الأساسيّة والمسألة التي لم تكن في دائرَةِ الضوء ولكنّها مع ذلك كانت في قلبِ النزاع بكاملِه، فقد كانت مسألةَ مصدرِ السلطة، وتحديدًا مسألة سلطةِ الكتاب المقدّس. علينا أن نبدأ بفحص مفهوم كنيسة روما الكاثوليكيّة لسلطة الكتابِ المقدّس، وما هي أوجه الشبَه والاختلاف مع وجهة النظَر البروتستانتيّة. كانت صرخة معركة الإصلاح فيما يتعلّق بالسبب المادّي هي: «سولا فيدي» أي «الإيمان وحده». بينما كانت صرخة المعركة فيما يتعلّق بالسبَب الرسميّ هي: «سولا سكريبتورا»، أي «الكتاب المقدّس وحده». كان هذا تأكيدًا على أنّ السلطة النهائيَّة والأخيرة للمؤمن المسيحيّ هي الكتاب المقدّس وحده.

حصل الإصلاحُ البروتستانتيُّ على زخمِهِ الأوّليّ من الجدل الدائر حول صكوك الغفران في ألمانيا. فقد علّقَ راهبٌ أوغسطينيٌّ اسمُه مارتن لوثر خمسًا وثمانين أطروحة على باب الكنيسة في ويتنبرغ، داعيًا إلى مناقشة بعض الانتهاكات التي لاحظها في برنامج صكوك الغفران هذا. انتشر هذا الاحتجاجُ الأوّليُّ وتحوّل إلى مواجهةٍ أوسع مع السلطات الكاثوليكيّة حول نقاطٍ مختلفة في اللاهوت.

شارك لوثر في العديد من المناظرات الهامَّة مع ممثّلي كنيسة روما الكاثوليكيّة. وربّما كان أهمَّها ظهورُ لوثر أمام توماس كاردينال كاجيتان، ممثّل البابا في الرابطة الإمبراطوريّة (وهي الجمعيّة العامّة للإمبراطوريّة المقدّسة) في أوغسبورغ في عام ١٥١٨. صرّح لوثر في هذا اللقاء أنّ البابا ليس معصومًا عن الخطأ في تصريحاتِه الكنسيّة. سنرى أيضًا في الفصل الخامس أنّ هذا حدث قبل وقتٍ طويلٍ من

التعريف الرسميّ للكنيسة الكاثوليكيّة لعقيدة عصمة البابا التي أُقرَّت في عام ١٨٧٠. ومع ذلك، فإنّ فكرة السلطة البابويّة تمَّ افتراضُ وجودِها ضمنيًّا داخل الكنيسة. ومع ذلك، تجرّأ لوثر على تحدّي هذه الفكرة، وأصرَّ على توثيق تعاليم البابا من الكتاب المقدّس. وقد أنكر لوثر كذلك عصمة المجامع الكنسيّة في المناظرات اللاحقة، ولا سيّما في المناظرة التي جرت في لايبزيغ مع مارتن إيك، عالم اللاهوت الألمانيّ الرئيسيّ للكنيسة الكاثوليكيّة آنذاك.

تاريخيًّا، انقسم اللاهوتيّون الكاثوليك فيما بينهم حول أين يُمكن أن تكون السلطة النهائيَّة موجودة: في المجامع الكنسيّة أو في القرارات البابويّة. اعتقدَ بعضُهم أنّ المجامع الكنسيّة كان لها سلطة أكبر من سلطة الباباوات، واعتقد البعض أنّ الباباوات كان لهم سلطة أكبر من المجامع الكنسيّة. لكن لوثر نفى أن يكون لأيّ منهما السلطة الأعلى. وصرّح أنّ الكتاب المقدّس هو السلطة الأعلى على الإطلاق. لم يكن لوثر يعتقدُ أنّ أعضاء المجامع الكنسيّة مُجتمعين أو الباباوات بشكلٍ فرديٍّ كانوا معصومين عن الخطأ في تصريحاتِهم أو قراراتِهم.

وصلت هذه القضيّة إلى ذروتِها في اجتماع وورمز عام ١٥٢١، عندما أُمِر لوثر بالوقوف والدّفاع عن قضيّتِهِ أمام أمراء الكنيسة والإمبراطور الرومانيّ المقدّس تشارلز الخامس. وعندما دُعي لوثر إلى التراجع عن آرائه وكتاباته، أجاب بعد الكثير من التفكير: «ما لم أقتنع من الكتابِ المقدّس والمنطق السليم، أنا لا أقبل بسلطةِ الباباوات والمجامع، لأنّهما يتناقضان مع بعضِهما البعض، فضميري أسيرٌ لكلمة الله. لا يمكنني أن أتراجع ولن أتراجع عن أيِّ شَيءٍ، فمخالفة الضمير

ليس أمرًا صائبًا ولا آمنًا. هذا هو موقفي الثابت. لا أستطيع أن أفعلَ غيرَ ذلك. فليكن الله في عوني. آمين».[١]

كان الجزء الأكثر أهميّةً في هذا التصريح هو إصرارُ لوثر على «إقناعِه من خلال الكتاب المقدّس». لقد اعتبَرَ أنّ السلطة المُطلقة هي الكتابُ المقدّس. وأكّد أنّه من المُمكن أن يكون الباباوات والمجامع قد أخطأوا، وقد أخطأوا فعلًا، لكنّه وضع الكتاب المقدّس فوقَهما، مشيرًا إلى أنَّ الكتاب المقدّس لا يمكن أن يُخطئ. لذلك، تمَّ فورًا رفعُ وإعلاءُ عقيدة الكتاب المقدّس كعقيدةٍ أساسيّة عند جميع الهيئات البروتستانتيّة في القرن السادس عشر.

## وجهة نظر عالية حول الكتاب المقدّس

بسببِ هذا الخلاف، بدا أنّ الكنيسة البروتستانتيّة تؤمن أنَّ الكتاب المقدّس هو السلطة النهائيّة، بينما تؤمن كنيسة روما الكاثوليكيّة بأنّ البابا أو الكنيسة هي السلطة النهائيّة، كما لو أنّ روما لديها نظرة متدنّيَة للكتاب المقدّس. أريد أن أضع هذا الأمر جانبًا بينما ندرس تطوّر وجهة نظر كنيسة روما الكاثوليكيّة حول الكتاب المقدّس.

كان مجمع ترنت (١٥٤٥-٦٣) من أهمّ اللحظات في التاريخ الروماني الكاثوليكيّ. تمَّتِ الدعوة إلى مجمع ترنت لصياغة ردٍّ على الإصلاح، وما زالَ اضخم مجمع نزاعٍ بين البروتستانتيّة والكاثوليكيّة الرومانيّة. في هذا المجمع، أعطت روما تعريفًا رسميًّا لآرائِها حول التبرير والأسرار المقدّسة والعديد من القضايا الأخرى التي كانت محلَّ

نـزاعٍ أثنـاء الإصـلاح.

فـي الـدورَةِ الرابعـة لمجمـع ترنـت (١٥٤٦)، حـدّدت رومـا تعريفَهـا للكتـاب المقـدّس:

> [الإنجيـل]، الموعـودُ بـه مـن خلال الأنبيـاء في الكتـاب المقدّس، أعلنـه ربُّنا يسـوع المسـيح، ابنُ اللـه، أوّلًا بفمِهِ، ثمّ أوصى رسـلَه أن يكـرزوا بـه للخليقَـةِ كلّها، باعتباره ينبوعَ كلّ شـيء: هو ينبوعُ الحـقّ المُخلّـص وينبـوع الانضبـاط الأخلاقـيّ. ونـرى بوضـوح أنّ هـذه الحقيقـة وهذه الأخلاقيّات موجودة في الأسـفار المكتوبة، وأيضًـا موجـودة فـي التقاليد غير المكتوبة المُسـلّمة من الرسُـل من فم المسـيح نفسِـه، أو من الرسُـل أنفسِـهم، بإملاء من الروح القـدس، قـد نُقلـت إلينـا اليـوم كمـا لـو وصلتنـا مـن يـدٍ إلـى يدٍ. [المجمـع] باتّباعِـه قـدوةَ الآبـاء المسـتقيمين، يتلقّـى ويُكـرم بالقـدرِ نفسِـه مـن المـوَدَّة والتقـوى، كلَّ أسـفار العهـد القديـم والجديـد – ويعتبـرُ أنَّ اللـهَ نفسَـه هـو مؤلّفُهما.[٢]

أعلـن مجمـع ترنـت في هذا التصريـح أنّ الكتابَ المقـدّس وصل إلينا إمّـا مباشـرة مـن فـم المسـيح، أو بواسـطة الرسـل بإمـلاء مـن اللـه الـروح القـدس. وصـرّح أيضًـا عـن اللـه بأنّـه مؤلّـف العهدَيـن القديـم والجديـد. وهكـذا، كان للكنيسـة الكاثوليكيّـة نظـرة عاليـة جـدًّا للكتـاب المقدّس.

الكلمـة الأكثـر أهميّـة في هـذا التصريح هي كلمة «الإمـلاء». قيل في هـذا التصريـح إنّ الـروحَ القـدُس قـد أملى كلمـاتِ الكتاب المقـدّس. كثيرًا

ما اتُّهم المسيحيّون الإنجيليّون بالتمسّكِ بما يسمّى بـ «نظريّة الإملاء» للوحي الكتابيّ، والتي تفترض أنّ الروح القدس قد أملى محتوى الكتاب المقدّس كلمةً بكلمة على المؤلِّفين البشريّين، كما لو كان يقفُ فوق كتفِ الرسول بولس ويقول له: «اكتب الآن: بُولُسُ، عَبْدٌ لِيَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ، ٱلْمَدْعُوُّ رَسُولًا، ٱلْمُفْرَزُ لِإِنْجِيلِ ٱللهِ» (رومية ١: ١). يُلغي هذا الرأي أيّ مساهمة من المؤلّفين البشريّين في نَصِّ الكتاب المقدّس، ولا يترك مجالًا للأنماط الفرديّة ووجهاتِ النظر والاهتمامات الشخصيّة وما إلى ذلك. لكن بالنسبةِ إلى الجزء الأكبر من البروتستانت، فقد رفضوا بشدّةٍ نظريّةَ الإملاء.

ولكن، بما أنّ كلمة إملاء تظهر في وثائق مجمع ترنت، قال نُقّاد اللاهوت الكاثوليكيّ الرومانيّ إنّ مجمع ترنت قد علّم وجهة نظر تافهة ومبسّطة عن عقيدَةِ الوحي. لكن مجمع ترنت لم يوضّح بالتفصيل ما قصده بعبارة «إملاء الروح القدُس». علاوة على ذلك، هناك اتّفاق عالميّ تقريبًا بين العلماء والمؤرّخين الكاثوليك، على أنّ مجمع ترنت لم يُحدّد بالتفصيل مفهومَه لفكرة الإملاء. بدلًا من ذلك، كان ببساطةٍ يستخدم العبارة بشكلٍ مجازيٍّ للَفتِ الانتباه إلى حقيقة أنّ أصلَ وسلطة أسفار الكتاب المقدّس هي في قوَّةِ وسلطانِ الله، وبالتحديد الله الروح القدُس.

إذا تتبّعنا تطوّرَ اللاهوت الكاثوليكيّ الرومانيّ فيما يتعلّق بالكتاب المقدّس منذ القرن السادس عشر، سنكتشف أنَّ روما حافظت على نظرَةٍ قويّةٍ جدًّا لعصمَةِ ووحي الكتابِ المقدّس. كان هذا واضحًا بشكلٍ خاصّ في القرن التاسع عشر، عندما كانت مسألةُ مصداقيّة الكتاب المقدّس مسألةً مركزيّةً في الكنيسة البروتستانتيّة والكاثوليكيّة

على حدّ سواء خلال ما يسمّى بـ الجدل الحداثي*. حرّض هذا الجدل المحافظين المسيحيّين ضدّ اللاهوتيّين الليبراليّين، الذين ركّزوا الكثير من جهودِهم على مهاجمة مصداقيّة ونزاهة شهود الكتاب المقدّس. غالبًا ما يُنظر إلى الجدل حول الحداثة على أنه نزاع بين ما يسمّى بالأصوليَّة الأمريكيَّة والليبراليّة الأوروبيّة والأميركيّة. ومع ذلك، لم يقتصر هذا الجدل على الدوائر البروتستانتيَّة. كما كان له تأثير كبير على الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة. تحدّثت روما بشدَّةٍ ضدَّ الحركة الحداثيَّة في مختلف المراسيم والمنشورات البابويَّة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

على سبيل المثال، في المجمع الفاتيكاني الأوّل الذي عُقد في ١٨٦٩-١٨٧٠، قالت كنيسة روما الكاثوليكيّة الرومانيَّة: «هذه الأسفار... التي كُتبت بوحيٍ من الروح القدُس، هي من تأليف الله.[٣] علاوة على ذلك، أصدر المجمع قرارًا: «إنها تحتوي على وحيٍ بلا خطأ،[٤] وهذا تأكيدٌ واضح على عصمة الكتاب المقدّس. وقد أعاد البابا پيوس العاشر التأكيد على عصمة الكتاب المقدّس هذه في عام ١٩٠٧، وقد كان عامًا محوريًّا في ما يُسمّى بالجدل الحداثي. في ذلك العام، أصدر البابا پيوس رسالتَيْن تؤكّدان عصمة ووحيَ الكتاب المقدّس وإلهامَه في وجه الجدل الحداثي، وقدّمَ فيهما نقدًا لاذعًا لموقف الجدل الحداثي فيما يتعلّق بالكتابِ المقدّس. وفي ذلك الوقت أيضًا، من أجل وقف تيّار الليبراليَّة، طلبت كنيسة روما الكاثوليكيّة أن يقومَ كلُّ كاهنِ رعيّةٍ

* الجدل الحداثي هو انشقاق رئيسي نشأ في عشرينيّات وثلاثينيّات القرن الماضي داخل الكنيسة المشيخيّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة. كانت الخلافات التأسيسيّة حول دور المسيحيّة وسلطة الكتاب المقدّس وموت وقيامة المسيح وذبيحة المسيح الكفّاريّة محلّ الخلاف.

بـأداء يميـن الـولاء للكنيسـة ومقرّراتِها، ممّـا يعني أنّ أولئـك الذين لديهم قناعـاتٌ يتبنّاهـا الجـدلُ الحداثي أجبِروا على الاختباء أو مغادرة الكنيسـة.

الصـورة التـي أريـدُ توضيحَها هـي أنّه فـي العقود الأخيـرة من القرن التاسـع عشـر والعقـد الأوّل مـن القـرن العشـرين، عارضـت كنيسـة رومـا الكاثوليكيّـة بشـدّةٍ أيَّ ميـولٍ ليبراليّـة فـي التعامـل مـع عقيـدة الكتـاب المقـدّس. وأعـادت التأكيـد علـى وجهـة نظـر قويّة نحـو الكتـاب المقدّس بعبـارات لا لُبْـسَ فيهـا. حتى هانـز كونغ (من مواليـد ١٩٢٨)، وهو الباحثُ الرائـد فـي اللاهـوت الكاثوليكـيّ الرومانيّ في القرن العشـرين، قال: «منذ زَمَـنِ لاوون الثالـث عشـر (البابا مـن ١٨٧٨ إلى ١٩٠٣، ولا سـيّما أثناء أزمَةِ الحداثـة، تـمَّ الحفـاظُ علـى العصمـة الكاملـة والمطلقـة للكتـاب المقدّس بشـكلٍ صريـحٍ ومنهجـيٍّ فـي الرسـائل البابويّـة».[٥] بالطبـع، لـم يؤكّـد كونغ شـخصيًّا العصمـة واعتقـدَ أنّ الكنيسـة كانـت مُخطئة فـي تصريحاتها. ومع ذلـك، كان لديـه مـا يكفـي مـن النزاهـة العلميّـة ليوضّـحَ بدقةٍ مـاذا كانت الكنيسـة تُعلّم.

## مُقدّمة للنَّقد العالي

فـي عـام ١٩٤٣، أصـدرَ البابا پـيوس الثاني عشـر (البابا مـن عام ١٩٣٩ إلـى عام ١٩٥٨) رسـالةً عامّـة بعنـوان «*Divino Aflante Spiritu*». أثبتت هـذه الرسـالة أنّهـا محوريّـة فـي المناقشـات الأخيـرة مـع علمـاء لاهـوت بريطانيّيـن* فيمـا يختـصّ بالتعامـل مـع الكتـاب المقـدّس بشـكلٍ نقـديّ.

* كانـوا في البدايـة مجموعـة من علـماء اللاهوت الأنجليكانيـين المعتدلين في القرن السـابع عشر من رجـال ديـن وأكاديميـين مـن جامعـة كامبريـدج.

علاوة على ذلك، هي أيضًا ذاتُ أهمّيَة محوريّة لفهم الجدل الحالي داخل كنيسة روما الكاثوليكيّة فيما يتعلّق بنظرتِها إلى الكتاب المقدّس.

بدأت الرسالة البابويّة بهذه الكلمات: « بوحيٍ من الروح الإلهيّة، ألَّفَ الكتّابُ المُقَدَّسون تلك الأسفار التي تفضَّلَ الله في محبّتِهِ الأبويَّة نحو الجنس البشَريّ، أن يمنحَهم إيّاها من أجل التعليم والتوبيخ والتأديب وتعليمِها بعدل: لكي يكون إنسانُ الله كاملًا، متأهّبًا لكلِّ عملٍ صالح». ثمّ تابعت الرسالة ووصَفَتْ الكتابَ المقدّس بأنّه: «كنزٌ مرسلٌ من السماء» و «أثمنُ مصدَرٍ للعقيدة فيما يختصّ بالإيمان والأخلاق».[٦]

ثمّ انطلق پيوس بعد ذلك لتقديم مراجعةٍ تاريخيّةٍ مثيرَةٍ للاهتمام للتعاليم السابقة للكنيسة الكاثوليكيّة حول الكتاب المقدّس. قبِلَ ووافقَ على صيغةِ ترنت، ثمّ أضاف:

> بعد ذلك، على الرغم من هذا التعريف الرسميّ للعقيدة الكاثوليكيّة الذي من خلاله تمّ الادّعاءُ بهذه السلطة الإلهيّة «للأسفار بكامِلِها في كلّ أجزائِها» لضمان عدم وجود أيّ خطأ فيها مهما كان، غامر بعضُ الكُتّاب الكاثوليك بحصر الحَقِّ الكتابيِّ في المسائل التي تتعلّقُ بالإيمان والأخلاق، واعتبار الأمور الأخرى، سواء كانت في مجال العلوم الفيزيائيّة أو التاريخ، على أنّها «*obiter dicta*» (عبارة لاتينيَّة تعني: أقوال عرضيّة أو عابرة غير مُلزِمة) وبأنّها - بحسب زعمِهم- ليس من الحكمة ربطُها بأمور بالإيمان. لقد نشر سلفُنا الخالد الذّكر، ليو الثالث عشر، في رسالته العامّة بعنوان «*Providentissimus Deus*»

(عبارة لاتينيّة تعني: إله كلِّ عناية)، التي تمَّ نشرُها في ١٨ نوفمبر من عام ١٨٩٣، أدان فيها بحقّ وعدل هذه الأخطاء، وحافظَ على تفاسير الأسفار الإلهيَّة وفقًا لمعظم الأساليب والمبادئ المناسبة لتفسير الكتاب المقدّس.[٧]

أنا أقومُ بلفتِ الانتباه إلى هذا الجزء من الرسالة البابويّة العامّة بعنوان «*Divino Aflante Spiritu*» (عبارة لاتينيّة تعني: موحى به من الروح الإلهيّة - الروح القدس)، لأنّ پيوس راجع الرسائل البابويّة العامّة السابقة، بما في ذلك الرسالة البابويّة العامّة بعنوان «*Providentissimus Deus*»، واعتبر أيَّ وجهةِ نظر تحاول حصرَ وحي وعصمة الكتاب المقدّس بالأمور الإيمانيّة والأخلاقيّة بأنّها هرطقة. باختصار، أكّد كلَّ ما قاله أسلافُه. وتابع قائلًا: «نحنُ، مدفوعون باهتمامنا الشديد بدراسات الأسفار المقدّسة الذي أظهرناه منذ بداية عهدنا البابوي، نعتبر أنّه يُمكنُ القيامُ بهذا الأمر من خلال تصديق وتثبيت كلّ ما وضَعَه سلفُنا بحكمةٍ، وبكلّ ما أمر وقضى به خلفاؤُه».[٨]

تحدّثَ بشكلٍ خاصّ عن كتاباتِ ليو قائلًا:

كان الإهتمامَ الأوّلَ والأكبر عند ليو الثالث عشر تحديدُ التعاليم حول حقيقة الأسفار المقدّسة والدّفاع عنها من الهجوم. ثمّ أعلن بكلماتٍ خطيرة أنّه لا يوجد خطأ على الإطلاق إن كان الكاتبُ المقدّس، وهو يتحدَّثُ عن أشياءَ تتعلقُ بالنظام المادّي، «تكلّم أيضًا بما بدا له أنّه منطقيّ ومعقول» كما يقول الطبيب

الملائكـيّ، متحدّثًـا إمّـا «بلغـةٍ رمزيّـة، أو بعبـارات كانـت شـائعة الاسـتخدام فـي ذلـك الوقـت، وفـي كثيـرٍ مـن الحـالات مـا زالت تُسـتخدم حتّـى يومِنـا هـذا، حتّى بين أبـرز رجـالِ العلم».[٩]

كان پـيوس يشـير هنـا إلـى أنَّ عقيـدَةَ العصمـة الكتابيّـة لا تعنـي أنّه لا يوجـد مـكانٌ فـي الكتـاب المقـدّس للّغـةِ التصويريّـة، لمـا نسـمّيه نحـن البروتسـتانت باللغـة الظّاهريّـة، أي اللغـة التـي تصـفُ الأشـياء كمـا تظهر للعيـن المجـرّدة، مثـل عبـارة أنّ الشـمسَ تتحـرّكُ فـي السـماء. هـذا ليس خطـأ. ثـم تابـع حديثه عن ضـرورَةِ القيـام بنقدٍ دقيـقٍ وتحليل أدبـيٍّ لنَصِّ الكتـاب المقـدّس، حتـى نتمكّـنَ من فهـم الأشـكال الصحيحة التـي وصلتنا بهـا الأسـفارُ الكتابيّـة. ثـمّ أضاف:

> المعنـى الحرفـيّ لنَـصٍّ مـا ليـس دائمًـا واضحًـا فـي خطابـات وكتابـات المؤلّفيـن القدمـاء فـي الشـرق، كمـا هـو فـي كتابـات عصرنـا. لأنّـه لا يتـمُّ تحديدُ ما أرادوا التعبيـرَ عنه من خلال قواعد النحـو وفقـه اللغـة وحدهمـا، ولا فقـط مـن خلال السـياق. يجب علـى المترجِـم، إذا جـاز التعبيـر، أن يعـودَ كليًّـا بالـروح إلـى تلك القـرون القديمـة فـي الشـرق، وبمسـاعدة التاريـخ وعلـم الآثـار وعلـم الأجنـاس البشَـريّة وغيرها من العلوم، عليـه أن يحدّدَ بدقّةٍ أنمـاط الكتابـة التي مـن المرَجَّـح أنَّ مؤلّفي تلك الفتـرة القديمة قـد اسـتخدموها، أو إن كانـوا قـد اسـتخدموها فعـلًا.[١٠]

كان پـيوس يدعـو إلـى التحقيـق الدقيـق في الهيـاكل الأدبيَّـة للكتاب

المقـدّس حتـى نتمكّـنَ مـن فهـم الأشـكال التـي نُطِقَـت بها كلمـة الله.

كانـت هـذه الرسـالةُ البابويّـة العامّـة محوريّـةً لأنّ مضمونَهـا وروحَها ولغتَهـا وتصريحاتِهـا تقـول بوضـوح إنّ پـيوس الثانـي عشـر لم يكـن لديه أي نيّـة لتخفيـف أو إضعـاف التصريحـات القويّـة التـي أدلـت بهـا رومـا بشـأن عصمـة الكتـاب المقـدّس. فـي الواقع، لقـد ذهب إلى أبعـد الحدود فـي بداية الرسـالة ليشـير إلـى اتّفاقه مع الرسـائل البابويّة السـابقة. ولكن، لأنّـه سـمح بتحليـل الأشـكال الأدبيّـة في مبدأ التفسـير، وصـل كبّـارُ النقّاد داخـل رومـا إلـى اسـتنتاجٍ مفـادُه أنّ لديهـم الحريّـة فـي فحـص الكتـاب المقـدّس مـن حيـث شـكلِ الخُرافـةِ وشـكلِ الأسـطورة وشـكلِ الملحمَـة وهكـذا دواليـك. فتحت الرسـالة البابويّة لپـيوس البابَ بما يكفي للسَّـماح لحرَكـةِ النقـدِ الأعلـى بالبـدءِ فـي العمـل علانيّـةً داخـل كنيسـة رومـا الكاثوليكيّـة. أثـار ذلـك أزمَـةً خاصّة بحدّ ذاتِهـا، وهذا يقودُنـا إلى المجمع الفاتيكانـي الثانـي (١٩٦٢-١٩٦٥).

## تقييدُ العصمة؟

كان فـي المجمـع الفاتيكانـي الثانـي الكثيـرُ مـن النقاشـات الحادّة حـول مسـألةِ السـلطة الكتابيّـة وعقيـدَةِ الكتـاب المقـدّس داخـل كنيسـة رومـا الكاثوليكيّـة. بعـد الكثيـر مـن الجَـدَل، أصـدر المجمـعُ بيانًـا عُـرف باسـم «*Dei Verbum*» (عبـارة لاتينيّـة تعنـي: كلمـة اللـه)، أي مـا يُسـمّى بالدّسـتور العقائـديّ فـي الوحـي الإلهيّ. قـال: «يجب الاعتراف بأنّ أسـفار الكتـاب المقـدّس تعلّـمُ بمتانـةٍ وإخـلاص ومـن دون خطـأ تلـك الحقيقـة التـي أراد اللـه وضعَهـا فـي الأسـفار المقدّسـة من أجـل الخـلاص».[١١] وكان

المحافظون في المجمع يضغطون من أجل إدراج مصطلح «العصمة» أو عبارة «بلا خطأ». لكنْ، لاحظِ الوصف في هذه العبارة. ما هو الأمر الذي لأجله يُعترَف بأنّ أسفارَ الكتاب المقدّس تُعتبَر تعليمًا بلا خطأ؟ إنّها «تلك الحقيقة التي أراد الله وضعَها في الأسفار المقدّسة من أجل الخلاص». هذا ليس بيانًا شاملًا يغطّي كلّ الكتاب المقدّس، بل هو تصريح بأنّ الموضوع الوحيد الذي يُقالُ عن الكتاب المقدّس إنّه يتحدَّثُ عنه بشكلٍ معصوم هو الخلاص.

نظرَ المحافظون في كنيسة روما الكاثوليكيّة إلى الدستور العقائديّ حول الوحي الإلهيّ في ضوءِ تصريحاتِ الكنيسة السابقة حول الكتاب المقدّس، وقالوا إنّه إذا كانت روما ثابتة ومعصومة ومتماسكة بشكلٍ منهجيٍّ، فإنّ الاستنتاج الوحيد الممكن هو أنّها لم تقلْ شيئًا جديدًا. سبقَ أن قالت روما إنّ الكتابَ المقدّس لا يخطئُ في كلّ ما يقوله، ممّا يعني أنّ عصمَتَه لا تقتصِرُ على الحقيقة ذاتِ الصلة بالخلاص. أولئك الذين أرادوا حصرَ العصمة الكتابيّة في مسائل الإيمان والأخلاق أدانهم پيوس الثاني عشر في رسالته البابويّة بعنوان: «*Divino Aflante Spiritu*» في عام ١٩٤٣.

من ناحيةٍ أخرى، قال الليبراليّون إنّ الدستور العقائديَّ في الوحي الإلهيّ يمثّل تقدّمًا في حيويّة الكنيسة النابضة بالحياة. لقد اعتقدوا أنّ الدستور حصرَ العصمة في التعاليم المُختصَّة بالخلاص. لقد رأَوْا أنّه يفتحُ البابَ على مصراعَيْه، الباب الذي أغلقه «*Divino Aflante Spiritu*» بإحكام. عَكَسَ موقِفَهم ما كان يجري في كواليس الفاتيكان الثاني، حيث أعلن فرانز كاردينال كونيغ، رئيسُ أساقفة فيينا، أنّ الكتاب المقدّس

يحتوي على أخطاء تتعلّق بمسائل التاريخ والعلوم الطبيعيّة. وحثّ المجمعُ بشدّةٍ على عدم تبنّي وجهة نظر متطرّفة للعصمة بحيث لا تسمح للعلماء بانتقاد وتصحيح الأخطاء التاريخيّة والعلميّة في الكتاب المقدّس. رأى الليبراليّون البيانَ الختاميَّ للدّستور العقائديّ على أنّه انعكاسٌ لموقف كونيغ، لكنّ البابا ترَكَه غيرَ مكتمل، قائلًا إنّ الأمر متروكٌ للأجيال القادمة لكي تدرسَه.

لذلك، يعتقد المحافظون في كنيسة روما الكاثوليكيّة أنّ مسألة عصمة الكتاب المقدّس قد تمّت تسويتُها. أمّا الليبراليّون فلا يوافقون على ذلك، معتبرين أنّ المسألة لا تزال مفتوحة للفحص والتدقيق.

## إختلافات في المواقف

لقد جاهدتُ في هذا المَسح التاريخيّ لإظهار أنّه كان للكنيسة الكاثوليكيّة رؤيةٌ عالية ومُميّزة حول الكتاب المقدّس، على الأقلّ تاريخيًّا ورسميًّا. مَهَمَّتُنا الآن هي تحديدُ الاختلافات بين المقاربات الكاثوليكيّة الكلاسيكيّة للكتابِ المقدّس ووجهات النظَر البروتستانتيّة. أريد أن أذكر اختلافَيْن هامَّين للغاية.

الأوّل والأكثر وضوحًا هو فيما يتعلّق بمسألة قانونيّة أسفار الكتاب المقدّس. هذا سؤالٌ مُعقّد لا يشمل فقط عددَ الأسفار القانونيّة بشكل صحيح، ولكن أيضًا الطريقة التي تمَّ بها وضعُ قانونيّة أسفار الكتاب المقدّس.

يحتوي الكتابُ المقدّس الكاثوليكيّ الرومانيّ على بعض الأسفار غير الموجودة في الطبعات البروتستانتيّة للكتاب المقدّس. تُمثّل هذه

الأسـفار المسـمّاة بالأسـفار القانونيّة الثانية جزءًا من الأسـفار الأبوكريفيّة أو غيـر القانونيّـة مـن فتـرة ما بين العهدَيـن، أي القرون بيـن إغلاق قانون العهـد القديـم وافتتاح قانون العهد الجديد. شـملَ ترنت سـفرَي اسـدراس الأوّل والثانـي وسـفرَ طوبيـا وسـفرَ يهوديـت وسـفرَ الحكمـة وسـفر نبـوّة بـاروك وسـفرَي المكابييـن الأوّل والثانـي، وغيرَهـا من الأسـفار التي تُعتبر قانونيّـة. أمّـا البروتسـتانت فقـد أنكـروا صفـة القانونيّة عن هذه الأسـفار.

الأدلّـةُ التاريخيّـة دامغـة علـى أنّ القانونَ اليهـوديَّ لم يتضمّن أسـفار مـا بيـن العهديـن تلـك. أودّ أن أؤكّـد أيضًـا بثقـة أنّ الغالبيّـة العظمـى من مؤرّخـي الكنيسـة الكاثوليكيّـة وعلمـاءِ الكتـاب المقدّس يوافقـون على أنّ الأدلّـة التاريخيّـة تميـل إلـى الاسـتنتاج القائـل بـأنّ هـذه الأسـفار لم تكن ضمـن الأسـفار القانونيّـة اليهوديّة. لكـن هذه الحقائق لا تهمّ كثيرًا بسـبب الطريقـة التي اسـتخدَمَتها كنيسـة رومـا الكاثوليكيّة لتثبيت قانونيّة أسـفار الكتـاب المقدّس.

يعتقد البروتسـتانت أنّ قانونيّة أسـفار الكتاب المقدّس هي مجموعة مـن الأسـفار المعصومـة مـن الخطـأ. بعبـارة أخـرى، لا تؤمـن الكنيسـة البروتسـتانتيّة بأنّ الكنيسـة كانـت معصومةً من الخطأ فـي تحديد قانونيّة أسـفار الكتـاب المقـدّس. نعتقد أنّ الكنيسـة كانت مدعـوّةً لاتّخاذ قرارات متعلّقـة بالتاريـخ بشـأن مـا إذا كانـت بعضُ الأسـفار قانونيّة. ومـع أنّه كان يتـمُّ اتّخـاذُ هـذه القـرارات بعـد الكثيـر مـن الدراسـات وغربلتِهـا تاريخيًّا، مـن المنطقـيّ أن تكـون الكنيسـة قـد ارتكبـت أخطـاءَ فـي اعتبـار بعـض الأسـفار قانونيّـة أو غيـر قانونيّة. ومع ذلك، فإنّ الأسـفار التـي تمّ اختيارُها تُعتبـر معصومـةً من الخطأ بشـكلٍ مسـتقلّ عـن غيرها من الأسـفار. لذلك،

كما يقول إقرار الإيمان في وستمنستر، فإنّ الكتاب المقدّس «يبرهن نفسَه بغنًى أنه كلمة الله»، وبشكل بارز من خلال «العمل الداخلي للرّوح القدُس الذي يشهد بواسطة الكلمة ومعها في قلوبنا». (١. ٥). هذا يعني أنّه يمكنُنا أن نكونَ واثقين من أنّ الأسفار الموجودة في القانون البروتستانتيّ هي الأسفار «الصحيحة».

بالمقابل، تعتقد كنيسة روما الكاثوليكيّة أنّ الكتاب المقدّس هو مجموعة معصومة من الأسفار المعصومة. وهذا يعني أنّ الأسفار نفسَها ليست فقط معصومة من الخطأ، بل خلال عمليّة جمع الأسفار القانونيّة، مارست الكنيسة قدرةً معصومة من الخطأ للتعرّف على تلك الأسفار المعصومة والموافقة على عصمتها.

لتوضيح الفرق بين المواقف البروتستانتيّة والكاثوليكيّة، دعونا نتخيّل أنّ الله أعطانا عشرة أسفار، خمسة منها كانت معصومة، وخمسة منها غيرَ معصومة وتحتوي على أخطاء. ثمَّ فوَّضَنا اللهُ بفصل الأسفار المعصومة والتعرُّف عليها. إنْ كنّا غيرَ معصومين من الخطأ، قد نختار بشكلٍ صحيح أربعة من الأسفار الخمسة المعصومة. ولكن، قد نختار أيضًا أحدَ الأسفار غيرِ المعصومة ونعتبرُه معصومًا من الخطأ. بالطبع، لن تغيّر قراراتُنا طبيعة الأسفار، فالسفرُ الوحيد المعصوم الذي لم نختَرْه، سيبقى معصومًا من الخطأ، على الرغم من أنّنا فشلنا في إدراجِهِ ضمن «أسفارنا القانونيّة». وبالمثل، فإن السفرَ غيرَ المعصوم الذي قُمنا باختياره، لن يكون معصومًا من الخطأ. لن يكون لقراراتنا أيُّ تأثيرٍ بهذه الطريقة لأنّنا غيرُ معصومين من الخطأ.

بالطبع، إذا كنّا معصومين من الخطأ، فسنحدّد بشكلٍ صحيح الأسفارَ الخمسة المعصومة من دون أن نترك سفرًا واحدًا منها، ومن دون أن نشملَ أي من الأسفار غير المعصومة. لن نرتكبَ أيّ خطأ لأنّنا نمتلكُ القدرة المعصومة على إدراك الأسفار المعصومة. هذه هي القدرة التي تدّعي روما امتلاكَها خلال اختيارها التاريخيّ لمجموعةِ أسفار الكتاب المقدّس.

إذًا، السؤال التاريخيّ حول ما إذا كان القانون اليهوديّ يحتوي على أسفارٍ معيّنَةٍ لا يهمُّ روما، لأنّ الكنيسة على يقينٍ من أنّ لديها الأسفار الصحيحة كونها لا تستطيع إلّا أن تختار الأسفارَ الصحيحة بسبب قدرتِها المعصومة على معرفة تلك الأسفار.

ثانيًا، إنّ القضيَّة المركزيّة للانقسام فيما يتعلّق بالكتاب المقدّس هي علاقة الكتاب المقدّس مع تقليد الكنيسة. أشرتُ في وقتٍ سابق إلى الإعلان الصادر عن الدورة الرابعة لمجمع ترنت، والذي يقول: «[الإنجيل]، الموعود به من خلال الأنبياء في الكتاب المقدّس، أعلنه ربُّنا يسوع المسيح، ابنُ الله، أوّلًا بفمِهِ، ثمّ أوصى رسلَه أن يكرزوا به للخليقةِ كلّها، باعتباره ينبوعَ كلِّ شيء: هو ينبوع الحقّ المُخلّص وينبوع الانضباط الأخلاقي؛ ونرى بوضوح أنّ هذه الحقيقة وهذه الأخلاقيّات موجودة في الأسفار المكتوبة، وأيضًا موجودة في التقاليد غير المكتوبة...»[١٢] إذًا، أكّد مجمع ترنت أنّ حقيقة الله موجودة في كلّ من الوثائق المكتوبة التي تشكّل الأسفارَ القانونيّة، وفي التقاليد غير المكتوبة. وهذا يثير مسألةَ نظريّةِ المصدر المزدوج للوَحي، فهل يوجد مصدران للإعلان: الكتاب المقدّس والتقليد، أم يوجد مصدر واحد فقط

وهـو الكتـابُ المقدّس؟

وجهـة النظَـر البروتسـتانتيّة هـي «سـولا سـكريبتورا»، أي «الكتـاب المقـدّس وحـده». يأتـي إعـلان اللـه الخـاصّ فقـط فـي الكتـاب المقـدّس. قـد تكـون الكتـبُ الأخـرى ذاتَ قيمـةٍ تعليميّـة. حتـى الأسـفار الأبوكريفيَّة مفيـدة للكنيسـة، علـى الرغـم مـن أنّهـا غيـرُ موحى بهـا. لكن كنيسـة روما الكاثوليكيّـة تعتـرف تاريخيًّـا بمصدريـن للوحـي همـا: الكتـابُ المقـدّس والتقليـد.[١٣]

ركّـزت هـذه القضيّـة علـى إعلانـات مجمـع ترنـت، وكذلـك علـى البيانـات التـي تـمّ الإدلاءُ بهـا فـي مناقشـات القـرن العشـرين حـول هـذه النقطـة. مـع تقـدّم مـا يسـمَّى بــ «*Nouvelle Theologie*»، أي «اللاهـوت الجديـد»، فـي الجنـاح التقدّمـيّ للكنيسـة الكاثوليكيّـة، كان هنـاك بعـض الأشـخاص داخـل رومـا ممّـن أرادوا الابتعـاد عـن نظريّـة الوحـي ثنائيّـة المصـدر. ومـن الغريـب أنّ عالمًـا أنجليكانيًّـا هـو مـن أثـار هـذه القضيّـة. فأثنـاء إجـراء بحثٍ لنيل درجةِ الدكتـوراه حول الخلفيّـة التاريخيّة لمجمع ترنـت، عثـر بالصدفـة على بعـض المعلومـات الهامَّـة. لاحظَ أنّ المسـوَّدَة الأولـى للـدَّورة الرابعـة لمجمـع ترنـت ذكـرت أنّ حقيقـة اللـه موجـودة بشـكلٍ جزئـيٍّ فـي الكتـاب المقـدّس، وبشـكل جزئـيّ فـي التقليـد. كرّرت هـذه المسـوَّدَة كلمـة لاتينيّـة معيّنة هـي: (*partim, partim*)، إشـارة إلى أنّ الإعـلان موجـود بشـكلٍ جزئـيّ فـي الكتـاب المقـدّس، وبشـكلٍ جزئـيّ فـي التقليـد. أشـار ذلـك بوضـوح إلى وجـود مصدرَيـن للوحي. ومـع ذلك، فـإنّ المسـوَّدَة النهائيّة لـم تتضمّـن الكلمتَيـن: (*partim, partim*)، ولكنّها تضمّنـت كلمـة (*et*)، أي «و» (حـرف العطـف)، فأصبحت العبـارة كالتالي:

إنّ حقيقة الله موجودة في الكتاب المقدّس وفي التقليد.

السؤال المطروح هو: لماذا غيّر المجمع صياغة الوثيقة وأسقط منها كلمتَي: (*partim, partim*)، ووضع مكانها كلمة (*et*) التي كانت أكثرَ غموضًا. إنْ كانت حقيقة الله واردة في الكتاب المقدّس والتقليد، فهل بإمكاننا القول إنّ حقيقة الله واردة في الكتاب المقدّس وفي إقرار إيمان وستمنستر؟ بصفتي مشيخيًّا، أعتقد أنّ إقرار إيمان وستمنستر يُقدّم نسخةً دقيقةً جدًّا للحقيقة المسيحيّة، وأنّ حقيقةَ الله واردة فيه، لأنّه يقتبسُ من الكتابِ المقدّس ويتوسّع فيه. إلّا أنّني لا أعتقد أنّ إقرار إيمان وستمنستر موحى به أو معصومٌ من الخطأ. وبالمثل، أعتقدُ أنّه يُمكن العثورُ على حقيقة الله في عظَةٍ أو محاضرة، ولكن لا يمكن أن يكون أصلُ الحقيقة في العظة أو المحاضرة. لذلك يمكن أن تشيرَ كلمة «*et*» إلى أنّ حقيقة الله موجودة في الكتاب المقدس وفي التقليد، لكن هذا التقليد ليس مصدرًا للوحي.

كشفت دراسة أخرى أنّه عندما جاءَت المسوَّدَة الأولى للدَّورة الرابعة قبل المجمع، وقف اثنان من اللاهوتيّين الرومان الكاثوليك واحتجّوا على استخدام كلمتَي: (*partim, partim*). كان أساسُ اعتراضِهم أنّ استخدام هذه اللغة سيقضي على تفرّد الكتاب المقدّس وكفايتِه. في ذلك الوقت توقّفت جلسة المجمع بسببِ الحَرب، وتنتهي سجلّاتُ مناظرات المجمع في الدورة الرابعة عند هذه النقطة، لذلك لا نعرف لماذا تمَّ تغييرُ الكلمات كلمتَي: (*partim, partim*) إلى كلمة (*et*). هل رضخ المجمع لاعتراض العالِمَيْن، أم تركوا الأمرَ غامضًا؟

أصَرَّ ج. ر. غايسلمان، الذي كان زعيمًا لليسار الجديد في كنيسة روما الكاثوليكيّة في منتصف القرن العشرين، على أنّ التغيير من (*partim, partim*) إلى (*et*) في مجمع ترنت يعني أنّ كنيسة روما الكاثوليكيّة تخلّت عن فكرَةِ وجود مصدرَين للوحي. قال هاينريش لينيرتس، وهو عالمٌ لاهوتيٌّ محافظ في كنيسة روما الكاثوليكيّة، إنّ التغيير كان شكليًّا وليس له أهميّة لاهوتيَّة. ما يعزّز حجّتَه هو حقيقة أنّ الكنيسة افترَضَت بعد مجمع ترنت نظريّة المصدر المزدوج، وأنّ مصادرَ الوحي المتعدّدة مذكورة في الرسائل البابويّة في وقتٍ متأخّر كما هي الحال في الرسالة البابويّة بعنوان «هيوماني جنيريس» (عبارة لاتينيّة تعني: «من الجنس البشَريّ»)، ١٩٥٠. لذلك، تُعتبر هذه القضيّة قضيّةً ساخنة ضمن اللاهوت الكاثوليكيّ الروماني.

## التأكيداتُ الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة

تعكسُ الكلماتُ المُستخدمة في أحدثِ كتابٍ للتَّعليم الدينيّ للكنيسَةِ الكاثوليكيّة (١٩٩٥) آراءَ روما حول هذه القضايا المتعلّقة بالكتاب المقدّس والتقليد والأسفار التي ينبغي أن تكون ضمن الأسفار القانونيّة (تشيرُ الأرقام الواردة بين قوسَيْن إلى رقم القسم في كتاب التعليم الديني المسيحي الذي يتمّ اقتباسُه):

> «إذًا، التقليد المقدّس والكتاب المقدّس مرتبطان ارتباطًا وثيقًا ببعضهما البعض ويتواصلان معًا. بما أنّ كلاهما ينبعان من البئر الإلهيّ نفسِه، فإنّهما يلتقيان بطريقةٍ ما لتشكيل أمرٍ

واحـد، ويتحـرّكان نحـو الهـدفِ نفسِـه». كلّ واحـد منهمـا يجعل سـرَّ المسـيح حاضرًا ومُثمـرًا في الكنيسـة، الذي وعَـدَ بالبقاء مع خاصّتـه «كلّ الأيّـام، حتـى انقضـاء الدهـر». (القسـم ٨٠)

«الكتـابُ المقـدّس هـو كلامُ اللـه كمـا هو فـي صيغتِـهِ المكتوبة بوحـيٍ مـن الـروح القـدُس». «وينقـل التقليـد (المقـدّس) فـي كليّتِـه كلمـة اللـه التـي ائتمـن المسـيح الـرب والـروح القـدس الرسـلَ عليهـا. كمـا ينقلُهـا (أي ينقـل التقليـدُ كلامَ اللـه) إلـى خلفـاء الرسـل، المسـتنيرين بروح الحَـقّ، حتى يحفظوهـا بأمانة ويشـرحوها وينشـروها مـن خـلال وعظِهـم»(٨١).

نتيجـةً لذلـك، فـإنَّ الكنيسـة، التـي عُهِـدَ إليهـا بنقـل الوحـي وتفسـيره، «لا تسـتمدّ يقينَهـا بشـأن جميـع الحقائـق الموحـى بهـا مـن الكتـاب المقـدّس وحده. يجـب قبـولُ الكتـاب المقدّس والتقليـد معًـا وتكريمُهمـا بمشـاعر متسـاوية مـن الإخـلاص والوقـار» (٨٢).

لقـد قامـت الكنيسَـةُ بواسـطة التقليد الرسـولي بتمييـز الكتابات التـي يجـب إدراجُهـا ضمن قائمة الأسـفار المقدّسـة.

تُسـمّى هـذه القائمـة الكاملـة قانـون الكتـاب المقـدّس. وهـي تشـمل ٤٦ سـفرًا للعهـد القديـم (٤٥ سـفرًا إذا اعتبرنـا إرميـا ومراثـي إرميـا سـفرًا واحـدًا) و٢٧ سـفرًا للعهـد الجديـد.

العهـد القديـم: التكويـن، الخـروج، اللاوييـن، العـدد، التثنيـة،

يشـوع، القضـاة، راعـوث، صموئيـل الأوّل والثاني، الملـوك الأوّل والثانـي، أخبـار الأيّـام الأوّل والثانـي، عـزرا ونحميـا، طوبيـا، يهوديـت، أسـتير، المكابييـن الأوّل والثانـي، أيّـوب، المزاميـر، الأمثـال، الجامعـة، نشـيد الأنشـاد، حكمـة سـليمان، سـيراخ (الجامعـة)، إشـعياء، إرميـا، مراثي إرميا، بـاروك، حزقيال، دانيال، هوشـع، يوئيـل، عامـوس، عوبديـا، يونـان، ميخا، ناحـوم، حبقوق، صفنيـا، حجـي، زكريـا، ملاخـي.

العهـد الجديـد: الأناجيـل بحسـب متّـى ومرقـس ولوقـا ويوحنّـا، أعمـال الرسـل، رسـائل القدّيـس بولـس إلـى أهـل رومية، وكورنثـوس الأولـى والثانيـة، غلاطيـة، أفسُـس، فيلبّي، كولوسـي، تسـالونيكي الأولـى والثانية، وتيموثاوس الأولـى والثانية، تيطس، فليمـون، الرسـالة إلـى العبرانيّيـن، رسـائل يعقـوب، ١ و٢بطرس، ١و٢ و٣ يوحنّـا، يهـوذا، رؤيـا يوحنّـا. (١٢٠)[١٤]

بالمقابـل، فـإنّ أحـد البيانـات العقائديَّـة العظيمـة للإصـلاح، إقـرار وستمنسـتر، الـذي يتكلّـم عـن عقيـدة الكتـاب المقـدّس في الفصـل الأوّل، يذكـر سـتّةً وسـتين سـفرًا مـن الكتـاب المقـدّس البروتسـتانتيّ كتلـك التي تشـكّل الأسـفار القانونيّـة (١، ٢)، قائـلًا:

إنّ الكتـبَ التـي يُطلـقُ عليهـا أبوكريفـا، لكونها ليسـت مـن وحيٍ إلهـيٍّ، هي ليسـت جزءًا مـن قانونيّة الكتاب المقـدّس، وبالتالي لا سـلطان لها في كنيسـة الله، ولا يُصادَق عليها، أو يتمّ اسـتخدامُها،

بـأيّ شـكلٍ أكثر من الكتابات البشـريّة الأخـرى. (١، ٣)

ثمّ يضيف إقرارُ إيمان وستمنستر:

إن سـلطان الكتـاب المقـدّس، الـذي لأجلـه ينبغـي أن يُؤمَـن بـه، ويُطـاع، لا يعتمـد علـى شـهادة أيّ إنسـان، أو كنيسـة، ولكن كليًّا علـى اللـه (الـذي هو الحـقّ نفسُـه) مؤلّف الكتـاب: ولذلك يجب أن يُقبَـلَ، لأنّـه كلمة اللـه. (١، ٤)

إنّ الحاكـمَ الأعلـى الـذي بواسـطتِهِ يُفصـلُ فـي كلّ الخلافـات الدينيّـة، وبـه يجـب أن تُفحَـصَ كلّ قـرارات المجامـع، وآراء الكتّـاب القدامـى، وتعاليم النـاس، والادّعاءَات باسـتنارات خاصَّة، والـذي نتّـكلُ علـى قراراتـه، لا يمكـن أن يكـون آخـرُ غيـرُ الروح القـدُس متحدِّثًـا فـي الكتـاب المقـدّس. (١. ١٠)

وهكـذا، مـا زالَ الخـلافُ حـول الكتـاب المقـدّس فـي القرن السـادس عشـر قائمًـا حتّـى يومنـا هـذا، ويشـكّلُ عائقًـا لا يمكـن التغلّـبُ عليـه للوحـدة بيـن الكنيسـة البروتسـتانتيّة والكاثوليكيّة. إن اتّفقَ البروتسـتانت وكنيسـة روما الكاثوليكيّـة علـى وجود مصدرٍ واحـدٍ للوحي وهـو الكتابُ المقـدّس (مـن دون الأسـفار الأبوكريفيّـة الموجـودة في الكتـاب المقدّس الكاثوليكـيّ)، فيمكنُنـا حينئـذٍ الجلوس ومناقشـة معنى النصـوص الكتابيّة. ولكـن منـذ مجمع ترنت، قادت جميـعُ الجهود المبذولة لإجراء مناقشـات كتابيّـة بيـن البروتسـتانت وكنيسـة روما الكاثوليكيّـة إلـى طريقٍ مسـدود عنـد صـدور رسـالة بابويّـة أو بيـان مجمعيّ.

على سبيل المثال، كان الخلافُ حول الكتاب المقدّس والسلطة هو الخلافَ حول العقيدة البروتستانتيّة للتّفسير الشخصيّ للكتاب المقدّس، والتي تعلّم أنّ لكلّ مسيحيٍّ الحقّ في تفسير الكتاب المقدّس بنفسِه. ومع ذلك، فإنَّ هذا «الحَقّ» لا يشمُلُ الحريّة في إساءَة تفسير الكتاب المقدّس. لا يحقّ لنا أمام الله أن نكون على خطأ. يأتي مع الحَقِّ في التفسير الشخصيّ مسؤوليَّة تفسير الكتاب المقدّس بشكل صحيح، وعدم تحويله إلى قطعة من الطين يمكن تغييرُها وتشكيلها وتشويهُها لتناسب تحيّزاتنا.

ردًّا على الادّعاء البروتستانتيّ بالتفسير الشخصيّ، أعلنت روما في الدورة الرابعة لمجمع ترنت التالي: «علاوة على ذلك، من أجل كبح جماح الأرواح الرديئة، يقرّر [المجمع] أنّه لا يجوز لأيّ شخص، بالاعتماد على مهارته الخاصّة (في الأمور المتعلّقة بالإيمان والأخلاق المتعلّقة ببنيان العقيدة المسيحيّة) بإساءَة تفسيره للكتاب المقدّس، أن يتجرّأ على تفسير الكتاب المقدّس بطريقةٍ مناقضة للمعنى الذي تقول به الكنيسةُ الأمّ المقدّسة -التي يجب أن تحكمَ على المعنى الحقيقيّ وعلى تفسير الكتاب المقدّس- «الذي تمسّكت به وما زالت تتمسّك به».[١٥] بعبارةٍ أخرى، أعلن مجمع ترنت أنّ تفسيرَ روما للكتاب المقدّس هو التفسيرُ الصحيح الوحيد. عندما يقدّم البروتستانت تفسيرًا كتابيًّا، إن كان يختلف عن التفسير الرسميّ لروما فلا داعي للحديث أكثر عنه، لأنّ الكاثوليك سيقولون بكلِّ بساطةٍ إنّ البروتستانت مُخطئون في تفسيرهم. تقليد الكنيسة مقدّس في هذه النقطة بالذات ولا يُمكن المساسُ به.

## الفصل ٢

# التبرير

لقد وجدتُ أنَّ الغالبيةَ العظمى من الناس الذين يُسمّون أنفسَهم بروتستانت ليس لديهم أدنى فكرة عمّا يحتجّون عليه. إنْ سألتَ أحدَهم: «لماذا اخترت أن تكون من الطائفة البروتستانتيّة بدلًا من الكنيسة الكاثوليكيّة؟» سيقول لك: «لا أؤمن أنّني بحاجة إلى الاعتراف بخطاياي لكاهن»، أو «لا أؤمن أنّ البابا معصومٌ من الخطأ»، أو «لا أؤمن بصعود مريم العذراء بجسدِها إلى السماء» أو شيء من هذا القبيل. هذه ليست مسائل غيرَ هامَّةٍ بالطبع، لكنّها ليست من جوهر أسباب انفصال البروتستانت عن كنيسة روما الكاثوليكيّة.

في الواقع، عندما كتبَ ديزيديريوس إيراسموس نقدَه ضدّ مارتن لوثر، شَكرَ لوثر إيراسموس على عدم مهاجمَتِه في الأمور التي اعتبرَها لوثر قليلة الأهميّة. تناولَ إيراسموس القضيّة الأساسيّة للإصلاح، ألا وهي مسألة خلاص الخاطئ في المسيح. أكّد لوثر أنّ عقيدةَ التبرير بالإيمان وحدَه، هي العقيدة التي تقوم عليها الكنيسة أو تسقط. كما

رأينا في الفصل السابق، كان السببَ الرسميّ للإصلاح هو مسألةُ الكتاب المقدّس، لكنّ مسألةَ التبرير هي التي كانت السببَ الماديّ الملموس للإصلاح. لا ينبغي أن نعلّقَ في قضايا غير هامَّة، ربّما كان من الممكن حلّها بعقدِ لقاءاتٍ ومناقشات إضافيّة، ولكن علينا التركيزُ على القضيّة التي كانت النقطة المحوريّة التي قسمَت وفتّتت المسيحيّة بقوّة، وما زالت هي نفسَها حتّى يومنا هذا.

ينبعُ جزءٌ من الخلاف حول مسألةِ التبرير من معنى كلمة التبرير نفسِها. تشتقُّ الكلمةُ الإنجليزيّة «*justification*» من الكلمة اللاتينيّة «*justificare*»، والتي تعني حرفيًّا باللغة الإنجليزيّة «*to make righteous*»، وبالعربيّة «يُجعلُ بارًّا». طوّر الآباء اللاتينيّون الأوائل الذين درسوا الكتابَ المقدّس عن طريق «*Vulgate*» (الترجمة اللاتينية للكتاب المقدّس في القرن الرابع) بدلًا من دراستِهِ عن طريق الترجمة السبعينيّة (الترجمة اليونانيّة للعهد القديم) والعهد الجديد اليونانيّ، عقيدةَ التبرير بناءً على فهمِهِم للنّظام القانونيّ للإمبراطوريّة الرومانيّة. مع مرور الوقت، جاءَت عقيدة التبرير لمعالجة السؤال التالي: كيف يُمكنُ للإنسان غير البارّ - الخاطئ الساقط - أن يُجعل بارًّا. مع تطوّر عقيدة التبرير في روما، ظهرت فكرةُ أنّ التبرير يحدثُ بعد التقديس. أي، لكي يُقال عن أحدِهِم إنّه مُبرّر، يجب أوّلًا أن يتقدّسَ لدرجة أن يُظهر برًّا مقبولًا من الله.

ركّزَ الإصلاحُ البروتستانتيّ الذي ظهر عقبَ إحياء دراسة العصور القديمة، انتباهَه على المعنى اليونانيّ لمفهوم التبرير في كلمة «*dikaioo*»، والتي تعني «يُعلَن بارًّا» بدلًا من «يُجعل بارًّا». لذلك، في

البروتستانتيّة، تُعتبر عمليّة التبرير أمرًا يحدُث قبلَ عمليّة التقديس. لذلك، كان هناك اختلافٌ كامل منذ البداية في فهم ترتيب أو موقع الخلاص بين المجموعتَيْن.

## تلقّي النعمة، خسارتُها واستعادتُها

من المنظور الرومانيّ، التبرير هو أحدُ الوظائف الكهنوتيّة في الكنيسة. أي أنّ التبريرَ يتمُّ في المقامِ الأوّل من خلال ممارسة الأسرار، بدءًا من سرّ المعموديّة. تقول روما إنّ سرّ المعموديّة، من بين الأسرار الأخرى، يَعْمَلُ «*ex opere operato*»، وهذه عبارة لاتينيّة تعني حرفيًّا «من خلال عمَلِ العمل». لقد فهم البروتستانتيّون أنّ هذا يعني أنّ المعموديّة تعمل بشكلٍ تلقائيّ. فإذا تمّ تعميدُ شخصٍ ما، سيُصبح ذلك الشخص تلقائيًّا في حالة النعمة أو في حالةِ التبرير. سارعت الكنيسَةُ الكاثوليكيّة إلى القول إنّها لا تحبّ استخدام كلمة «تلقائي» لأنّه، لكي يحدُثَ هذا، يجب أن يكونَ لدى متلقّي المعموديّة استعدادٌ معيّن. فعلى الأقل، يجب ألّا يكون لديه أي عداء تجاه قبول السِرّ حتّى يعمل فيه. على أيّ حال، لدى روما رؤية عالية لفعاليّة المعموديّة في وضع الشخص في حالة النعمة. هذا لأنّه، في سرّ المعموديّة، يُقالُ إنّ النعمةَ تُنسب أو تُسكَبُ داخل الروح.

اسمحوا لي أنْ أقولَ كلمةً عن مفهوم «النسبة» هذا. يعتقدُ البروتستانت أنّ الإنسانَ يُبرَّرُ عندما يُحسب أو يُنسبُ برُّ المسيح إليه. نحن نؤمنُ أيضًا أنّ خطايانا نُسِبَت إلى المسيح على الصليب، أي أنّها حُسِبَت عليه ودفعَ ثمنَها. لذا، يرى البروتستانت حُسبانًا مزدوجًا. لكن

روما تؤمن بالسكب، وهو الرأي القائل بأنّ برَّ المسيح يوضع بالفعل في المؤمن لكي يُصبح الشخصُ بارًّا بالفعل. لا يُنسب برُّ المسيح أو يُنقل ببساطةٍ إلى حساب الشخص؛ بل يصبح في الواقع مُلكًا لكلِّ ابن.

إستخدم مجمعُ ترنت عبارةً حدّدت الكنيسةُ الكاثوليكيّة من خلالها موقفَها فيما يتعلّق باحتجاجات المُصلحين وهي: «*Cooperare et assentare*»، أي أنّه يجب على المؤمنين «التعاون مع والموافقة على» النعمة التي تُمنح لهم في المعموديّة. قال المجمع: «يُعلِن السينودس أيضًا، أنّ بداية التبرير، عند البالغين، تنبثقُ مُسبقًا من نعمةِ الله من خلال يسوع المسيح، أي من عَمَلِهِ، بالتالي، هم مدعوّون من دون أيّ جدارة فيهم، حتّى يميلَ الذين انفصلوا عن الله بسبب الخطايا من خلال نعمتِه المُحيية والمُعينة، نحو تجديد أنفسِهم للحصول على تبريرهم الخاصّ، من خلال الموافقة على تلك النعمة المذكورة والتعاون معها بحريّة».[1] لذلك، إذا وافق شخصٌ ما على نعمةِ المعموديَّة المسكوبة فيه وتعاون معها، يكون ذلك الشخص في حالة نعمةٍ أو تبرير.

لكنَّ النعمَة التي يتمُّ الحصول عليها من خلال السكب ليست ثابتةً بأيّ حال من الأحوال. عندما يتحدّثُ الكاثوليك عن لاهوت الأسرار، فإنّهم يستخدمون مصطلحاتٍ كمّية فيما يتعلق بالنعمة، قائلين إنّه يمكن أن يكون هناك فيها زيادة أو نقصان. بمعنى آخر، يمكن أن يفقدَ الشخصُ المعمَّد بعضًا من نعمتِهِ المسكوبة. في الواقع، قد يفقدُها بشكلٍ كامل فيخرجَ الشخصُ من حالة التبرير ويُصبحَ تحت خطر الهلاك الأبديّ.

يفقدُ الإنسانُ النعمةَ المُخلّصة عندما يرتكبُ نوعًا معيّنًا من الخطايا، أي الخطايا المميتة. يُميّزُ اللاهوت الكاثوليكي بين خطايا السهو والخطايا المُميتة، كون الأخيرة أكثرَ فظاعَةً وخطورة. ومع ذلك، لا يوجد اتّفاقٌ عالميٌّ حول ما هي الخطايا المُميتة. صدرت كتبٌ كثيرة تحدّد خطايا مختلفة على أنّها خطيرة بما يكفي لاعتبارها مميتة. على أيّ حال، وُصفت هذه الخطايا بالمميتة لأنّها خطيرة بما يكفي للتسبّبِ في موتِ النعمة المبرِّرة التي سُكبت في الإنسان عند المعموديّة.

في القرن السادس عشر، انتقدَ جون كالڤن تمييزَ الكاثوليك بين الخطايا العرَضيّة والخطايا المُميتة. لم يُنكر وجودَ درجاتٍ للخطيئَة، مُشيرًا إلى أنّ العهدَ الجديدَ يعترفُ بأنّ بعض الخطايا أخطرُ من غيرها (انظر رومية ١: ٢٨-٣١؛ ١ كورنثوس ٦: ٩-١٠؛ أفسُس ٥: ٣-٥). لكنَّ كالڤن قال إنّ كلّ الخطايا مُميتة بمعنى أنّها تستحقّ الموت. عند الخلق، أمرَ الله آدم وحوّاء ألا يأكلا من شجرة معرفة الخير والشَرّ: «لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ» (تكوين ٢: ١٧). وقال على لسان النبيّ حزقيال: «اَلنَّفْسُ ٱلَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ» (١٨: ٤ ب). هذا يعني أنّه حتى أصغر الخطايا هي خيانة لسيادةِ الله، وبالتالي تستحقّ الموت. لكن كالڤن تابع قائلًا إنّه في حين أنّ كلّ الخطايا هي خطايا مُميتة بمعنى أنّها تستحقّ الموت، إلّا أنّه لا يوجد خطيئة مُميتة بمعنى أنّها تقضي على النعمة المُخلِّصة التي يحصلُ عليها المؤمن المسيحيّ عند تبريره.[٢]

وفقًا للّاهوت الكاثوليكيّ، إذا ارتكبَ الشخص الذي اعتمد وحصل على نعمَةِ التبرير المسكوبة خطيئةً مُميتة، فإنّه بالتالي يقضي على تلك النعمة المُبرّرَة، لكنّه لا يفقدُ كلَّ شيء. هنالك طريقة يمكن من خلالها

استعادَةُ تبرير ذلك الشخص. يُمكن استعادَةُ التبرير عن طريق الأسرار، وفي هذه الحالة هو سِرُّ التوبة الذي عرّفته الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر بأنّه: «دعامة ثانية» للتبرير لأولئك الذين أغرقوا أرواحَهم، أي أولئك الذين ارتكبوا خطايا مُميتةً وفقدوا نعمةَ التبرير.[٣] كان سرّ التوبة في قلب المشكلة التي ظهرت في القرن السادس عشر، لأنّ للتوبة عناصرَ كثيرة، كالندم والاعتراف وأفعال الندامة، وهي تُظهر أنّ الإنسان لم يعترف بدافع الخوف من العقاب، بل بدافع ندمٍ حقيقيّ على الإساءَة إلى الله.

يعقب الاعترافَ، بالطبع، الإبراءُ أو الحلّ الكهنوتيّ، حيث يقول الكاهن للشَّخص التائب: «*Te absolvo*»، أي «أُبْرِئُك» أو «أَحُلُّك». وقد أساءَ البروتستانت فهمَ هذا العنصر وظهرت لهم رسومٌ كاريكاتوريّة كثيرة. غالبًا ما نقول: «لست مضطرًّا إلى الاعتراف بخطاياي للكاهن؛ فأنا أستطيع أن أعترفَ مباشرة إلى الله. ليس من الضَروريّ أن يخبرَني الكاهن أنّني محلولٌ من خطيئتي». نحن نميل إلى توجيه انتقاداتنا إلى العناصر الطقسيّة الموجودة في سرّ التوبَة. لكن لم يعارض كلُّ المُصلحين الاعتراف. على سبيل المثال، تابع اللوثريّون ممارسة فعل الاعتراف لأنَّ العهدَ الجديد يقول إنّنا يجب أن نعترفَ بعضُنا لبعض بخطايانا (يعقوب ٥: ١٦)، واعتقدوا أنّه من المفيد أن يعترف المسيحيُّ بخطاياه عندما يكون فيها هذا الاعتراف محميًّا بتمييز الخادم، ويتمتّعُ الخادم بسلطة إعلان ضمان صفح الله للنّادمين حقًّا على خطاياهم.

إذًا، لم يكن الاعترافُ القضيّةَ الأهمَّ بالنسبة إلى المُصلحين، إنّما كانت الخطوة التالية في سِرِّ التوبة. فلكي يُعاد التائب إلى حالة

النعمَة، يجب عليه أن يقوم بأعمال الرضى. أساءَ البروتستانت أيضًا فهم هذه الخطوة وكانت عرضة لرسوم كاريكاتوريّة كثيرة. إذا سألت البروتستانت عن الفرق بين البروتستانتيّة والكاثوليكيّة، فسيقولون عادةً: «نؤمن أنّ التبرير بالإيمان، لكنّ الكاثوليك يقولون إنّه بالأعمال. نؤمن أنّ التبرير بالنعمة، لكنّ الكاثوليك يقولون إنّه بالجدارة. نؤمنُ أنّ التبرير يحدث من خلال المسيح، ولكنّ الكاثوليك يؤمنون أنّه يحدث من خلال البرّ الذاتيّ للإنسان». هذه افتراءَاتٌ مروّعة ضدّ روما. منذ القرن السادس عشر وحتّى اليوم، قالت كنيسة روما الكاثوليكيّة إنّ التبريرَ يتطلّبُ الإيمانَ ونعمة الله وعملَ يسوع المسيح. نشأ الجدل عندما قال البروتستانت إنّ التبرير هو بالإيمان فقط، بينما قالت روما إنّ التبرير يتطلّب الإيمان بالإضافة إلى الأعمال، النعمة بالإضافة إلى الجدارة، المسيح بالإضافة إلى البرّ المتأصّل. كانت تلك الإضافات هي التي تحوّلت إلى إشكاليَّة كبيرة في القرن السادس عشر، لا سيّما فيما يتعلق بأعمال الرضى التي كانت جزءًا من سرّ التوبة.

تُعلّمُ روما أنّ أعمالَ الرضى تُنتجُ الجدارة، لكنَها تميّزُ بشكلٍ حادّ بين أنواع الجدارة. فالجدارة المُستحقّة جديرة بالتقدير لدرجة أنّها تتطلّب مكافأة، فالله لن يكون إلهًا عادلًا إن لم يكافئ الأعمال التي تستحقّ التقدير. أمّا الجدارة المُكتسبة من خلال أعمال الرضى في سرّ التوبة فإنّها لا ترقى إلى مستوى الجدارة المُستحقّة؛ أعمال الرضى هذه تنتج جدارة. إنّها جدارة حقيقيّة، لكنّها تعتمد على نعمة سابقة. إنّها ببساطة تجعلُ الأمرَ متوافقًا أو مناسبًا لكي يعيدَ اللهُ الشخصَ إلى حالةِ النعمة. لذلك، إذا مرَّ شخصٌ بسِرِّ التوبة، وقام بأعمال الرضى التي

حدّدها الكاهن، فمن الملائم أو المناسب أن يعيدَ اللهُ ذلك الشخصَ إلى حالةِ التبرير.

بالطبع، رأى لوثر أنّ تعليمَ العهد الجديد عن التبرير بالإيمان وحده، هو بمثابة صاعقةٍ ضدّ أيّ نوعٍ من الجدارة: الجدارة المُستحقّة أو المتوافقة. كان يعتقدُ أنّه لا ينبغي البتة تعليمُ الناس أنّ أيّ عملٍ يقومون به يُمكن أن يضيفَ بأيّ شكلٍ من الأشكال إلى رضى الله الذي حقّقه المسيح. ومع ذلك، استمرّت روما في تعليم أنّ للأعمال دورًا في التبرير.

## مراسيم وإدانات

ردّت كنيسة روما الكاثوليكيّة على الانتقادات البروتستانتيّة في مجمع ترنت، حيث أصدرت مراسيمَ رسميّةً تتعلّق بعقائدِها. نوقشت عقيدةُ التبرير في الجلسة السادسة، وأصدرت الكنيسة عددًا من المراسيم فيما يتعلّق بوجهة نظرها، بالإضافة إلى ثلاثة وثلاثين تحريمًا مُحدّدًا، أو «أناثيما»، لوجهات نظر مختلفةٍ اعتبرتها روما رفضًا للبدَع والهرطقات. تمّت صياغةُ كلّ تحريم بصيغةٍ موحّدة: «إذا قال أحد... فليكن أناثيما»، أي: «فليكن ملعونًا».

كانت الغالبيّة العظمى من هذه الإدانات موجّهة إلى المُصلحين، لكن في حالاتٍ كثيرة، كانت في غير مكانِها. كانت تتضمّن هذه الـ«أناثيما» بعضَ سوءِ الفَهم. لهذا السبَب، قال البعض إنّ الخلافَ برمّتِهِ كان مُجرّدَ سوءِ فهم، وإنّ الفريقَيْن يتحدّثان ببساطةٍ من دون أن يفهَمَ

أحدُهم الآخر. هذا صحيحٌ إلى حدٍّ ما، لكنَّ بعضَها كان مُحقًّا في الواقع، لأنّها أدانت وحرَّمَت بوضوح عقيدة التبرير بالإيمان فقط عند المُصلحين.

هذا هامٌّ، لأنّه إن كان تعبيرُ المصلحين لعقيدَةِ التبرير الكتابيّة صحيحًا (وأنا، بالطبع، أعتقد أنه كان كذلك)، فإنّ تحريمَه يعني تحريم الإنجيل. إذا كانت أيُّ كنيسةٍ تدّعي أنّها مسيحيّة ولكنّها تنكرُ أو تدين حقيقةً أساسيّة في المسيحيّة، عندها تُثبتُ بأنّها مرتدّة وبأنّها لم تعد كنيسَةً حقيقيّة أو صالحة. هذا جزءٌ من مشكلة المناقشات الجارية بين روما والهيئات البروتستانتيّة. لا تهتمّ العديدُ من الجماعات البروتستانتيّة كثيرًا بالاختلافات العقائديّة، لذا فهم سعداء بالدّخول في مناقشات واتّفاقيات مسكونيّة مع روما. لكن إذا أخذنا عقيدة التبرير الكتابيّة على محمل الجدّ، فلن يكون هناك تقارب بشأن هذه النقطة ولا وحدة ما لم يستسلم أحدُ الطرفَين، لأنّ الموقفَيْن ببساطة غير متوافقَيْن. أحدُهما صحيح والآخر مخطئ، والموقف الذي شوَّهَ بشكلٍ كبير إنجيلَ العهد الجديد يستحقّ الإدانة. كما قال الرسول بولس لأهل غلاطية: «وَلَكِنْ إِنْ بَشَّرْنَاكُمْ نَحْنُ أَوْ مَلَاكٌ مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِغَيْرِ مَا بَشَّرْنَاكُمْ، فَلْيَكُنْ أَنَاثِيمَا» (غلاطية ١: ٨). لذا، فإنّ أحد الطرفَيْن، البروتستانتيّة أو الكاثوليكيّة، يستحقُّ أن يكون أناثيما، أو مرفوضًا من الله.

إنّ إدانات الدورة السادسة لمجمع ترنت خطيرة للغاية، لكنّني أعتقد أنّ القسم الأوّل الذي حدّدت فيه روما عقيدتها عن التبرير، هو أكثر الأقسام إشكاليّة. بذلت روما قصارى جهدها لتعريف الإيمان الخلاصيّ وما ينطوي عليه. كما قُلتُ سابقًا، من الافتراء القول إنّ

البروتستانت يؤمنون بالتبرير بالإيمان وأنّ الكاثوليك يؤمنون بالتبرير بالأعمال، كما لو أنّ الإيمانَ بالنسبة إليهم ليس ضروريًّا. بدلًا من ذلك، علّمت روما بوضوح في الدورة السادسة لمجمع ترنت أنّ الإيمان شرط ضروريّ للتبرير. كما ذكرتُ في المقدّمة، أعلن مجمع ترنت أنّ الإيمان هو البداية والأساسُ وأصلُ التبرير. هذه المصطلحات تعني أنّ الإيمان هو بداية التبرير، هو نقطة البداية أي هو الذي يُبدئ التبرير. هو أيضًا الأساس والبنية الأساسيّة التي يتأسّس عليها التبرير، والتي من دونها لا يمكن أن يكون هناك أيُّ تبرير. أخيرًا، الإيمان هو أيضًا الجَذر والنواةُ الأساسيّة للتبرير.

كانت روما تقول بهذه التأكيدات إنّ الإيمان ليس مجرّدَ ملحقٍ للتبرير، بل هو شرط لا يمكن أن يحدُثَ التبريرُ من دونه. ومع ذلك، وفقًا لروما، فإنّ الإيمان ليس شرطًا كافيًا، لأنّ الشرطَ الكافي، إذا تمّ الحصولُ عليه، سيؤدّي بالتأكيد إلى النتيجة المرجوّة. فالأوكسجين، على سبيل المثال، هو في معظم الحالات شرطٌ ضروريّ ليحدُث الحريق، لكنّه ليست شرطًا كافيًا. إذا لم يكن هناك أوكسجين فلن يكون هناك حريق، ولكن حتّى لو كان الأكسجين متوفّرًا بوفرة، فلن يحدث بالضرورة حريق، لأنّ الأكسجين بحدّ ذاته ليس لديه الطاقة الكافية ليُسبّبَ حدوثَ الحريق.

علّم مجمع ترنت أنّ الإيمان ليس كافيًا في حدّ ذاتِه لإعطاء نتيجة التبرير. وفي تفسيره لفقدان التبرير من خلال الخطيئة المميتة، أعلن مجمع ترنت صراحة أنّ الشخصَ الذي يمتلكُ الإيمانَ المُخلِّص بإمكانِه أن يرتكبَ خطيئَةً مميتة. وفقًا لروما، عندما يرتكب الإنسانُ

خطيئـة مُميتـة فـي الوقـت الـذي يمتلـكُ إيمانًـا حقيقيًّـا، لا يخسـرُ الإيمان بـل يخسَـرُ التبريـر. وهكـذا، يمكـنُ للإنسـان أن يمتلـكَ إيمانًـا خلاصيًّا من دون التبريـر. يمكنُـه الاحتفـاظ بالإيمان ولكنّه يخسَـرُ التبريـر عند ارتكابه خطيئـة مُميتة.

## المُسبّبُ الأساسيُّ: المعموديّة أم الإيمان؟

مـن الهـامّ أيضًـا أن نفهَـمَ كيـف تنظـرُ رومـا إلـى المُسـبّب الأساسـيّ للتبريـر. نفكّـرُ بشـكلٍ عـامّ فـي المُسـبّب مـن منظـورٍ أحـاديّ البعـد، لكنّ كنيسـة رومـا الكاثوليكيّـة تميّـزُ بين عدّة أنـواع من المسـبّبات. تعود هذه الفروقـات إلـى الجمـع الـذي حصـل فـي القـرون الوسـطى بيـن اللاهـوت الكاثوليكـيّ وتعاليـم الفيلسـوف اليونانـيّ القديم أرسـطو.

ابتكـرَ أرسـطو رسـمًا إيضاحيًّـا شـهيرًا للتَّمييـز بيـن أنـواعٍ مختلفة من المسـبّبات. تخيّـلَ نحّاتًـا يصنـع تمثـالًا مـن قطعـة مـن الرخـام. المسـبّب المـادّيّ للتمثـال هـو الرخـام الـذي صُنـع منـه، فمـن المسـتحيل الحصـول علـى منحوتـةٍ رخاميّـةٍ مـن دون الرخـام، وبالتالـي فـإنّ المـادَّة التي نُحت منهـا التمثـال هـي المسـبّبُ المـادّي. المسـبّبُ الرسـميّ للتمثـال هـو رسـمُ الفنّـان الـذي يصـوّر رؤيتَـه للتمثـال النهائيّ. سـيكون هـذا مخطّطه. المسـبّب الأخيـر هـو الغـرضُ مـن صنـع التمثـال - ربّمـا كان الغـرض منـه تجميـلَ حديقـةِ شـخصٍ مـا. المسـبّب الفعّـال هو الذي يحـوّل المـادّة إلى تمثـال، وهـو عمـل النحّات نفسِـه.

حـدّد أرسـطو أيضًا «المسـبّب الأداتـي»، أي الأدوات التي يسـتخدمُها

النحّات لنحت التمثال. لا يقترب النحّات من كتلةٍ من الرخام مع صورةٍ للتمثال النهائيّ في ذهنِهِ ويطلب ببساطة من المادّة أن تتحوّلَ إلى تمثال. يجب أن يبدأ النحّات في تقطيع الحَجَر بمطرقتِهِ وإزميله من أجل تشكيله ليُصبحَ قطعة فنيّة. هذه الأدوات هي «المسبّب الأداتي» للتمثال.

عندما طبّقَ اللاهوتيّون الكاثوليك تفكيرَ أرسطو حول المسبّبات في عقيدة التبرير، قاموا بتحديد «المسبّب الأداتيّ» للتبرير، أي الأداة التي من خلالها يتمُّ إحضارُ الشخص إلى حالة النعمة، وهذه الأداة هي سرّ المعموديّة. اعترض المصلحون بقوّةٍ على ذلك، قائلين إنّ «السبَب الأداتيّ» هو الإيمان وليس السِرّ. أكّدَ المصلحون أنّ الأداة التي تربطنا بعمل المسيح لخلاصنا هي الإيمانُ وحده. لذلك، فإنّ مسألة «المسبّب الأداتيّ» للتبرير لم تكن مسألةً صغيرَةً في عصر الإصلاح.

وجهة نظر الكاثوليك للتبرير هي ما يُعرف بوجهة النظَر التحليليّة. البيانُ التحليليُّ هو البيانُ الصحيح بطبيعتِهِ. عبارة «اثنان زائد اثنين يساوي أربعة» هي بيان تحليلي: إنّها تُعبّرُ عن حقيقةٍ أساسيّة. أي، إذا فحصنا معنى «اثنان زائد اثنين»، فسنجد أنّه يعني الشيءَ نفسَه الذي نراه في الجانب الآخر من المعادلة، أي الرقم «أربعة». هذه حقيقة حسابيّة، وليست أمرًا يجب تأكيدُه بالتجربة أو الملاحظة. إليك مثالٌ آخر عن بيان تحليلي: «العازبُ رجُلٌ غيرُ متزوّج». في هذا التصريح، لا نجدُ في كلمة «العازب» شيئًا غيرَ موجود في كلمة «غير متزوّج». لا يخبرُنا هذا التصريح بأيّ شَيءٍ يعرّفُ مصطلح «العازب» أكثر من الكلمة نفسِها.

يتّفقُ كلٌّ من البروتستانت والكاثوليك على أنّه في التحليل النهائيّ، لا يتبرّرُ أيّ شخص إلّا إذا أعلن الله أنَّ هذا الشخص مبرّر، وبأنّ إعلانَ الله هذا هو إعلانٌ قانوني بحُكمٍ من الله نفسه. عندما نقول إنّ وجهة النظر الكاثوليكيّة تحليليّة، فإنّنا نعني أنّ الله لن يقول إنّ الإنسان مُبرّرٌ ما لم يكن ذلك الشخص عند تحليله قد وُجدَ في الواقع بارًّا. إنّه لا يحسب الأشخاصَ الذين ليسوا أبرارًا بالفعل كأبرار. هذا هو السبَب الذي جعل روما تقول في القرن السادس عشر إنّه قبل أن يُعلِن اللهُ لشخص ما أنّه مبرّر، يجب أن يكون البرّ متأصّلًا في روحِه. يجب أن يكون البرّ متأصّلًا في الشخص؛ يجب أن يفحَصَ الله حياته ويجدَ البرّ هناك. إن مات الإنسانُ في خطيئةٍ مميتةٍ فسيذهب إلى الجحيم. وإن ماتَ الشخص بأيّ خطيئة، وبأيّ عيبٍ أو نقصٍ في روحه، فلا يمكن قبوله في السماء، بل يجب أن يمرَّ أوّلًا بنيران التطهير، حيث يتمّ تطهيرُه من شوائبه حتى يصبحَ البرُّ متأصّلًا فيه فعلًا.

أمورٌ كثيرة هنا على المحكّ. واحدة من أهَمِّ القضايا اللاهوتيّة التي يمكنُنا مناقشتُها مطروحة للنّقاش على الطاولة. إنّها مسألة ما يجب أن نفعله لنخلص. إذا اعتقدتُ أنّه يجب أن أصلَ إلى حالة من البرّ النقيّ من دون أيّ عيوب من أجل الوصول إلى السماء، بغضّ النظر عن مقدار النعمة التي تُظهرُها الكنيسة لي، فسأشعرُ بيأسٍ كامل ولن أحصَلَ إطلاقًا على الخلاص. إنْ علّمتْ كنيستي مفهومَ التبرير هذا، فستكون هذه أخبارًا مروّعة وليست أخبارًا سارّة. أشكرُ الله لأنّ الإصلاح أكّدَ على الإنجيل الكتابيّ، أي على حقيقة أنّه في اللحظة التي يمتلكُ فيها الإنسانُ الإيمانَ الخلاصيّ، ينتقل من مملكة الظلمة

إلى مملكة النور، وتؤخذ عنه خطاياه، ويُعلنُ أنّه بارّ على أساس برّ المسيح، ويُتَبَنّى في عائلة الله. ليست هناك حاجة إلى برٍّ متأصّلٍ أو مَطهَرٍ أو إلى أيّ خشبةِ تبرير ثانية.

## وجهة نظر الإصلاح من التبرير

كان شعارُ الإصلاح فيما يتعلّقُ بعقيدة التبرير «سولا فيدي»، والتي تعني «الإيمان وحده». كان هذا واحدًا من الشعارات الخمسة العظيمة للإصلاح، بما في ذلك «سولا سكريبتورا» (الكتاب المقدّس وحده والذي تكلّمنا عنه في الفصل السابق)، و«سولا جراتيا» (النعمة وحدها)، و«سولاس كريستوس» (المسيح وحده)، و«سولي ديو جلوريا» (لله وحده المَجد).

كما رأينا، تؤكّد الكنيسة الكاثوليكيّة بقوّةٍ أنّ الإيمان ضروريّ للتبرير. في الواقع، رأينا أنّه كان شرطًا ضروريًّا ولكنّه ليس شرطًا كافيًا. لا يمكن لأيّ شخص أن يحصلَ على التبرير من دون إيمان، لكن يُمكنُ أن يحصَلَ على الإيمان من دون التبرير. لذا، فإنَّ نقطة الجدل بين المصلحين وروما ركّزَت على هذه الكلمة «سولا»، والتي من خلالِها أكّدَ المصلحون أنّ التبريرَ هو بالإيمان وحده.

في بعض الأحيان، يمكنُ أن يبالغَ شعارٌ ما في تبسيط الأمور إلى حدٍّ كبير، وهذا ما يحدُثُ أحيانًا مع «سولا فيدي». يسألني الناس: «أليس من الضروريّ أيضًا أن يتوبَ الإنسانُ ليتبرّر؟» أقول لهم دائمًا إنّ التوبة ضَروريّة بكلِّ تأكيد. لكنّ المصلحين اعتبروا التوبة جزءًا لا يتجزّأ

من هذا الإيمان الذي يبرّر (على الرغم من أنّنا نميّزُه عن الإيمان بمعنًى من المعاني). «سولا فيدي» هي ببساطة اختصار لفكرة أنّ التبرير يتمُّ بالمسيح وحده، وأنّه عندما نؤمن بما فعله يسوع من أجلنا، فإنّنا نحصلُ على التبرير.

لذلك، يمكنُنا تحديدُ الصيَغ المختلفة من القرن السادس عشر. وجهة النظَر الكاثوليكية هي على الشكل التالي: الإيمان + الأعمال = التبرير. وجهة النظر البروتستانتيَّة، التي أعتقد أنّها وجهة نظر كتابيّة، هي على الشكل التالي: الإيمان = التبرير + الأعمال. وضعَ المصلحون الأعمالَ في الجانب الآخر من المعادلة، معاكسًا للإيمان، لأنّ أي عمل نقوم به كمسيحيّين لا يضيف شيئًا على الإطلاق إلى أساسِ تبريرنا. بمعنى آخر، لا يعلنُنا الله أبرارًا بسبب أيّ أعمالٍ نقوم بها، بل بالإيمان وحده ننالُ عطيَّةَ التبرير.

يقول الرسول بولس: «وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَقُولُهُ ٱلنَّامُوسُ فَهُوَ يُكَلِّمُ بِهِ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّامُوسِ، لِكَيْ يَسْتَدَّ كُلُّ فَمٍ، وَيَصِيرَ كُلُّ ٱلْعَالَمِ تَحْتَ قِصَاصٍ مِنَ ٱللهِ. لِأَنَّهُ بِأَعْمَالِ ٱلنَّامُوسِ كُلُّ ذِي جَسَدٍ لَا يَتَبَرَّرُ أَمَامَهُ. لِأَنَّ بِٱلنَّامُوسِ مَعْرِفَةَ ٱلْخَطِيَّةِ» (رومية ٣: ١٩-٢٠). ثمّ شرح عقيدة التبرير بشكلٍ أوسع وأكمل، ووضَعَها على النقيض من مفهوم التبرير من خلال أعمال الناموس:

> وَأَمَّا ٱلْآنَ فَقَدْ ظَهَرَ بِرُّ ٱللهِ بِدُونِ ٱلنَّامُوسِ، مَشْهُودًا لَهُ مِنَ ٱلنَّامُوسِ وَٱلْأَنْبِيَاءِ، بِرُّ ٱللهِ بِٱلْإِيمَانِ بِيَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ، إِلَى كُلِّ وَعَلَى كُلِّ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ. لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ. إِذِ ٱلْجَمِيعُ أَخْطَأُوا

وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ ٱللهِ، مُتَبَرِّرِينَ مَجَّانًا بِنِعْمَتِهِ بِٱلْفِدَاءِ ٱلَّذِي بِيَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ، ٱلَّذِي قَدَّمَهُ ٱللهُ كَفَّارَةً بِٱلْإِيمَانِ بِدَمِهِ، لِإِظْهَارِ بِرِّهِ، مِنْ أَجْلِ ٱلصَّفْحِ عَنِ ٱلْخَطَايَا ٱلسَّالِفَةِ بِإِمْهَالِ ٱللهِ، لِإِظْهَارِ بِرِّهِ فِي ٱلزَّمَانِ ٱلْحَاضِرِ، لِيَكُونَ بَارًّا وَيُبَرِّرَ مَنْ هُوَ مِنَ ٱلْإِيمَانِ بِيَسُوعَ. (رومية ٣: ٢١-٢٦)

في قلب الجدل الدائر في القرن السادس عشر، كان السؤال عن الأرضيّة التي يعلنُ الله من خلالها أنّ أيَّ شخص بارّ في عينيه. سأل صاحبُ المزمور: «إِنْ كُنْتَ تُرَاقِبُ ٱلْآثَامَ يَارَبُّ، يَا سَيِّدُ، فَمَنْ يَقِفُ؟» (مزمور ١٣٠: ٣). بمعنًى آخر، إن كان علينا أن نقفَ أمام الله ونواجهَ عدالته الكاملة ودينونته الكاملة لأدائنا، فلن يتمكّن أيُّ واحدٍ منّا من اجتياز هذا التدقيق. سوف نسقط جميعُنا، لأنّه كما يقول بولس، «إِذِ ٱلْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ ٱللهِ» (رومية ٣: ٢٣). لذا، فإنّ السؤال المُلحّ عن التبرير هو: كيف يُمكن لأيِّ شَخصٍ غيرِ بارّ، أن يتبرّرَ في محضَرِ الله القدّوس والبارّ؟

كما ذكرتُ سابقًا، تُعرَفُ وجهة النظَر الكاثوليكيَّة بالتبرير التحليلي. هذا يعني أنَّ الله سيعلن عن شخصٍ ما أنّه بارّ عندما يجد، وفقًا لتحليله الكامل، أنّه بارّ، وأنَّ البرَّ متأصّلٌ فيه. لا يمكن للإنسان أن يحصلَ على هذا البرّ من دون إيمانٍ ومن دون نعمةٍ ومساعدَةِ المسيح. ومع ذلك، في التحليل الأخير، يجب أن يكون البرُّ الحقيقيُّ حاضرًا في روح الإنسان قبل أن يعلنَه الله بارًّا.

في حين أنّ وجهة النظَر الرومانيَّة تحليليّة، فإنّ وجهة نظر الإصلاح

هـي أنَّ التبريـر «تركيبيّ». «العبـارة التركيبيّة» هي عبـارة يتمُّ فيها إضافة شَـيءٍ جديـد فـي الجـزء الثانـي من العبـارة غير موجـود في الجـزء الأوّل. إن قلـت لـك: «كان العـازبُ رجُـلًا فقيـرًا»، فقـد أخبرتك بشـيء جديد في الجـزء الثانـي مـن الجملة لم يكن موجـودًا بالفعل في كلمـة «عازب». كلُّ العازبيـن رجـالٌ، لكن ليـس كلّ العازبين فقراء. هنـاك العديد من العازبين الأثريـاء. الفقـرُ والغنـى مفاهيم ليسـت متأصّلة في فكـرة العزوبيّة. لذلك، عندمـا نقـول: «كان العازبُ رجُـلًا فقيرًا»، فهذه عبـارة تركيبيّة.

نقـول إنّ وجهـة نظـر الإصلاح في التبريـر هي «تركيبيّـة»، فإنّنا نعني بذلـك أنّـه عندمـا يُعلـنُ اللـه أنّ الشـخصَ بـارٌّ فـي نظـره، فـإنّ ذلـك ليـس بسـبب مـا يجـدُه الله في ذلك الشـخص عند تحليله. بل على أسـاس شَـيءٍ مـا يُضـاف إلـى الشـخص. هـذا الشـيءُ المضـاف بالطبـع هـو بـرُّ المسـيح. هـذا هـو السـبَب فـي أنّ «لوثر» قـال إنّ البرَّ الـذي به تبرّرنا هـو «اللاءات الإضافيَّـة»، بمعنـى «بعيـدًا عنّـا» أو «خارجًا عنّا». كما أسـماه «بـرًّا غريبًا»، وليـس بـرًّا ينتمـي إلينـا، بـل بـرًّا غريبًـا عنّـا. إنّـه يأتـي مـن خـارج مجـال سـلوكنا. بهذيـن المصطلحَيـن، كان لوثـر يتحـدّث عن برّ المسـيح.

## أهمّيَّة مفهوم كلمة «يُنسَب» أو «المنسوب إلى»

الكلمـة التـي كانـت في قلـبِ العاصفـة الناريّـة لجدل الإصـلاح والتي بقيَت كلمَةً مركزيّة في الجدال حتى في يومنا هذا، هي كلمة «يُنسَب» أو «المنسـوب إلـى». عُقدت اجتماعاتٌ عديدة بين البروتسـتانت والكاثوليك لمحاولـة إصـلاح الانقسـام الـذي كان يحـدث فـي القـرن السـادس عشـر. التقـى اللاهوتيّـون مـن رومـا بالمصلحيـن، فـي محاولـة لحَـلِّ الصعوبـات

والمحافظة على وحدة الكنيسة. كان هناك شَوقٌ لهذه الوحدة من كلا الجانبَيْن. لكنّ المفهوم الوحيد الذي كان دائمًا النقطة الشائكة، الفكرة التي كانت ثمينة جدًّا للبروتستانت وحَجَر عثرة للكاثوليك، كان مفهوم أو فكرة «يُنسَب» أو «المنسوب إلى». لا يمكنُنا أن نفهَمَ حقًّا حركة الإصلاح من دون فهم الأهميَّة المركزيّة لهذا المفهوم.

عندما يشرحُ بولس عقيدة التبرير، يستشهد بمثال رئيس الآباء إبراهيم. يقول بولس: «لِأَنَّهُ مَاذَا يَقُولُ ٱلْكِتَابُ؟ «فَآمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِٱللهِ فَحُسِبَ لَهُ بِرًّا»(رومية ٤: ٣، مُقتبسًا تكوين ١٥: ٦). بمعنى آخر، كان يتمتّع إبراهيم بالإيمان، ولذلك برّرَه الله. كان إبراهيم لا يزال خاطئًا. يكشف باقي تاريخ حياة إبراهيم أنّه لم يطِعِ الله دائمًا. ومع ذلك، فقد حَسِبَه الله بارًّا لأنّه آمنَ بالوعد الذي قطعَه له الله. هذا مثالٌ على «المنسوب»، والذي يتضمّن نقلَ شَيءٍ ما بشكلٍ قانونيّ إلى حسابِ شَخصٍ ما، ليُحسَبَ وجودُ شَيءٍ ما هناك. يتحدّث بولس إذًا عن أن الله حَسِب إبراهيم بارًّا أو اعترف بأنّه بارّ، على الرغم من أن إبراهيم لم يكن بنفسِه أو في حدّ ذاته بارًّا. لم يكن فيه برٌّ متأصّل فيه.

كما أشرتُ أعلاه، إنّ الفكرَةَ الكاثوليكيّة هي أنّ النعمةَ تُسكَبُ في روح الإنسان عند المعموديّة، ممّا يجعلُ البرّ متأصّلًا في الإنسان، وهكذا يحكمُ الله عليه بأنّه بارّ. لكنّ المصلحين أصرّوا على أنّنا نتبرّرُ عندما ينسُبُ أو يحسُبُ اللهُ برَّ شخصٍ آخر في حسابنا، أي برِّ المسيح.

إن وُجدَ أيُّ تصريحٍ يلخّص ويلتقط جوهر وجهة نظر الإصلاح، فهو صيغة لوثر اللاتينيَّة الشهيرة: «*Simul*». وكلمة «*simul*» هي الكلمة

التي نحصل منها في اللغة الإنجليزيّة على كلمة «*simultaneous*»، وتعني «في آنٍ واحد». «*Justus*» هي الكلمة اللاتينيّة التي تعني «بارّ». و«*Et*» تعني ببساطة «و». «*Peccator*» تعني «خاطئ». لذا، بهذه الصيغة: «بارّ وخاطئ في آنٍ واحد»، كان لوثر يقول بأنّنا في تبريرنا، نحن أبرارٌ وخطاة في آنٍ واحد. إن قلنا إنّنا أبرارٌ وخطاة في آنٍ واحد وفي العلاقة نفسِها، لحصل تناقض في المصطلحات. لكن هذا ليس ما كان يقوله. كان يقول: من ناحيةٍ نحن أبرار، ومن ناحيةٍ أخرى نحن خطاة. تحتَ مِجهر الله، ما زالت الخطيئة موجودة في أنفسِنا ومن أنفسِنا. ولكن عندما ينسُبُ الله أو يحسُبُ برَّ يسوع المسيح إلى حسابنا، فإنّنا نُعتَبَر أبرارًا.

هذا هو قلبُ الإنجيل. لكي أدخلَ إلى السماء، هل سيُحكم عليّ ببرِّي أم ببرّ المسيح؟ إذا كان عليّ أن أثقَ في برّي للدّخول إلى السماء، فلا بدّ لي أن أيأسَ بشكلٍ كاملٍ ومُطلق من أيّ إمكانيّةٍ للخلاص على الإطلاق. لكن، عندما نرى أنَّ البرّ الذي لنا بالإيمان هو برُّ المسيح الكامل، فسنرى كم أنّ أخبار الإنجيل السارّة مجيدة. الخبرُ السارّ هو ببساطة: بالإمكان مصالحتي مع الله. بالإمكان تبريري، ليس على أساسِ ما أفعله، ولكن على أساسِ ما حقّقَه المسيحُ لي.

بالطبع، تُعلّم البروتستانتيّة نسبة أو حسبانًا مزدوجًا. خطيّتُنا منسوبة إلى يسوع أو محسوبة عليه، وبرُّه منسوبٌ إلينا أو محسوب علينا. في هذه العمليّة المزدوجة، نرى أنّ الله لا يساوم على استقامتِهِ في تقديم الخلاص لشَعبِه. بل هو يعاقبُ الخطيئة بالكامل بعد أن نُسبت إلى يسوع. هذا هو السبَب في أنّه قادرٌ على أن يكون «البارّ

والمُبرّر لمن يؤمن بيسوع»، كما كتبَ بولس في رومية ٣: ٢٦. إذًا، تنتقل خطيئتي إلى يسوع وينتقلُ برُّهُ إليّ. هذه حقيقة تستحقّ أن تنقسِمَ الكنيسة من أجلها. هذا هو البندُ الذي تقوم عليه الكنيسَة أو تسقط، لأنّه البندُ الذي نقفُ عليه أو نسقط عليه جميعًا.

أستغربُ كيف أنّ روما ردّت بشكلٍ سلبيٍّ على فكرة النسبة أو الحسبان، لأنّه في عقيدتِها عن الكفّارة، تعتبر أنّ خطايانا منسوبة إلى يسوع على الصليب، وهذا هو السبب في أنّ لموتِه الكفّاريّ قيمةً بالنسبة إلينا. مبدأ النسبة أو الحسبان موجود عندهم هناك. أضف إلى ذلك أنّ روما تعلّم أنّ الخاطئ يمكن أن يحصلَ على غفران من خلال تحويل الجدارة من خزينةِ الجدارة، لكن هذا التحويل لا يمكن أن يتمَّ إلا عن طريقِ النسبةِ أو الحسبان.

أعلنت الكنيسَةُ الكاثوليكيّة أنّ وجهة نظر الإصلاح عن التبرير تتضمَّنُ وجودَ «خطأ قانونيٍّ» عند الله يقوّضُ استقامَتَه. كانت روما تتساءَل كيف يمكنُ لله، في برّه الكامل وقداستِه، أن يُعلنَ أنّ الخاطئ بارّ إن لم يكن في الواقع أو في الحقيقة بارًّا. يبدو أنّ هذا الأمر يتضمّنُ أنّ الله مشاركٌ في تصريح خاطئ. كان الردُّ البروتستانتيُّ أنَّ الله يعلن أنّ الناسَ أبرار، لأنّه ينسبُ إليهم برَّ المسيح الحَقيقيّ. لا يوجد أيُّ خطأ في برِّ المسيح، ولا يوجد أيُّ خطأ في إسنادِ الله هذا البرّ بنِعمتِهِ.

## بولس مقابل يعقوب

استند اعتراضُ روما الرئيسيُّ على وجهة النظر البروتستانتيّة للتبرير

على تعاليم يعقوب. يقولُ يعقوب في رسالتِهِ: «أَلَمْ يَتَبَرَّرْ إِبْرَاهِيمُ أَبُونَا بِٱلْأَعْمَالِ، إِذْ قَدَّمَ إِسْحَاقَ ٱبْنَهُ عَلَى ٱلْمَذْبَحِ؟... وَتَمَّ ٱلْكِتَابُ ٱلْقَائِلُ: «فَآمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِٱللهِ فَحُسِبَ لَهُ بِرًّا»، وَدُعِيَ خَلِيلَ ٱللهِ. تَرَوْنَ إِذًا أَنَّهُ بِٱلْأَعْمَالِ يَتَبَرَّرُ ٱلْإِنْسَانُ، لَابِٱلْإِيمَانِ وَحْدَهُ» (٢: ٢١، ٢٣-٢٤). يبدو من الخارج أنّ يعقوب يعلّمُ أنّ الأعمال لها دورٌ في التبرير، فكيف لنا أن نفهمَ هذا المقطع؟

عندما يتأمّل علماءُ اللاهوت بالفرق بين تعليم بولس في رومية ٣ و٤ و٥، وتعليم يعقوب في الإصحاح ٢، فإنّهم ينظرون إليها بطرُقٍ مختلفة. يقول البعض إنّ رسالة يعقوب كُتِبت قبل الرِسالة إلى أهل رومية، ومن الأمور التي أدرَجَها بولس على جدول أعماله في كتابة رسالة رومية هي تصحيحُ الخطأ الذي علّمَه يعقوب في رسالته. يقول آخرون إنّ رسالة رومية كُتبَت أوّلًا ثمّ رسالة يعقوب، وكان جزءٌ من جدول أعمال يعقوب أن يُصحّحَ تعاليم الرسول بولس الخاطئة، بينما يقول آخرون إنّه لا يهُمّ من كتبَ أوّلًا أو ثانيًا، وما هذا إلّا دليل على أنّه كان عند الرسل في القرن الأوّل أفكارٌ لاهوتيّة مختلفة، وأنّه لا توجد في العهد الجديد رؤية متجانسة وواحدة عن التبرير. لكن أولئك الذين يؤمنون بأنّ الكتاب المقدّس هو كلمة الله، وأنّ رسالة رومية ورسالة يعقوب هما بوحيٍ من الروح القدُس، لا يمكنُهم التخلّص من هذه المُعضلة بهذه السهولة. إنّهم يواجهون مهمَّةً صعبة للتّوفيق بين الرسالتَيْن.

سيكون من الجيّد أن نقولَ إنّه عندما يتحدّث يعقوب وبولس عن التبرير، فإنّ يعقوب يستخدم كلمةً يونانيّة تختلف عن تلك التي يستخدمها بولس، إلّا أنّهما يستخدمان الكلمة اليونانيّة نفسَها ديكايو

«*dikaioo*». سيكون من الجيّد أن نقولَ إنّ يعقوب يستخدم أبًا مُختلفًا كمثال لوجهة نظره بينما يستخدم بولس أبًا مختلفًا لدعم وجهة نظره، إلّا أنّهما يستخدمان إبراهيم كمثالٍ لتعزيز وجهتَيْ نظرِهما. لذلك، كلّما نظرنا إلى هذا الأمر، زادت صعوبة الحبكة وصعوبة التوفيق بين المقطعَيْن.

لكي نرى كيف يتوافقُ هذان النَصّان معًا، علينا أن نأخذَ في عين الاعتبار نقطتَيْن هامَّتَين جدًّا. أوّلًا، بينما يشيرُ كلا المقطعَيْن إلى إبراهيم، إلّا أنّ بولس يستشهد بحدَثٍ من حياة إبراهيم مُسجّل في تكوين ١٥. حدث هذا قبل وقتٍ طويل من ذهاب إبراهيم لتقديم ابنِهِ إسحاق على المذبح. لذلك، بدءًا من تكوين ١٥ وما بعده، كان إبراهيم بالفعل في حالةِ تبرير. على النقيض من ذلك، يشيرُ يعقوب تحديدًا إلى طاعةِ إبراهيم في استعدادِهِ للتَّضحيةِ بإسحاق، وهذا مكتوبٌ في تكوين ٢٢. لذلك، عندما يتحدّثُ يعقوب عن تبرير إبراهيم، فإنّه يشير في المقام الأوّل إلى ما حدث في تكوين ٢٢، في حين أنّ بولس يُشدّدُ على أنَّ إبراهيم قد بُرِّرَ مجّانًا من دون أن يقومَ بأيِّ عمل.

لكنّ الحلّ الحقيقيَّ لهذه الصعوبة يأتي عندما نسأل أنفسَنا ما إذا كان بولس ويعقوب يعالجان السؤال نفسَه. يسأل يعقوب: «مَا ٱلْمَنْفَعَةُ يَا إِخْوَتِي إِنْ قَالَ أَحَدٌ إِنَّ لَهُ إِيمَانًا وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَعْمَالٌ، هَلْ يَقْدِرُ ٱلْإِيمَانُ أَنْ يُخَلِّصَهُ؟ إِنْ كَانَ أَخٌ وَأُخْتٌ عُرْيَانَيْنِ وَمُعْتَازَيْنِ لِلْقُوتِ ٱلْيَوْمِيِّ، فَقَالَ لَهُمَا أَحَدُكُمُ: «ٱمْضِيَا بِسَلَامٍ، ٱسْتَدْفِئَا وَٱشْبَعَا»، وَلَكِنْ لَمْ تُعْطُوهُمَا حَاجَاتِ ٱلْجَسَدِ، فَمَا ٱلْمَنْفَعَةُ؟ هَكَذَا ٱلْإِيمَانُ أَيْضًا، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ، مَيِّتٌ فِي ذَاتِهِ» (يعقوب ٢: ١٤-١٧). إذًا، السؤال الذي يطرحُه

يعقوب هو: «إنْ قال أحدُهم إنّه مؤمن ولكن ليس لديه أعمالٌ للتحقّق من إيمانِه، فهل يمكن لهذا النوع من الإيمان أن يخلّصَه؟»

الجواب، بالطبع، هو لا. كما أعلنَ لوثر: «نحن مُبرَّرون بالإيمان وحده، لكن ليس بالإيمان الذي هو وحده». إنْ كان الإيمانُ الذي نعترف به هو إيمانًا بلا دليلٍ على الأعمال، فهذا الإيمانُ لا يُخلّص. إنّه، كما يقول يعقوب، إيمانٌ «ميّت»، وليس إيمانًا حيًّا. الإيمانُ الحَيُّ يُظهر حياتَه بالطاعة. أعمالُ الطاعة هذه لا تُساهِمُ بأيِّ شَيْءٍ في تبريرنا، ولكن إنْ لم تكنِ الأعمالُ موجودة، فغيابُها دليلٌ على عدَمِ حدوث التبرير.

يتابعُ يعقوب ويكتُب: «لَكِنْ يَقُولُ قَائِلٌ: أَنْتَ لَكَ إِيمَانٌ، وَأَنَا لِي أَعْمَالٌ. أَرِنِي إِيمَانَكَ بِدُونِ أَعْمَالِكَ، وَأَنَا أُرِيكَ بِأَعْمَالِي إِيمَانِي» (عدد ١٨). نرى هنا أنّ المسألة التي تدور في ذهن يعقوب هي إظهار الإيمان. لكن لمن علينا أن نُظهرَ إيمانَنا؟ هل يحتاج الله إلى رؤية أعمالنا ليعرفَ ما إذا كان إيمانُنا صادقًا؟ بالطبع لا. لقد عرفَ اللهُ أنّ إبراهيم كان يمتلك إيمانًا مُخلّصًا حتى بالعودة إلى تكوين ١٥، قبل وقت طويل من إثبات استعدادِهِ للتَّضحيَة بإسحاق. ويُشدّدُ بولس على فكرةِ أنّ الله حسبَه بارًّا بمجرّد وجود إيمانٍ حقيقيّ. ومع ذلك، لا يستطيع الآخرون رؤية ما في قلوبنا إلّا إذا أظهرنا ذلك. إنْ قلتَ إنَّ لي إيمانًا، فكيف يمكنُني إثباتُ حقيقة اعترافي هذا إلّا بطاعتي، وبإظهار أعمالي؟

عندما يستخدم يعقوب هذا المصطلح، فإنّه يتحدّث عن تبرير

ادّعاء الإيمان أمامَ البشر. يسوع نفسُه استخدم المصطلح بالطريقة نفسِها عندما قال: «والحكمة تبرّرَت من جميع بنيها» (لوقا ٧: ٣٥). ماذا كان يعني بذلك؟ بالتأكيد لم يقصد أنّ الحكمَةَ أُدخلت في حالة نعمة بإنجاب الأطفال. لقد كان يعني ببساطةٍ أنّ حكمَةَ الأعمال المختلفة يمكن إظهارُها من خلال الثمار التي تُنتجُها.

إذًا، يعالج يعقوب إظهارَ أو إعلانَ الإيمان الحقيقيّ. عندما قال: «أَلَمْ يَتَبَرَّرْ إِبْرَاهِيمُ أَبُونَا بِٱلْأَعْمَالِ، إِذْ قَدَّمَ إِسْحَاقَ ٱبْنَهُ عَلَى ٱلْمَذْبَحِ؟» (عدد ٢١) إنّه لا يقول إنّ إبراهيم قد أُحضِرَ إلى حالة نعمة بتقديم إسحاق، لكنّه برّرَ أو أظهرَ أنّ ادّعاءَه بالإيمان كان حقيقيًّا.

يستخدمُ بولس المصطلح «مُبرّر» بالمعنى اللاهوتيِّ الأسمى لشخصٍ جُعلَ بارًّا أمام الله. إنّه يتعامل مع التبرير بمعنى مصالحتِنا النهائيَّة مع الله العادل والقدّوس. لقد كتبَ الرسالة إلى أهل رومية إلى حَدٍّ كبير ليشرحَ كيف يتحقّقُ الخلاص، لذلك يُشدّدُ على النقطة القائلة بأنّ التبرير ليس بأعمال الناموس بل بالإيمان بعيدًا عن الأعمال، وبأنّنا لا نتبرّرُ من خلال برِّنا الشخصيّ بل ببرِّ المسيح. إذًا، إنْ تأمّلنا بعناية في هذه المقاطع وفكّرنا في الأسئلة المختلفة التي تعالجُها، فإنّ الصعوبة تتبخّر.

## التأكيداتُ الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة

ومع ذلك، لا زالت روما ترفضُ التخلّي عن اعتراضاتِها، وتواصلُ تعليمَ وجهةِ نظر التبرير نفسِها التي طرَحَها مجمع ترنت. تتطرّقُ هذه

التصريحاتُ من التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة (١٩٩٥) إلى بعض الأمور التي ناقشناها:

لقد جُعِلنا مُستحقّين للتبرير بواسطةِ آلام المسيح الذي قدّم نفسَه على الصليب كتضحيةٍ حيّةٍ ومقدّسة ومَرْضيّة لله، وصار دمُهُ أداة التكفير عن خطايا جميع الناس. يُمنحُ التبرير في المعموديّة في سِرِّ الإيمان. إنّه يجعلُنا متطابقين مع برِّ الله الذي يجعلنا في الداخل أبرارًا بقوّة رحمتِه. هدفُه مجدُ الله والمسيح وعطيّة الحياة الأبديّة. (القسم ١٩٩٢)

نعمة المسيح هي الهبَةُ المجانيّة التي يمنحُها لنا الله من حياته الشخصيّة، والتي يغرسُها أو يسكبها الروح القدُس في نفوسنا لشفائِها من الخطيئة ولتقديسِها. إنّها النعمة المقدِّسة أو النعمة الإلهيّة التي تلقّيناها في المعموديّة. إنّها مصدرُ عمَلِ التقديس فينا. (١٩٩٩)

لقد جُعِلنا مُستحقّين للتبرير بواسطة آلام المسيح. وقد مُنح لنا هذا التبرير من خلال المعموديّة. إنّها تجعلنا متطابقين مع برِّ الله الذي يبرّرُنا، وهدفها مجد الله والمسيح وعطيّة الحياة الأبديّة. إنّها أفضلُ عملٍ في رحمَةِ الله. (٢٠٢٠)

يمكنُنا بالتالي أنْ يكون لنا رجاءٌ في مَجدِ السماء الذي وعدَ به الله لمن يحبّونه ويفعلون مشيئتَه. يجب على كلّ واحدٍ منّا أن يرجو، بنعمة الله، أن يثبتَ «حتى النهاية» وينال فرَحَ

السماء، كمكافأةٍ أبديّةٍ من الله على الأعمال الصالحة التي تحقّقت بنعمَةِ المسيح. في الرجاء، تصلّي الكنيسة من أجل «خلاص كلّ البشر». تشتاقُ الكنيسة أن تتّحدَ بالمسيح عريسِها في مجدِ السماء. (١٨٢١)

التأكيداتُ الكتابيّة الواضحة لإقرار الإيمان في وستمنستر تقفُ ضِدَّ هذه التصريحات.

أولئك الذين يدعوهم الله بشكلٍ فعّال، هو أيضًا يبرّرُهم مجّانًا: ليس بغرس البرّ فيهم، بل بصفح خطاياهم، وبحسبان وقبول أشخاصِهم كأبرار، لا لشَيءٍ حدث فيهم، أو تمَّ بواسطتِهم، لكن لأجل المسيح وحده؛ وليس بإسناد الإيمان نفسِه، أو فعل الإيمان، أو أي طاعةٍ أخرى لهم للإنجيل، كبرِّهِم؛ لكن بواسطة حسبان طاعة المسيح وكفايتِه لهم، إنّهم يقبلونه ويتّكلون عليه وعلى برِّهِ، بالإيمان؛ ذلك الإيمان ليس من أنفسِهم، هو عطيّة الله. (١١. ١)

الإيمان، وبالتالي قبولُ المسيح والاتّكالُ عليه وعلى برِّهِ، هو الوسيلة الوحيدة للتَّبرير: مع ذلك، هو ليس وحيدًا في الشخص المُبرّر، لكنّه دائمًا مصحوبٌ بجميع النِعَم الخلاصيّة الأخرى، وهو ليس إيمانًا ميّتًا، بل عاملًا بالمحبّة. (١١. ٢)

غالبًا ما أُخبرُ طلّابي في المعهد اللاهوتيّ أنّ عقيدَةَ التبرير

بالإيمـان وحـدَه ليسـت صعبَـةَ الفهم، فهـي لا تتطلّبُ شـهادة دكتوراه في اللاهـوت. ومـع ذلـك، علـى الرغم مـن بسـاطتها، إلّا أنّها تُعتبَـر واحدَةً من أصعـب حقائـق الكتـاب المقـدّس. من الصعـب علينا أن نفهَـمَ أنّه لا يوجد شَـيءٌ يمكنُنـا القيـامُ بـه لكسـبِهِ أو اسـتحقاقِهِ أو لإضافتِـهِ إلـى اسـتحقاق يسـوع المسـيح، وأنّـه عندمـا نقـفُ أمـام كرسِـيِّ دينونـة اللـه، فإنّنـا نأتـي غيـرَ حامليـن أيّ شَـيءٍ بين أيدينا. يجب علينا ببسـاطةٍ أن نتمسّـكَ بصليب المسـيح، وأن نضـعَ ثقتَنـا فيـه وحـده. أيُّ كنيسـةٍ تعلّـم شـيئًا غيـرَ هـذه الحقيقـة الأساسـيّة قـد خرَجـت عـن الإنجيل.

## الفصل ٣

# الكنيسة

يمكن أن يُقالَ الكثير عن عقيدةِ كنيسة روما الكاثوليكيّة، لكنّي أريد أن أركّزَ على الجانب الأكثر أهمّيَّة فيها، ألا وهو علاقة الكنيسة بالخلاص. لقد أعطت روما إشاراتٍ متضاربةً فيما يتعلّق بمعتقداتِها الحقيقيّة في هذا المجال، لذلك أودّ أن أستعرضَ بإيجاز ما قالته، ثمّ أحاولُ تحديدَ موقفِها بالضبط في القرن الحادي والعشرين.

عادةً ما توصف كنيسة روما الكاثوليكيّة بالمؤسّسة الكهنوتيّة، وهو مصطلحٌ مشتقّ من الكلمة اللاتينيّة «*sacerdos*» والتي تعني «الكاهن». الكهنوت هو مدرسة فكريّة تعلّم أنّ الخلاصَ يتمّ من خلال وظائف الكهنوت، وبشكلٍ خاصّ من خلال الأسرار. التركيزُ الكبير في الكنائس البروتستانتيّة هو على الكرازة بكلمة الله، ويتجلّى هذا التركيزُ حتى في الهندسة المعماريّة للكنيسة البروتستانتيّة، مع وضع المنبَر في وسط المقدّمة حيث يكون مركزُ الاهتمام. أمّا في التقليد الكاثوليكيّ، فإنّ مركزَ الاهتمام هو المذبح. يُنظرُ إلى القدّاس وسِرّ الإفخارستيّا،

على أنّه قلبُ وجوهرُ الطقوس الليتورجيّة بدلًا من العظة، التي عادةً ما تكون عظةً قصيرة جدًّا. ولا يُمكن أن يمارِسَ سرَّ الإفخارستيّا غيرُ الكاهن أو الأسقف.

ولكن، إنْ كان الخلاصُ عبر الوظائف الكهنوتيّة، وإن كان الفداءُ من خلال وسائل النعمة التي يمنحُها الكاهن والتي تسيطر عليها الكنيسة، فماذا يحدُث لشخصٍ ليس عضوًا في كنيسة يقودُها الكاهن مثل كنيسة روما الكاثوليكيّة؟ من وجهةِ نظر روما، هل يمكن لأيّ شخصٍ خارج كنيسة روما الكاثوليكيّة أن يَخلُص؟

كان هذا سؤالًا مُشتعلًا في الولايات المتّحدة الأميركيّة في أربعينيّات وخمسينيّات القرن الماضي. بينما كنتُ أكبرُ في ضواحي بيتسبرغ، كانت روحُ الانقسام واضحَةً جدًّا بين البروتستانت والكاثوليك، وكان ذلك ظاهرًا في التقسيم الاجتماعيّ للحَيّ؛ فكان الكاثوليك يسكنون على جانبٍ واحدٍ من الطريق السريع الرئيسيّ، بينما كان البروتستانت يسكنون على الجانبِ الآخر. كان جميعُ البروتستانت يذهبون إلى الكنيسة البروتستانتيّة وكان أولادُهم يذهبون إلى المدرسة العامّة؛ أمّا الكاثوليك، فكانوا جميعُهم يذهبون إلى كنيسة روما الكاثوليكيّة وأولادُهم إلى المدرسة الكاثوليكيّة. لم يكن بين المجموعتين تقريبًا أيُّ تبادلٍ اجتماعيّ، وكان الشعورُ بعدم الثّقة والشكّ سائدًا بينهما.

ولكن، عندما دخلتُ الصَفَّ العاشر، فجأة وجدتُ نفسي وطلّابٌ بروتستانت آخرون أيضًا مع الطلّاب الكاثوليك، لأنّ الكاثوليك لم يكن لديهم في ذلك الوقت مدرسة ثانويّة خاصّة بهم. فجأة، بدأتْ فرَقُ

كـرَةِ القـدم والبيسـبول تتشـكّلُ مـن مزيـجٍ مـن اللاعبيـن البروتسـتانت والكاثوليـك، وبـدأ التواصـل وعلاقـاتُ الصداقـة تنمـو بينهمـا.

ذاتَ يـوم، أخبرَنـي أحدُ معارفي مـن الكاثوليك الذي تلقّى تعليمَه في مدرسـة تابعة للأبرشـيّة الكاثوليكيّة أنّه لا يُمكن لأيّ شـخصٍ بروتسـتانتيٍّ أن يدخـلَ الجنّـة، لأنّـه يجـب أن يكـون داخـلَ كنيسـة روما الكاثوليكيّـة إذا أرادَ الحصـولَ علـى الخـلاص. فـي وقـتٍ لاحـق، طـوّرتُ صداقـةً وثيقةً للغايـة مـع رجـلٍ كاثوليكـيّ، وعندمـا كنـتُ على وشـكِ الزَّواج من فيسـتا، طلبـتُ منـه أن يكـونَ إشـبيني فـي حفـل الزِّفـاف. كان عليـه أن يطلـبَ إذنًـا خاصًّـا مـن كنيسـتِه للمشـاركة فـي حفـلِ زفافـي البروتسـتانتيّ، لكنّ طلبَـه قوبـلَ بالرفض بحجّـة أنّ حضور خدمـة العبادة البروتسـتانتيّة يعتبَرُ خطيئـةً خطيـرة. لذلك، لم يُسـمحْ حتّـى لصديقي المفضّـل أن يحضرَ حفلَ زفافـي، ناهيـك عـن المشـاركة فيـه. وعندمـا تـزوّج لاحقًـا، اسـتحصل لـي علـى إذنٍ مـن أسـقفِ نيويورك للمشـاركة في حفلِ زفافه، لكن لم يُسـمَحْ لـي بالاقتـراب مـن المذبـح حتـى إتمـام النذور فـي قدّاس الـزَّواج.

عندمـا ذهبـتُ إلـى معهـد اللاهـوت، عَمِلـتُ كخـادمٍ للطـلّاب فـي كنيسـةٍ هنغاريّـةٍ صغيـرة فـي مجتمـع مـن اللاجئيـن المُحبَطيـن القادمين مـن هنغاريـا. كان فـي هـذا المجتمـع ثمانـي كنائـسَ كاثوليكيّـة وكنيسـةٌ بروتسـتانتيّة صغيـرة. انتقلـتُ في الخريـفِ إلى المنـزلِ الصغير المخصّص لخـادم الكنيسَـة. خـلال عيـد الهالويـن، كان منزلـي هـو الهـدَف المفضّـل لأولاد ذلـك المجتمـع، إذْ كانـوا يرشـقونه بالطيـن والطماطـم، ويتركـون القمامـة علـى العشـب أمامَـه. اكتشـفتُ لاحقًـا أنّ أولادًا مـن المجتمـع فعلـوا كلّ هـذا، لكنّـي لـم أكـن أعرفُهـم ولـم يكـن لـي أيُّ اتّصـال معهـم.

وعندما تمكّنتُ من استجواب بعضهم، اكتشفتُ أنّ والديهم أخبروهم أنّ الشيطانَ يعيش في منزلي. اتّضح لي أن قصفَ المعاقل البروتستانتيّة كان من الممارساتِ المعتادَةِ خلال عيد الهالوين.

أشاركُ هذه الأمثلة التوضيحيّة فقط لأظهرَ لكم أنّ هذا النوع من السلوك لم يختفِ منذ مئات السنين. كنتُ طوال حياتي موضع تشكيك من الآخرين لمجرّد كوني بروتستانتيًّا. أشكرُ الله أنّ هذا النوع من الشكّ غريبٌ في الثقافة الأميركيّة اليوم. أنتجَتْ التغييراتُ التي أقرّها المجمع الفاتيكاني الثاني أجواءَ مختلفةً تمامًا. لكن من أين جاء هذا الشَكُّ في المقام الأوّل؟ ما هو الأساسُ اللاهوتيّ والتاريخيّ لهذا النوع من السلوك؟

## كبريانوس وأوغسطينوس

وضعَ كبريانوس (المتوَفّى عام ٢٥٨)، وهو أحدُ آباء الكنيسة الأوائل وأسقفُ قرطاجة، صيغةً كانت مهمّةً جدًّا في تطوير فهم الكاثوليك لعلاقة الكنيسة بالخلاص. العبارة أو الصيغة الكلاسيكيّة اللاتينيّة التي قدّمها كبريانوس هي: «*Extra ecclesiam nulla salus*». دعوني أشرح ما تعنيه هذه العبارة. كلمة «*Extra*» تعني «خارج عن» أو «بعيدًا عن». وكلمة «*Ecclesiam*» تعني «الكنيسة». وكلمة «*Nulla*» تعني «لا يوجد» أو «لا». وأخيرًا، كلمة «*salus*» تعني «الخلاص». إذًا، ما قاله كبريانوس هو التالي: «خارج الكنيسة، لا خلاص». تابعَ في صياغةِ تشبيهٍ فشبّهَ الكنيسة بسفينةِ نوح. قال إنّه من الضروريّ أن يكونَ الإنسان بشكلٍ ملموس وحقيقيّ وواضح ضمنَ عضويّة كنيسة روما

الكاثوليكيّة لكي يخلُص، كما كان من الضروريّ أن يكون الإنسانُ بشكلٍ ملموس وحقيقيّ ومرئيّ داخل فُلك نوح لكي يخلص من الطوفان. لا يمكن أن يُقالَ عن أيّ شخص إنّه كان مع نوح في الروح لينجوَ من الطوفان ما لم يدخلِ الفلكَ بشكلٍ حرفيّ، بل كان عليه أن يكون داخلَ ذلك الفلك، لا أن ينظرَ إليه من خارجِه.

قام أوغسطينوس العظيم (٣٥٤-٤٣٠) بتعديل هذه الفكرة إلى حدٍّ ما، ويُعتَبَر أوغسطينوس العالِمَ اللاهوتيَّ الأعلى للكنيسة من حيث عِلم لاهوت كنيسة روما الكاثوليكيّة. كان لدى أوغسطينوس نظرَةٌ قويّة جدًّا للكنيسة، وهو الذي طوّرَ وشرحَ عقيدة الكنيسة بشكلٍ نظاميٍّ أكثر من أيّ لاهوتيٍّ آخر في الألفيّة الأولى. غالبًا ما يتكرّر تصريحُه الشهير هذا في الدوائر الكاثوليكيّة: « لا يكون اللهُ أبًا لمن لا تكون الكنيسَةُ أمًّا له». هذا التصريح هو أصلُ فكرة «الكنيسَةِ الأمّ المقدّسة»، التي يجب على الإنسان أن يُقيم في حضنِها بأمانٍ لكي يحصلَ على الفداء.

قدّم أوغسطينوس فيما يختصُّ في علمِ اللاهوت الكنسيّ بعضَ المفاهيم المعقّدة للغاية التي عارضت وجهَةَ نظر كبريانوس. كانت هذه الأفكارُ مدفوعة بالجدل الدوناتيّ في القرن الرابع. ركّزَ هذا الجدلُ على شرعيّةِ الكهنة المرتدّين. نشأت فكرَةُ المرتدّين قبل ذلك في أيّام الاضطهاد الذي أمرَ به الإمبراطور ديوكليتيان (حكمَ من عام ٢٨٤ إلى ٣٠٥) في القرن الرابع، عندما طُلبَ من الناس الارتداد أو التراجع عن إيمانِهم بالمسيح. يعطينا تاريخُ الكنيسَةِ السجِلَّ المظفّر لجموع المسيحيّين المُخلِصين الذين أعلنوا بجرأةٍ إيمانَهم بالمسيح في مواجهة تهديداتِ الاضطهاد والموت. ويتمُّ ذكرُ هؤلاء الرجال والنساء

على أنّهم شهداءُ الكنيسة. لكن لم يتصرّفِ الجميعُ بهذه البطوليّة عندما طُلبَ منهم أن يشهدوا للمسيح. كان من بين هؤلاء بعضُ الكهنة والأساقفة الذين أذعنوا تحت الضغط وتبرّأوا من إيمانِهم بالمسيح. عندما انطفأت نيرانُ الاضطهاد، برَزَ إلى الواجهة سؤالٌ عن كيفيّةِ معاملة أولئك الذين تراجعوا عن الإيمان. هل يُمكنُ استعادتُهم؟ هل كانت وظيفتُهم الليتورجيّة، أي خدمتُهم الكهنوتيّة، صالحَةً أم باطلة؟

كان في الكنيسة حركة تُدعى الدوناتيّة، أصرّتْ على فهمٍ صارمٍ للاهوت كبريانوس المتعلّق بالكنيسة. لقد أكّدوا أنّ الكنيسة المنظورة هي الكنيسة الحقيقيّة، فقط عندما يكون قادتُها طاهرين روحيًّا. قالوا إنّ الأسرارَ المقدّسة لا تكون صالحةً إن كان يقوم بها كاهنٌ مُرتدّ أو مُهرطقٌ أو كاهن كان يعيش في خطيئةٍ مُميتة. إنّ فسادَ الذين يقومون بإدارةِ الأسرار يُبطلُ تلك الأسرار.

ما هي أنواعُ المشاكل التي أثارها هذا الفهمُ عند الناس في الكنيسة؟ عندما كنتُ أنا وفيستا نستعدُّ للزَّواج، أردنا أن يكونَ حفلُ زفافِنا مُكرّسًا ومقدّسًا بشكلٍ خاصّ. لقد نشأنا وتثبّتنا في الكنيسَةِ نفسِها، لذلك لم يكن لدينا شكٌّ حول المكان الذي سنختارُه للزَّواج. اخترنا كنيسَةَ عائلتَيْنا، كنيسة تراثنا. ومع ذلك، عندما تحوّلنا أنا وفيستا إلى الإيمان بالمسيحيّة الحقيقيّة، سخِرَ راعي الكنيسة من تحوُّلِنا، وقال لي بوضوح إنّه إنْ كنت أؤمن بالقيامة الجسديّة للمسيح، فأنا «أحمقُ ملعون». عندما يتبرّأ الإنسانُ من قيامَةِ المسيح فأنا أشكُّ بشكلٍ جدّيٍّ بالتزامه المسيحيّ. أنا لا أعتبرُ عقيدة قيامة المسيح موضوعًا للنّقاش بين مختلف القناعات اللاهوتيّة، بل أعتبرُها جانبًا أساسيًّا من جوانب

الإيمان المسيحيّ. لكن هذا الرجُل أنكرَ ذلك بوضوح وبشكلٍ مباشر أمامي. لذلك، كانت لديّ شكوكٌ حول إيمانه. وعلى الرغم من أنّني لم أكن قد انضممت إلى معهدٍ لاهوتيّ بعد، إلّا أنّني تساءَلتُ عمّا إذا كان عدم إيمانِه سيجعل من حفل الزّواج باطلًا. إنْ كان راعي كنيستي غيرَ مؤمن، وإن كان الدوناتيّون مُحقّين، فإنّ كلّ الأعمال الليتورجيّة التي يقوم بها غيرُ المؤمن أو المهرطق تُصبح باطلةً بسبب فساده. بالتالي، فإنّ زواجي لن يكون صحيحًا. هذا هو نوعُ المشاكل التي واجهَها المؤمنون في القرن الرابع.

دفع هذا الجدلُ المحتدمُ أوغسطينوس إلى تطوير أربعِ علاماتٍ كلاسيكيّةٍ للكنيسة. قال إنّ الكنيسة هي كنيسَةٌ واحدَةٌ مقدّسة جامعة (أو «شاملة») ورسوليّة. كان العنصرُ الثاني، قداسة الكنيسة، في قلبِ الجدَلِ الدوناتيّ، وكذلك عنصرُ العالميّة. قال أوغسطينوس إنّ الكنيسة مُقدّسة بسبب اتّحادِها بالمسيح وبسبب نشاطِ أو عملِ الروح القدس فيها. وهذا يعني أنّه لم يؤكّدْ أنّ الكنيسَةَ مُقدّسة في جوهرها، ومقدّسة بشكلٍ مستقلّ، ولكنّ قداسَتَها مستمدّة، وغيرُ مستقلّة، ومشروطة. لقد سارع إلى الإشارة إلى أنّ هذا لا يعني أنّ كلَّ فردٍ في الكنيسة مُقدّس، لكنّهم موجودون في المكان الذي تتركّزُ فيه قداسة الله. وقد أقرّ بوجود الزوان مع الحنطة، الذين، بالرغم من وجودِهم في حضرة القداسة، إلّا أنّ القداسة لم تمسَّهُم إلى حدٍّ ما. وتابع يقول إنّ للكنيسةِ المنظورة وسائلَ نعمةٍ تأتي القداسة بواسطتِها. ومع ذلك، لا يجتهد الجميع في استخدام وسائل النعمة. علاوة على ذلك، أكّد أنّ الكنيسة ستكون بلا عيبٍ أو تشويهٍ فقط في السماء، ومِنَ العبث توقّعُ أن تكون

الكنيسة طاهرةً لكي يكون عملُها صالحًا. لقد رأى أنّ عند الدوناتيّين توقًا مبكّرًا لما هو موعودٌ به للمستقبل فقط، في الكنيسة السماويّة. ثمّ أعلن أنّه، كما قال الدوناتيّون، إنْ كان على الكنيسة أن تكون كاملةً على الصعيد الأخلاقيّ و الروحيّ لكي تكون كنيسة حقيقيّة، فحتّى الكنائسُ الدوناتيّة لم تكن كنائسَ حقيقيّة. لا يمكن أن توجَدَ كنائسُ حقيقيّة في العالم، لأنّه لا توجد كنائسُ كاملة.

قال أوغسطينوس عن الكنيسة إنّها «*corpus per mixtum*» (عبارة لاتينيّة تعني: جسدٌ مختلطٌا)، أي إنّها مزيجٌ من المؤمنين الحقيقيّين وغير المؤمنين. ومع ذلك، قال إنّ شعبَ الله، أي جماعة المختارين، موجودون بشكلٍ جوهريٍّ داخلَ الكنيسة المنظورة، مع أنّه اعترفَ بأنّه قد يكون هناك بعضُ المؤمنين خارج الكنيسة. لذلك، عدّلَ أوغسطينوس النظرة القويّة للعضويّة المرئيّة كمكوّنٍ أساسيٍّ للخلاص. لقد فتَحَ البابَ أمامَ إمكانيّةِ الخلاص لأولئك الذين ليسوا متّحدين جسديًّا وبشكلٍ مرئيٍّ بالكنيسة (على الرغم من أنّه ينبغي عليهم بالطبع أن يكونوا كذلك).

## جَهلٌ لا يُقهر

أكّد مجمعُ فلورنسا (١٤٣١-١٤٤٥) على ضرورَةِ الوجود داخلَ الكنيسة المنظورة من أجل اختبار الخلاص. أعلن هذا المجمع: «كلُّ أولئك الذين هم خارج كنيسة روما الكاثوليكيّة، ليس الوثنيّين فقط ولكن أيضًا اليهود أو الهراطقة والمنشقّين، لا يمكنُهم المشاركة في الحياة الأبديّة وسيكون مصيرُهم النارَ الأبديّة التي أُعدّت للشَّيطان

وملائكتِه إلّا إذا انضمّوا إلى الكنيسَةِ الكاثوليكيّة قبل نهايَةِ حياتِهم».[١]

في السنواتِ التي تلَتِ الإصلاح، أصبحت هذه المشكلةُ أكثرَ صعوبةً بالنسبةِ إلى روما. فبعد مرور جيلٍ أو جيلَيْن، كان أحفادُ الإصلاحيّين الأوائل يملأون الكنائسَ اللوثريّة والأنجليكانيّة والكنائسَ المُصلَحة في جميع أنحاءِ أوروبا. أعلنَتْ دوَلٌ بكامِلِها اتِّباعَها للبروتستانتيّة، ولم تترُكْ أيَّ شاهدٍ كاثوليكيٍّ في هذه المناطق. ما زالَ البروتستانت يعبدون اللهَ في المسيح، وما زالوا متمسّكين بالحقائق الرئيسيّة للكتابِ المقدّس والمجامع المسكونيّة الأولى، وما زالوا يسعَون ليكونوا تلاميذَ مطيعين. هل يجب وضعُهم في الفئةِ نفسِها التي كان فيها أجدادُهم (المصلحين)، الذين قالوا عن معرفةٍ وبمِلْءِ إرادتِهم «لا» للكنيسَةِ الأمّ المقدّسة؟

ميّزَ أحدُ الباباوات في العصر الحديث نفسَه باعتبارِه الحاجزَ البابويَّ الرئيسيَّ للمصالحة بين روما والإصلاح، وهو البابا پيوس التاسع، الذي خدم من عام ١٨٤٦ إلى ١٨٧٨. ومع ذلك، فقد أدخلَ الاعتدالَ إلى الخطِّ المتشدّدِ لوجهةِ نظر كبريانوس القديمة. في عام ١٨٦٣، في رسالةٍ بابويّةٍ عامّة مهمّة جدًّا بعنوان «*Quanto Conficiamur Moerore*» (عبارة لاتينيّة تعني: حول الترويج للعقائد المزيّفة)، حافظ البابا پيوس على جدّيةِ موضوع كونِ الإنسان خارجَ مؤسّسةِ روما المرئيّة. ومع ذلك، فقد أعطى مؤهِّلًا جديدًا مهمًّا، يتحدّث عن نوعٍ من توفيرِ النعمة أو المغفرة لأولئك الذين يعانون ممّا أسماه «الجَهل الذي لا يُقهَر». كتبَ التالي:

من الضروريّ مرّةً أخرى أن نذْكُرَ ونستنكرَ خطأً جسيمًا للغاية وقعَ في فخّهِ بعضُ الكاثوليك، الذين يعتقدون أنّه من الممكن للإنسان الوصولُ إلى الخلاصِ الأبديّ على الرغم من عيشِهِ في الخطأ والابتعاد عن الإيمان الحقيقيّ والوحدَةِ الكاثوليكيّة. يتعارضُ مثلُ هذا الاعتقاد بالتأكيد مع التعاليم الكاثوليكيّة. هناك، بالطبع، أولئك الذين يكافحون بجَهلٍ لا يُقهَر في ديننا المقدّس. فهم يلتزمون بإخلاصٍ بالناموس الطبيعي وتعاليمِه التي نقشَها الله في جميع قلوب الناس وهم مستعدّون لطاعة الله، ويعيشون حياةً صادقةً وقادرون على بلوغ الحياة الأبديّة بفضيلة النور والنعمة الإلهيّة الفعّالة. لأنّ الله يعلمُ ويفحصُ ويفهَمُ بوضوح عقولَ وقلوبَ وأفكارَ وطبيعة الجميع، لذلك لن يسمَحَ بلطفِهِ ورأفتِه الفائقَين لأيّ شخصٍ غير مذنب بارتكاب خطيئةٍ عمدًا أن يعانيَ من العقوباتِ الأبديّة».[٢]

الجهلُ الذي لا يُقهَر هو مفهومٌ مهمٌّ في اللاهوت الكاثوليكيّ، لا سيّما فيما يتعلّقُ بعلاقة البروتستانت بالمجتمع الروماني. الجهل الذي لا يُقهَرُ هو الجهلُ الذي لا يمكن التغلّبُ عليه، وبالتالي يشكّل عذرًا مقبولًا (إنّه يختلف عن الجهل الذي يُقهر، والذي يمكن التغلّبُ عليه ويجب التغلّبُ عليه، وبالتالي لا يصلحُ بأن يكون عذرًا). يقول بولس في رومية ١: ٢٠ إنّ الناسَ هم «بلا عُذر» لأنّ إعلانَ الله العامّ عن نفسِهِ واضح جدًّا. لن يتمكّن أيُّ شخص في يوم القيامة من الادّعاء بعدَمِ معرفةِ الله والتذرّعِ بالجهل الذي لا يُقهَر. قد يتذرّعون بالجَهل، ولكن

سيكونُ جهلًا يُمكن قهرُه، لذلك لن يكونَ عُذرُهم مقبولًا.

لنفترضْ أنّك تقودُ سيّارَتَكَ عبر مدينةٍ وتقترب من إشارة مرور. ضوءُ الإشارة أحمر، لكنّك تتخطّاه من دون أن تتوقّف. بعد ذلك، ستلاحظ ضوءًا أزرقَ اللون يتحرّكُ على سطح سيّارةٍ تسيرُ وراءَكَ. عندما يقتربُ ضابط الشرطة من سيّارتك ويخبرُك بأنّك قد حصلت على ضبطِ سير لعدم توقّفِك عند إشارة المرور الحمراء، وتقول له: «أنا آسف أيّها الضابط، لم أقصدِ ارتكابَ هذا الخطأ. لم أكن أعرف أنّي أخالفُ القانونَ إن قُدتُ سيّارتي عبر الإشارة الحمراء في هذه المدينة. أنا لا أعيشُ هنا. أنا من مدينةٍ أخرى». سيقول لك ضابط السير: «أنا آسف، لكنّ الجَهلَ بالقانون ليسَ عذرًا». عند قيادتِكَ للسيّارة، بغضّ النظر عن المكان الذي قد تكون فيه، أنتَ مسؤول عن معرفة قوانين السير في ذلك المكان. هذه القوانين ليست مخفيّةً بل هي مُتاحة للجميع. وبالتالي، كان من الممكن التغلّبُ على جهلك بالقانون. لذلك، أنتَ بلا عذر.

لكن لنفترضْ أنّ لجنَةَ بلديّةِ المدينة تحاول موازنة الميزانيّة، فقرّروا سرًّا أنّه اعتبارًا من الساعة التاسعة صباحًا من اليوم التالي، سيُطلب من جميع المركبات التوقّفَ عند الإشارة الخضراء والاستمرار بالقيادة عند الإشارة الحمراء، وأيُّ انتهاكٍ لهذا القانون الجديد سيُقابَلُ بغراماتٍ باهظة. أخطروا الشرطةَ بهذا التغيير، لكنّهم لم يخبروا أحدًا آخرَ بذلك. سُنَّ القانونُ في الخفاء، ولم يكن من طريقةٍ ليعرفَ أيُّ سائقٍ بذلك. لذلك، إنْ كنتَ تقود سيّارتَكَ عبر المدينة بعد الساعة التاسعة صباحًا في اليوم التالي ولم تتوقّف عند إشارة الضوءِ الأخضر وحصلتَ على ضَبط سير، يمكنُكَ الذّهابُ الى المحكمة والاعتراضُ

عليه على أساسِ الجَهلِ الذي لا يُقهَر. لديك عذرٌ شرعيٌّ، لأنّ أحدًا - لم يُخبرْك عن ذلك التغيير في قانون السير.

كان هذا بمثابة شقٍّ في الباب قدّمَه البابا پيوس التاسع للبروتستانت الذين وُلدوا وترَعرَعوا في المجتمعاتِ البروتستانتيّة فلم يتعرّضوا أبدًا للتعاليم الكاثوليكيّة وحقيقتِها. يمكن التخيّلُ بأنّه كان بإمكان هؤلاء الناس أن يكونوا من الكاثوليك لو عُرِضَتْ الحقيقةُ عليهم. ولكن بما أنّ هذا لم يحدث، فيُمكن منحُهُم الغفرانَ بحجّةِ الجَهل الذي لا يُقهَر.

هذا ليس غفرانًا شاملًا لجميع البروتستانت، فقد ميّزَ البابا پيوس التاسع بين الجاهلين بحَقٍّ والذين هم قساةُ الرقاب يعرفون الحقيقة ولكنّهم يرفضون الخضوعَ لها. ليس لهؤلاء الناس أيُّ أملٍ في الخلاص. وكتبَ التالي: «لا يمكن الحصولُ على الخلاصِ الأبديّ لمن يعارضون سلطةَ وتصاريحَ الكنيسَةِ وهم منفصلون بعنادِهم عن وحدَةِ الكنيسة وعن خليفةِ بطرس، الحبرِ الرومانيّ الأعظم».[٣]

وُجّهَتْ تحذيراتٌ قويّة إضافيّة بشأن ضرورة وإلحاح أن يكونَ الإنسانُ عضوًا في كنيسة روما الكاثوليكيّة في عام ١٩٤٣ في الرسالة العامّة للبابا پيوس الثّاني عشر بعنوان «*Mistici Corporis Christi*» أي «جسد المسيح السِرِّي»، والتي حدّد فيها الكنيسَةَ الكاثوليكيّة المنظورة مع جسَدِ المسيحِ السِرِّي. هذا يعني أنّ أيَّ شخص خارج كنيسة روما الكاثوليكيّة المنظورة هو أيضًا خارجَ جسَدِ المسيح. إذًا، مرّة أخرى، اتّخذت الكنيسة موقفًا متشدّدًا.

## رَغبة الكنيسَة

ذكرتُ في المقدّمة أنّ المجمعَ الفاتيكانيَّ الأوّل أشارَ إلى البروتستانت على أنّهم منشقّون ومهرطقون، لكنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني أشار إليهم بـ «الإخوة المنفصلين». يمثّلُ هذا التغييرُ في اللغة المستخدمة موقفًا جديدًا، خاصّة في الغرب، بين الكاثوليك نحو البروتستانت، وهو تحوّلٌ هائل عن المجمع الفاتيكانيّ الأوّل.

سُمّيَ المجمعُ الفاتيكانيُّ الثاني بـ «المجمع المَسكونيّ»، أسوَةً بغيرِهِ من العديد من المجامع الكبرى للكنيسة التي عُقدت عبر القرون. يأتي هذا المصطلحُ من الكلمة اليونانيّة «*oikoumene*»، والتي تعني «العالم المسكون». وهكذا، فإنّ المجمع المسكوني هو مجمعٌ لكنيسَةِ روما العالميّة. لا يقتصرُ الأمر على أساقفةِ مدينةٍ أو بلدٍ أو قارّة، ولكن تتمثّلُ فيه جميع الدوَل، ويعترف الكاثوليك بواحدٍ وعشرين مجمعًا من تاريخ الكنيسة على أنّها مجامعُ مسكونيّة، بينما يعترف البروتستانت عمومًا بالعديد من المجامع المسكونيّة الأولى المنعقدة من القرن الرابع إلى التاسع. من الواضح أنّه منذ الإصلاح، أصبحت جميعُ المجامع «المسكونيّة» تجمّعاتٍ كاثوليكيَّة. سُمِح للبروتستانت في المجمع الفاتيكاني الثاني، على سبيل المثال، بالحضور كمراقبين، لكن لم يُمنَحوا حَقَّ التصويت.

تسبّبَ استخدامُ مصطلح «المجمع المَسكوني» للمجمع الفاتيكانيّ الثاني في حدوثِ ارتباك. تمّ عقدُه في الستينيّات، أثناءَ الحركة المسكونيّة التي كانت تهدفُ إلى دَفعٍ نحو وحدَةٍ أكبر بين الطوائف

البروتستانتيّة. عندما دعا البابا يوحنّا الثالث والعشرون إلى عقد المجمع الفاتيكاني الثاني وتحدّث عنه كمجمع مَسكونيّ، اعتبَرَ العديدُ من البروتستانت أنّ هذا يعني أنّ روما كانت مهتمّةً بالمشاركة بنشاطٍ في الحركة المسكونيّة، وأنّ روما كانت تقدّم مبادراتٍ للوحدة وإعادة الوحدة مع «الإخوة المنفصِلين».

بالطبع، لم يكن المجمعُ الفاتيكانيُّ الثاني مجمعًا للمصالحة العلنيّة مع البروتستانتيّة. ومع ذلك، كانت هناك روحُ انفتاحٍ حقيقيّة فيه لم يسبقْ لها مثيلٌ في تاريخ الكنيسَةِ الكاثوليكيّة. كانت الأصواتُ صريحَةً في المجمع ضدّ روح الانتصار التي كان يشيرُ إليها خطّ كبريانوس القديم، وتمّ التركيزُ على وظيفةِ الكنيسة كخادم وليس كسيّدٍ على خدمتِها الراعويّة بدلًا من خدمتِها السياديَّة.

ونتجَ عن هذا الجوّ نقاشٌ جديدٌ حول مكانَةِ البروتستانت بالمقارنة مع الكنيسَةِ الكاثوليكيّة. ونشأ مفهومٌ جديد في كنيسة روما الكاثوليكيّة وهو فكرة «*votum ecclesiae*»، أي، «الرغبة في الانتماء إلى الكنيسَة».

تعودُ جذور «*votum ecclesiae*»، أي «الرغبة في الانتماء إلى الكنيسَة»، إلى أهمّيَّةِ المعموديّة في اللاهوت الكاثوليكيّ. عندما نفحص وجهة النظَر الكاثوليكيّة للأسرار المقدّسة، سنكتشِفُ أنّهم يعتقدون بأنّ المعموديّة تعمل «*ex opere operato*»، أي «من خلال عمل الأعمال»، مانحةً تلقائيًّا النعمَةَ المبرّرَة لأولئك الذين يتلقّونها. إنْ لم يكنِ الإنسانُ مُعمّدًا، فهو في وضعٍ خطير. لهذا السبب، حتى يومنِا هذا، يُسمحُ للممرّضات في غرَفِ الولادة بالمستشفيات بإجراء التعميد

الطارئ في حالةِ وفاة طفلٍ كاثوليكيّ، للتأكّد من أنّ هؤلاء الأطفال لم يموتوا بدون تلقّي المعموديّة. المعموديّة هي وسيلةٌ للتبرير.

ومع ذلك، أثارَ بعضُ علماءِ اللاهوت الكاثوليك سيناريو شخصٍ اعتنقَ الإيمان وصرّحَ بأنّه يريدُ الاتّحادَ مع كنيسة روما الكاثوليكيّة، لكنّه مات قبل أن يُعمّد. فهل يُدان هذا الشخص لأنّه لم يقبلِ المعموديّة وبالتالي لم يتبرَّر؟ عند كنيسة روما الكاثوليكيّة مخرجٌ لذلك يُعرفُ باسم «*votum baptismi*»، أي «الرغبَة في المعموديّة»، مفادُه أنّه إذا رغِبَ شخصٌ أن يعتمدَ ولكن ظروفُ العناية الإلهيّة منعَتْه من الحصول عليها، فإنّه يُعتبَرُ في نظر الكنيسة مُعمّدًا. لم يحصل على العماد من خلال طقسِ المعموديّة الفعليّ، لكنّه يتمتّعُ بالنعمَةِ الروحيّة لأنّه كان يتمتّع برغبَةٍ حقيقيّة وأصليّة في المعموديّة. لذلك، بناءً على هذه الفكرة، اقترح بعضُ علماء اللاهوت الكاثوليك أنّه بالإمكان اعتبارُ البروتستانت أعضاءَ في كنيسة روما الكاثوليكيّة الجامعة عن طريق «*votum ecclesiae*»، أي «الرغبة في الكنيسَة».

من المعروف عن اللاهوت الكاثوليكيّ أنّه يُميّزُ الأمورَ بدقّة، ولا يُستثنى من ذلك «*votum ecclesiae*». إنّ «*votum ecclesiae explicitum*»، هي رغبةٌ صريحة في الاتّحاد مع روما. تشملُ هذه الفئة الأشخاصَ الذين يكونون في ظروفٍ مشابهة لذلك الشخص الذي مات قبل المعموديّة. يتعلّق الأمر بالأشخاص الذين هم خارج روما، كشخصٍ بروتستانتيٍّ مثلًا، يعرف عن كنيسة روما الكاثوليكيّة، ويسمَعُ تعاليمَها ويؤمنُ بها، ويرغبُ في الانضمام إليها. يمرُّ بعمليّةِ التعليم المسيحيّ بكاملِها وهو في الواقع في طريقِه للانضمام إلى الكنيسة، ليدخلَ

الفلـكَ جسـديًّا وبشـكلٍ مرئـيّ، لكنّـه يمـوت في حادثِ سـير قبـل وصوله. كانـت لديـه رغبَـةٌ صريحَـة ومُعلنـة فـي الانضمام إلـى الكنيسـة، لكنّه في الواقـع لـم يُحقّـقْ رَغبتَـه هـذه. يُعتبَر مثلُ هذا الشـخصِ عضوًا في كنيسـة روما الكاثوليكيّـة الفئـة الأوسـع هـي «*votum ecclesiae implicitum*»، وهـي الرغبـة الضمنيَّـة فـي الانضمـام إلـى كنيسـة روما الكاثوليكيّـة. يوجـد فـي هـذه الفئـة شـخصٌ تـمَّ «غسـلُ دماغِـه» مـن قبَـل القساوسـة البروتسـتانت الذيـن يعِظـون ويعلّمون ضـدَّ روما، وقد اقتنَـعَ بالفعل بهذه الحجـج الخاطئـة وخُـدِعَ فـي قبـول وجهـاتِ النظَـر الهرطوقيَّـة. ولكن في قلبـه رغبَـةٌ حقيقيّـة فـي أن يكـون فـي الكنيسـة الحقيقيّـة. هـو فقـط لا يعـرفُ أيـن هـو موجـود. هـذا يُعيدُنـا إلى فكـرة «الجَهـل الـذي لا يُقهَر». إن كان يعـرف الحقيقـة فقـط، فلن يرفـضَ بعنادٍ الخضوعَ لها، بل سـيحرّكُ السـماءَ والأرض ليصبحَ عضـوًا فـي كنيسـة روما الكاثوليكيّـة. ولكـن، بمـا أنّـه لا زالَ فـي قلبـه رَغبَـة طفيفـة فـي أن يكـونَ مطيعًـا حقًّـا للـه وللمسـيح، فيُمكـن اعتبـارُه عضـوًا في كنيسـة روما الكاثوليكيّـة عن طريق «*votum ecclesiae implicitum*». ليسـت هنـاك حاجـة لرَغبَـةٍ صريحَـةٍ للانضمـام فعليًّـا إلـى الكنيسـة. إنّـه يحتـاج فقـط إلـى رغبَـةٍ داخليّـة فـي إرضـاءِ اللـه، والتـي تعنـي ضمنيًّـا الرغبـة فـي أن يكـون فـي الكنيسـة الحقيقيّـة، والتـي تعنـي ضمنيًّـا كنيسـة روما. من الواضـح أنّ هـذا مؤهَّلٌ واسـعٌ للغايـة، يختلـفُ اختلافًـا كبيـرًا عـن تشـبيهِ كبريانـوس للفُلـك.

تغيّـرَ قبـولُ روما لصيغَةِ كبريانوس بشـكلٍ جـذريّ، حيث تـمَّ حرمانُ كاهـنٍ مـن بوسـطن اسـمُه الأب ليونـارد فينـي، فـي عـام ١٩٥٣ لتعليمِـهِ وجهـة النظَـر المتشـدّدَة القائلـة بأنّـه لا يوجـد خـلاصٌ خارجَ كنيسـة روما

الكاثوليكيّـة. عـلاوة علـى ذلـك، كتـبَ البابـا بولـس السـادس، فـي مرسـوم ١٩٦٥، أنّ الكهنـة: «يجـب أن يعيشـوا كرُعـاةٍ صالحيـن يعرفـون خرافَهـم، وعليهـم أن يسـعَوا لقيـادة أولئـك الذيـن ليسـوا مـن هـذه الحظيـرة حتى يسـمعوا صوتَهـم أيضًـا ويُصبحَ هنـاك حظيـرَةٌ واحـدةٌ وراعٍ واحـد».[٤] مـا قصـده البابـا أنّ هنـاك خروفًـا حقيقيًّـا خـارج حظيـرة الخـراف، أي خـارج كنيسـة رومـا الكاثوليكيّـة. أخيـرًا، تحدّثـت رومـا أحيانًـا عـن «*vestigia ecclesiae*»، أي «آثـار الكنيسـة» التـي يمكـن العثـورُ عليهـا فـي رعايـا وكنائـسَ أخـرى. وفقًا لهـذا المفهوم، لا تزال هناك بقايا للكنيسـة الحقيقيّة وهـي ناشـطة فـي الكنائـس الأخـرى. علـى الرغـم من عـدم وجـود كنائسَ حقيقيّـةٍ أخـرى، فـإنّ كنيسـة رومـا الكاثوليكيّـة هـي فقط جسـدُ المسـيح السِـرِّي، ولكـن مـا زالَ هنـاكَ حَـقٌّ ونعمَـةٌ فـي الكنائـس الأخـرى، والناسُ يخلصـون هنـاك حقًّا.

## التأكيداتُ الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة

إذًا، ليـس هنـاك شـكٌّ فـي أنّـه فـي بعـض النواحي، يبـدو أنّ الكنيسـة الكاثوليكيَّـة قـد خفّفـت موقفَهـا بأنّهـا وحدَهـا الكنيسـة الحقيقيّـة. ومـع ذلـك، فـي أوقـاتٍ أخرى، يبـدو أنّها تُعيـدُ تأكيدَ هـذه الفكرة. فـي التعليم المسـيحيّ للكنيسـة الكاثوليكيّـة (١٩٩٥)، تَذْكُر روما بشـأنِ التأكيد القائل: «لا يوجـد خـلاصٌ خـارجَ الكنيسَـة» التالي:

> كيـف لنـا أن نفهـمَ هـذا التأكيـد، الـذي كثيـرًا مـا يـردّدُه آبـاءُ الكنيسَـة؟ مـع إعـادَةِ صياغـة هـذه العبـارة بشـكلٍ إيجابـيٍّ،

فهي تعني أنّ كلَّ خلاصٍ يأتي من المسيح الرأس من خلال الكنيسَة التي هي جسَدُه: «وبناءً على الكتاب المقدّس والتقليد، يعلّم المجمعُ أنّ الكنيسَةَ ضروريّة للخلاص: المسيح الوحيد هو الوسيطُ وطريقُ الخلاص. إنّه حاضرٌ في جسَدِه الذي هو الكنيسة. هو نفسُه أكّد صراحة على ضرورة الإيمان والمعموديّة، وبالتالي، أكّد في الوقتِ نفسِه على ضرورة الكنيسة التي يدخلُها الناس من خلال المعموديّة كما من خلال باب. ومن ثمّ لا يمكنُ أن يَخلُصَ الذين سيرفضون دخولَها أو البقاءَ فيها، مع العلم أنّ كنيسة روما الكاثوليكيّة تأسّست حسب الضرورة من قبَلِ الله من خلال المسيح. (المجمع الفاتيكاني الثاني، *Lumen Gentium*، ١٤). (القسم ٨٤٦)

لكن يتبعُ هذا التأكيدَ فورًا بندٌ تخفيفيّ:

لا يستهدفُ هذا التأكيدُ أولئك الذين، بدون خطأ من جانبهم، لا يعرفون المسيحَ وكنيسته: «أولئك الذين، بدون خطأ من جانبهم، لا يعرفون إنجيلَ المسيح أو كنيسته، لكنّهم مع ذلك يطلبون الله بقلبٍ صادق، ويحاولون في أفعالِهم أن يفعلوا مشيئتَه بدافع النعمةِ كما يعرفونها من خلال إملاءَاتِ ضمائرِهِم - هؤلاء أيضًا قد يحقّقون الخلاصَ الأبدي». (المجمع الفاتيكاني الثاني، *Lumen Gentium*، ١٦). (القسم ٨٤٧)

أخيرًا، في عام ٢٠٠٧، أصدرَتِ الكنيسَةُ الكاثوليكيّة، بموافقة البابا بنديكتوس السادس عشَر، وثيقةً بعنوان « الردود على بعض

الأسئلة المتعلّقة ببعض جوانبِ عقيدَةِ الكنيسة». جاءَ فيها: «وفقًا للعقيدَةِ الكاثوليكيّة، لا تتمتّعُ هذه الجماعات بالخلافة الرسوليّة في سِرِّ الكهنوت، وبالتالي، هي محرومَةٌ من عنصرٍ مكوِّنٍ للكنيسة. وهذه الجماعاتُ الكنسيّةُ التي لم تحافظ، على وجهِ التحديد، بسبب غيابِ الكهنوت المقدّس، لم تحافظ على الجَوهرِ الحقيقيّ والمتكامل للسِرِّ الإفخارستيّ، وفقًا للعقيدة الكاثوليكيّة، لا يُمكن أن تُدعى «كنائس» بالمعنى الحقيقيّ للكلمة».[٥] وقد أثارت هذه الوثيقةُ عاصفةً من الانتقادات، حيث بدا أنّها تعيدُ تأكيدَ صيغة كبريانوس القديمة القائلة بوجود كنيسَةٍ واحدةٍ حقيقيّة فقط.

بالمقارنة مع هذه التعاليم الكاثوليكيّة، لاحِظِ التوازُنَ والإنصافَ الموجود في إقرار إيمان وستمنستر:

> الكنيسَةُ الجامعةُ أو العامّة، التي هي غيرُ المنظورة، تتألّفُ من كلّ عدَدِ المختارين، الذين قد تمّ ضمُّهم، أو هم منضمّون، أو سيتمّ ضمُّهم إلى واحدٍ، تحت المسيح رأسِها؛ وهي العروسُ، الجسَد، مِلْءُ الذي يملأ الكلَّ في الكلّ. (٢٥. ١)
>
> إنّ الكنيسَةَ المنظورة، التي هي أيضًا جامعَةٌ أو عامَّةٌ في ظلِّ الإنجيل (لا تقتصر على أمّةٍ واحدة، كما كانَ قبلًا في ظلِّ الناموس)، تتألّف من جميعِ أولئكَ الذين في كلِّ العالم يعتنقون الديانةَ الحقيقيّة؛ ومن أولادهم: وهي ملكوتُ الربِّ يسوع المسيح، بيتُ وعائلةُ الله التي خارجًا عنها لا توجدُ إمكانيّةٌ عاديّة للخلاص. (٢٥. ٢)

لهـذه الكنيسَـةِ الجامعة المنظـورة قد أعطى المسـيحُ خدمَةَ الله، وأقوالَـه، وفرائِضَـه، لأجـل جَمـعِ وتكميـل القدّيسـين، فـي هـذه الحيـاة، إلـى نهاية العالم؛ أيضًا، بواسـطة حضـورِهِ وروحِهِ الخاصّ، بحسـب وعـدِه، يجعـل هذه الوسـائط فعّالةً لذلـك. (٢٥. ٣)

هـذه الكنيسَـةُ الجامعـة كانـت أحيانًـا منظـورَةً أكثـر، وأحيانًـا أقـلّ. والكنائـسُ المحليّـة، التـي هي أعضـاءُ فيها، هي أكثـرُ وأقلُّ نقـاوةً، وفقًـا لمـدى تعليـم الإنجيل وقبولـه، وممارسـةِ الفرائض، وتأديـةِ العبـادة العامّـة بأكثـر أو أقـلّ نقـاوَةً فيهـا. (٢٥. ٤)

إنّ أكثـرَ الكنائـسِ نقـاوَةً تحـت السـماء هـي عرضـة لـكلٍّ مِـنَ الخَلـطِ والخَطـأ؛ وبعضُهـا قـد فسُـدَ، حتى صـارت ليسـت كنائسَ المسـيح، بـل هـي مجامـعُ الشـيطان. ومـع ذلـك، سـتكون هنـاك دائمًـا كنيسـة علـى الأرض، لعبـادةِ اللـه وفقًـا لإرادتِـه. (٢٥. ٥)

أعتقـدُ أنّ رومـا بحاجـة إلـى توضيحِ موقفِهـا من هذه القضيّة بشـكلٍ نهائـيّ. مـن المُهـمّ جـدًّا بالنسـبةِ إلـى رومـا أن تفعـلَ هـذا لأنّهـا مؤسَّسـة كنسـيّة. إنْ لـم يكـنِ التبريـرُ بالإيمان أو الثّقةِ في المسـيح وحده، وإنْ كان يتمُّ في المقام الأوّل عن طريقِ الأسـرار، والأهمّ من ذلك، سِـرِّ المعموديّةِ وسِـرِّ التوبـة، اللذَيـن يحتاجـانِ إلـى كاهـنٍ للقيام بهمـا، عندئذٍ لا تسـتطيع الكنائـسُ البروتسـتانتيّة توفيـرَ الخـلاص. بالتالـي، لا بـدّ أن تكون الكنيسَـةُ الكاثوليكيّـة هـي الكنيسَـةَ الحقيقيّـة الوحيـدة. لكن إذا كان البروتسـتانت مُحقّيـن وصائبيـن فـي عقيدتِهـم عـن التبريـر، فـإنّ رومـا ليسـت كنيسَـةً حقيقيّـةً علـى الإطلاق.

## الفصل ٤

# الأسرارُ المقدّسة

في السنواتِ الأخيرة، في أجزاءَ معيّنةٍ من الكنيسة البروتستانتيّة، ظهر اهتمامٌ متجدّدٌ بالليتورجيا وطبيعة الأسرار الدينيّة. يأتي هذا الاهتمام المتزايد بالأسرار المقدّسة في وقتٍ يزدادُ فيه تكريسُ العالم للعلمانيّة. يتمّ استعادَةُ المقدّسات والأسرار في بعض الدوائر كرَدٍّ على هذا الانجراف الأعمَق نحو العلمانيّة.

ومع ذلك، لطالما كان لدى كنيسة روما الكاثوليكيّة نظرَةٌ قويّةٌ إلى خصائصِ الحياة السِريَّةِ والغامضة. واحدٌ من أسباب وجودِ أسرارٍ سَبعَة للكنيسة الكاثوليكيّة، بدلًا من اثنين كما هو الحال في معظم الكنائس البروتستانتيّة، هو وجودُ مقاربةٍ أساسيّة سِريَّةٍ للإنسان كامنة وراء لاهوتِ روما. إذًا، هذا اختلافٌ وخلافٌ مهمّ بين البروتستانت والكاثوليك. لا بدّ لي أن أشيرَ إلى أنّه ليس من السهل مقارنة الموقف المتجانس الكاثوليكيّ بالمواقفِ البروتستانتيّة المتباينة بشدّة. لا تتّفقُ الكنائسُ البروتستانتيّة دائمًا على طبيعَةِ ووظيفةِ وأهميّة الأسرار

المختلفة. في الواقع، خلال فترة الإصلاح، وجدت الكنائسُ المُصلَحة أنّه من المستحيل تحقيقُ الوحدة مع الكنائس اللوثريَّة بسبب الاختلافات حول فهمِهم للعشاءِ الربّاني. الاختلافاتُ البروتستانتيّة حول هذه الأسرار ليس بالأمر الجديد.

ترتبطُ الاختلافاتُ الأساسيّة بعدَدِ الأسرار، وطبيعةِ الأسرار، وفعاليّةِ الأسرار (أي فيما يختصّ بما تفعلُه هذه الأسرار وما تُحقّقُه ووظائفها وما إلى ذلك)، ودَورِ الأسرار. قد تكون هذه النقطة الرابعة هي الأكثر أهميَّة من بينِها جميعًا، لأنّ كنيسة روما الكاثوليكيّة تعتقدُ أنّ الأسرار المقدّسة تفعلُ ما صُمّمَتْ للقيام به «*ex opere operato*» أي «من خلال عمَلِ الأعمال». بعبارَةٍ أخرى، يؤدّي أداءُ الأسرار المقدّسة ببساطةٍ إلى تشغيلِها وتنفيذِ ما صُمّمَتْ للقيام به. وفقًا لهذا الرأي، تنقلُ الأسرار النعمَةَ تلقائيًّا إلى المتلقّي. لذلك، سأستعرض في هذا الفصل بإيجازٍ الطقوسَ السبعةَ التي تُعتبَر أسرارًا في كنيسة روما الكاثوليكيّة، وأتطرّق إلى كيفيّةِ فهمِها وما يُعتقد أنّها تقوم بتحقيقِه. سوف أختمُ بإلقاء نظرةٍ سريعةٍ على الموقفِ البروتستانتيّ.

## أسرارُ الكنيسَةِ الكاثوليكيّة المقدّسة

تشتقُّ الكلمة الإنجليزيَّة «*sacrament*» من الكلمة اللاتينيَّة «*sacramentum*» والتي تعادل الكلمة اليونانيّة «*mysterion*» أي «سِرّ» باللغة العرَبيّة. بالطبع، نحن نحصل على كلمة «*mystery*» باللغة الإنجليزيَّة من الكلمة اليونانيّة «*mysterion*»، أي «لغز» باللغة العرَبيّة. الأمرُ الغريب هو أنّ الكلمة اليونانيّة «*mysterion*» في العهدِ الجديد

لا تُشيرُ البتّة إلى ما نسمّيه اليوم بالأسرار المقدّسة، إنّما لها معنًى مختلفٌ تمامًا. لكن في أحاديثِنا المعاصرة، نستخدم كلمة «غامض» بمعنى أوسع للإشارة إلى البُعد الخفيّ والصوفيّ للأسرار. لهذا السبب، تُشيرُ الكنيسةُ الكاثوليكيّة إلى الأسرار على أنّها «أسرارٌ مُقدّسة».

تاريخيًّا، حدّدَتِ الكنيسَةُ الكاثوليكيّة سبعَةَ طقوسٍ كنسيّة على أنّها أسرارٌ مقدّسة. حدّدت روما العدَدَ سبعة للأسرار في مجمع ليون الثاني (١٢٧٤)، في مجمع فلورنسا (١٤٣١-٤٥)، وفي مجمع ترنت (١٥٤٥-٦٣). إذًا، حدّدت كنيسة روما الكاثوليكيّة في وقتٍ مبكّر من القرن الثالث عشر عدَدَ الأسرار المقدّسة في سبعَة.

كان يُنظر إلى المنطقِ الكامن وراءَ مُختلفِ الأسرار المقدّسة واختيار سبعَةٍ منها على أنّه مماثل لمفهوم العصور الوسطى لمراحِلِ الحياةِ السبع. وهكذا، هناك نعمَةٌ سرّيَّة متوفّرة للنّاس في كلّ مرحلةٍ من مراحل حياتِهم. سرّ المرحلة الأولى من الحياة هو سرُّ التعميد. سِرُّ التثبيت أو الميرون هو عندما ينتقل الشخص من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب الباكر. وسرُّ الزَّواج هو عندما يتزوّجُ الإنسان، وسِرُّ مسحَةِ المرضى هي عند نهايةِ الحياة. بالإضافة إلى ذلك، يوجد ثلاثُ نِعَمٍ خاصّة تُقدِّمُ المساعدَةَ الإلهيّة ليعيشَ الإنسان في العالم. سرُّ الكهنوت هو لأولئك الذين يدخلون في خدمةٍ خاصّة للكنيسة، وهم أشخاصٌ يستخدمُهم الله كأدواتٍ لمساعدة الآخرين. ثمّ هنالك نوعان من الأسرار اللذان يُعتقَدُ أنّهما يُقدّمان أكبرَ قدرٍ من المساعدة في هذا العالم. السِرُّ الأوّل هو سِرُّ التوبة، وهو يساعدُ الحياة كلّها بعد المعموديّة. والآخرُ هو سِرُّ العشاءِ الربّانيّ، والذي يُنظرُ إليه على أنّه

سِرٌّ يعلو فوقَ كلّ أسرار الكنيسَةِ الكاثوليكيّة. تحدّث البعض عن هذه الأسرار السبعَة من حيث الأبعادِ الأربعَة للأرض والأبعاد الثلاثة للسَّماء، لكن هذه الفكرة ليست جزءًا من التعليم الرسميّ للكنيسة.

## سِرُّ التعميد

سِرُّ التعميد هو السرُّ المقدّسُ الأوَّل الذي يُمنَحُ للإنسان في كنيسة روما الكاثوليكيّة. كما ذكرتُ أعلاه، ترى روما أنّ المعموديّة تنقلُ نعمَةَ «*ex opere operato*»، والنعمة التي تنقلها المعموديّة هي نعمَةُ التجديد. هذا يعني أنّه عندما يعتمِدُ الإنسان، فإنّه يولد ثانيةً من الروح ويتغيّرُ مصيرُ روحِه، إذ يُصبحُ مُبرّرًا في نظَرِ الله. كما أشَرتُ سابقًا، إنَّ البِرَّ «يُغرَس» أو «يُسكَب» في روحِه. إذًا، تؤمِنُ روما وتعلّم أنّ الشرطَ الأساسيَّ للتبرير، والسببَ الأداة، هو المعموديّة. في المقابل، في اللاهوت البروتستانتيّ، السببُ الأداة هو الإيمان، والله «ينسِبُ» البرَّ إلى المؤمن.

ولكن، على الرغم من أنّ المعموديّة تُطهّرُ الإنسان من قوّةِ وذنب الخطيئة الأصليّة وتغرسُ فيه نعمَةَ التبرير، إلّا أنّها لا تجعلُه مُقدّسًا بالتمام والكمال، إذ لا زالَ في الإنسان شيءٌ باقٍ من طبيعةِ الخطيئة. في المصطلحاتِ الكاثوليكيّة، تترُكُ المعموديّةُ الإنسانَ في حالةٍ من الشهوة، أي عنده ميلٌ أو نزعة نحو الخطيئة، وهو ما يفسّرُ حقيقة أنّ المعمَّدين كثيرًا ما يقعون في الخطيئة. ومع ذلك، فإنّ الشهوة في حَدِّ ذاتِها ليست خطيئة. هذه نقطة خلافٍ بالنسبةِ إلى البروتستانت، الذين يعتبرون أيَّ مَيلٍ للخطيئة بأنّه خطيئة بحَدِّ ذاته.

بالنسبةِ إلى روما، إنّ الخطايا التي تُرتكب بعد المعموديّة، وبشكلٍ خاصّ الخطايا المميتة، تدمّرُ نعمة التعميد المبرِّرَة، ممّا يجعل من الضروريّ أن يحتاجَ الإنسانُ إلى تبريرٍ مرّةً أخرى. يُطلَق على الخطايا المميتة صفة «مميتة» لأنّها تمتلك القوّةَ والقدرَةَ على تدمير نعمَةِ التبرير التي تأتي في المعموديّة. سِرُّ التوبة، الذي سوفَ نتكلّمُ عنه بعد قليل، مُصَمَّمٌ لحَلِّ هذه المشكلة.

## سِرُّ التَثبيت

بعد المعموديّة، يتلقّى الكاثوليكيُّ سِرَّ التثبيت. لا تعتبرُ روما سِرَّ التثبيت بمثابة تسريبٍ جديدٍ للنّعمَةِ بالإضافة إلى المعموديّة، ولكنّها تعتبرُه زيادَةً في النعمة عند انتقالِ الإنسان إلى مرحلةِ النضج. بعبارة أخرى، يقوّي سِرُّ التَثبيت ويؤسّسُ وينقل النعمة المعطاة في المعموديّة نحو مرحلةِ النضج. اسمحوا لي أن أستخدمَ هنا تشبيهًا فظًّا. إنّه بمثابة «جُرعَةٍ معزّزَة».

يتميّزُ سِرُّ التثبيت عن سِرِّ المعموديّة كطقسٍ منفصل، لكنّه يفترضُ أخذَ الإنسان إلى سِرِّ المعموديّةِ مُسبقًا. لا يمكن أن يُعطى سرُّ التثبيت بمعزلٍ عن المعموديّة. في الواقع، تشيرُ كلمة التثبيت نفسُها إلى أنّ ما تمّ القيامُ به في وقتٍ سابق يتمُّ تثبيتُه الآن.

في معظمِ الحالات، يُمنَح سرُّ التثبيت عندما يبلغ الطفل «سنَّ التمييز»، وهو العمر الذي يمكنُه فيه أن يفهمَ الطقسَ (يُمنَح في العادة في سِنِّ السابعة تقريبًا). يمنَحُ الأسقفُ هذا السِرَّ عادة ويتضمّنُ

المَسحَ بالزَّيت ووَضعِ اليدَيْن.

## سِرُّ الزّواج

إنّ سِرَّ الزَّواج ينطوي على غرسِ النعمة، مثل المعموديّة. يمنَحُ الله نعمة الزَّواج الخاصّة لتقويةِ اتّحاد الرجُل والمرأة. وبالتالي، فإنّ الزفاف ليس مجرّدَ طقسٍ خارجيٍّ يتضمّن وعودًا وعقوباتٍ ومراسيم رسميّة، ولكن يتمُّ منحُ نعمَةٍ خاصّةٍ للزَّوجَيْن لتمكينِهما من تحقيق اتّحادٍ روحي حقيقيّ.

## سِرُّ مسحَةِ المرضى

إنّ سِرَّ مسحَةِ المرضى مبنيٌّ على ما ورد في سِفر يعقوب: «أَمَرِيضٌ أَحَدٌ بَيْنَكُمْ؟ فَلْيَدْعُ شُيُوخَ ٱلْكَنِيسَةِ فَيُصَلُّوا عَلَيْهِ وَيَدْهُنُوهُ بِزَيْتٍ بِٱسْمِ ٱلرَّبِّ، وَصَلَاةُ ٱلْإِيمَانِ تَشْفِي ٱلْمَرِيضَ، وَٱلرَّبُّ يُقِيمُهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ خَطِيَّةً تُغْفَرُ لَهُ» (٥: ١٤-١٥). في الأصل، كانت مسحَةُ المرضى بمثابة طقسٍ علاجيٍّ، وليست طقسًا أخيرًا، وقد أعادت الكنيسَةُ الكاثوليكيّة مؤخّرًا التأكيدَ على أنّها هبةُ نعمَةٍ يُمكن استخدامُها في أيّ وقت يكون فيه الشخص مريضًا بشكل خطير، وليس بهدف إعدادِه فقط من أجل الموت، ولكن على أمَلِ منحِهِ الشفاء. ومع ذلك، فإنّ الاستخدام الأساسيّ لهذا السرّ هو كمسحَةٍ أخيرَةٍ للنّعمة لتقويَةِ التوبة، خوفًا أن يموت الإنسانُ بخطيئةٍ مميتةٍ ارتكبَها في حياتِه فيذهب إلى الجحيم، لأنّ الخطيئة المميتة تقتلُ نعمَةَ التبرير.

تُعطى مسحَةُ المرضى للأشخاص الذين يُعتقد أنّ حياتَهم في خطرٍ

بسببِ المرض أو الشيخوخة. يمارس الكاهنُ هذا السِرَّ، فيضَعَ الزَّيتَ الذي قدّسَه وبارَكَه الأسقفُ على الجبهة (عادة على شكل صليب) وعلى اليدَيْن بينما يُصلّي من أجله.

## سِرُّ الكهنوت

سِرُّ الكهنوت هو رسامَةُ كاهنٍ أو أسقفٍ أو شمّاس. كما يُعطي هذا السِرُّ غرسَ النعمة، الذي يمنَحُ قوًى خاصّة لمن يتلقّاها. السلطتان الخاصّتان الممنوحتان للكاهن في الكهنوت هما سلطةُ الحَلِّ من الخطايا وسلطةُ التقديس. الحَلُّ من الخطايا هو القوّةُ لمغفرَةِ الخطايا كجزءٍ من سِرِّ التوبة، ممّا يسمحُ للإنسان أن يتلقّى الأسرار بدون خطيئة. التقديس هو الفعل الذي يتمُّ به تكريسُ وتقديسُ الخبزِ والخَمرِ المستخدمَين في العشاء الربّانيّ فيَحدُثَ تحوُّلُهُما، وفقًا للاعتقاد الكاثوليكيّ، إلى جسَدِ المسيحِ ودَمِه. يقوم الكاهنُ بعمل التقديس من خلال النطق بكلمات التقديس.

عندما رُسمَ مارتن لوثر كاهنًا وطُلبَ منه أداءَ مهامّه في قدّاسِه الأوّل، تجمَّدَ خوفًا ولم يتمكّن من المتابعة في وقت الليتورجيا لتقديس الخبز والخمر. كان مرتعبًا ومنذهلًا من ضخامَةِ السلطان الذي أُعطي، والقدرة على النطق بالكلمات التي من خلالها تتحوّلُ العناصِرُ الطبيعيّةُ للخُبز والخَمر إلى جسَدِ ودَمِ المسيح.

إنّ السِرَّين المقدَّسَين الأكثر أهمِيَّةً في كنيسة روما الكاثوليكيّة والأكثر إثارَةً للانقسام من حيث علاقة روما بالبروتستانتيّة هما سِرُّ

التَوبـة وسِـرُّ العشـاء الربّانـي، أو سـرّ الإفخارسـتيّا. يعتقدُ معظـمُ الناس أنّ الاختلاف الكبير بين كنيسـة روما الكاثوليكيّة والكنائس البروتسـتانتيّة هو حقيقـة أنّ روما تنـادي بسـبعَةِ أسـرارٍ مقدّسـة، بينما ينادي البروتسـتانت باثنَيـن فقـط. لكنّ الاختـلافَ الحقيقيَّ يرتكزُ في هذين السِـرَّين والطريقة التـي يُفهمـان بهـا. لذلـك، أودّ أن أعطـيَ اهتمامًـا أكبـر لسِـرِّ التَوبـة وسِـرِّ العشـاءِ الربّانـي أكثـر ممّـا أعطيتُ للأسـرار الخمسَـةِ الأخـرى للكاثوليك.

## سِرُّ التوبة

سِـرُّ التوبـة هو أمرٌ أساسـيٌّ في الانقسـام الحاصـل بين البروتسـتانتيّة والكاثوليكيَّـة لأنّـه يمَـسُّ المسـألتَيْن المِحوريّتَيْـن للنّقاش بيـن المُصلحين وروما - قضيّـةِ التبريـر علـى وجـه التحديـد، والمسـألةِ الأوسـع المتمثّلـة فـي الاسـتحقاقِ والنعمـة. هنا تكمُـنُ المشـكلة الأعظم. هذه هـي القضايا الحقيقيّـة التـي تفصِلُ روما عن البروتسـتانت.

كمـا ذكـرتُ فـي الفصـل الثانـي، عندمـا رَدَّ مارتـن لوثـر علـى خُطبـةِ ديسـيديريوس إيراسـموس فـي القـرن السـادس عشَـر، شـكرَ إيراسـموس علـى عـدَمِ إزعاجِـهِ بأمـورٍ تافهـة. كان سـعيدًا لأنّ إيراسـموس لـم يركّـزْ علـى أسـئلةٍ مثـل سـلطةِ البابـا أو وظيفـة مريـم أو الطقـوس الليتورجيّـة للكنيسـة أو الآثـار المقدّسـة. هـذه الأمور مهمّـة؛ في الحقيقـة نحن نتكلّم عـن بعضِهـا فـي هـذا الكتـاب. ومـع ذلـك، أدركَ لوثـر أنّ إيراسـموس كان يتعامـل مـع عقيـدَةِ التبريـر بالإيمـان وحـده، والتـي كانت، فـي رأي لوثر، هـي الأسـاسَ الذي تقومُ عليه الكنيسَـةُ أو تسـقط. يمكن الجـدالُ في أمورٍ أخـرى، لكـن مسـألة كيفيّـة تبريـر الإنسـان لهـا عواقـبُ أبديّة.

أسّست الكنيسَةُ سِرَّ التوبة لمساعدَةِ الأشخاص الذين ارتكبوا الخطيئة المميتة. كما ذكرتُ في المقدّمة، يُعتبَر هذا السرّ ركيزَةَ تبريرٍ ثانية لمن تحطّمت بهم سفينة أرواحِهم![1] يُحطّمُ الإنسانُ سفينةَ روحِه عند ارتكابه خطيئةً مميتة وتُحطّمُ نعمَةُ التَبرير. ومع ذلك، يمكن إعادة التبرير إلى الإنسان من خلال سِرِّ التوبة.

شَكلُ سِرِّ التوبة هو الحلّ، حيث يقول الكاهن: «*Te absolvo*» أي «أحلّكَ» أو «أعفيك». تُعتبَر هذه الممارسة بغيضَةً جدًّا عند البروتستانت. إذا طلبتَ من مجموعةٍ من البروتستانت تحديدَ خلافاتِهم الرئيسيّة مع كنيسة روما الكاثوليكيّة، فمن شبه المؤكّد أنّك ستسمع أحدَهم يقول لك: «لا داعي أن أعترفَ بخطاياي للكاهن؛ يمكنُني أن أصلّيَ بنفسي». يميلُ البروتستانت إلى إظهار الغضب الشديد بشأن هذا الاعتراف المطلوب. وإن تحقّقتَ أكثر بالموضوع، فمن المحتمل أن يسألَ أحدُهم: «من يعتقد الكاهنُ نفسَه ليقول «*Te absolvo*»؟» يُصرّ البروتستانت على أنّ المسيحَ هو من يمنَحُ الغفران، ولا يأتي الغفرانُ من مجرّد إنسان، حتى لو كان كاهنًا. لكنّ المسألة القائمة بين البروتستانتيّة والكاثوليكيّة ليست مسألة اعترافٍ أو حَلٍّ. في الواقع، تتضمّنُ العَديدُ من خدماتِ الكنيسة البروتستانتيّة اعترافًا جماعيًّا بالخطيئة يتبعُه ضمانٌ بالغفران، حيث يشارك الخادم وعدًا كتابيًّا، كالوعد الموجود في ١ يوحنّا ١: ٩: «إنِ اعترفْنا بخطايانا، فهو أمينٌ وعادلٌ حتّى يغفرَ لنا خطايانا ويطهّرَنا من كلّ إثم.» هذه هي الحلّة. أيضًا، كانت روما مُخلِصةً للإشارة إلى أنّه عندما يقولُ الكاهن «*Te absolvo*»، فإنّه لا يُفترَض أن يقولَ إنّ لديه السلطة أو القوّة في نفسِه

أن يحُلَّ أيَّ شخص، لكنّه يتحدّث باسم يسوع المسيح وباسم الكنيسة التي أعطاها الربُّ السلطانَ أن تربطَ وتحُلّ (متى ١٦: ١٩؛ ١٨: ١٨). لذلك، لا يوجد جدلٌ كبيرٌ بين البروتستانت والكاثوليك حول فكرة الاعتراف بالخطايا.

لسِرِّ التوبةِ ثلاثة أبعاد: الندَم والاعترافُ والكفّارة (أو أعمالُ الندامَةِ). الندَم يعني الابتعادَ عن الخطيئة، وهو نابع من إحساسٍ حقيقيّ بالإساءَة إلى الله، وانكسارِ القلب، وليس مجرّدَ خوفٍ من العقاب، وهو ما نسمّيه بالاستنزاف. صلاةُ فِعلِ الندامة الكاثوليكيّة هي كما يلي: «يا إلهي، أنا نادمٌ من كلّ قلبي لأنّني أخطأتُ إليك، وأبغضُ كلّ خطاياي لأنّي أخشى أن أخسرَ السماءَ وعذاب الجحيم؛ وبالأكثر أنا نادمٌ، لأنّها تُهينُكَ، يا إلهي، أنتَ إلهُ كلّ خير وتستحقّ كلَّ حبّي. أنا مُصمّم بحزم، بمساعدة نعمتِكَ، على الاعتراف بخطاياي والتكفير عنها، وتغيير حياتي. آمين». أجزاء كثيرة من هذه الصلاة، خاصّة الأجزاء المتعلّقة بالخوف من فقدان السماء وعذاب الجحيم، هي استنزاف. ولكن عندما يعبّرُ الخاطئ عن حُزنِهِ لأنّه أساءَ إلى الله، فهذا هو الندَم.

الاعترافُ هو البُعد الثاني، وهو بالطبع، فعلُ الاعتراف بالخطايا. ليس لدى البروتستانت أيّ مشكلة مع الندَم الحقيقيّ والاعتراف. المسألة تتعلّق بالبُعد الثالث في سِرِّ التوبة، أي التكفير عن الذنب. تعلّمُ كنيسة روما الكاثوليكيّة أنّه لكي يكتملَ السرّ، من الضروريّ أن يقوم المؤمنُ التائب «بأعمالِ الرِضى» التي تُرضي متطلّبات عدالةِ الله. لذلك، فإنّ الخاطئَ لا يفلتُ عندما يعترف بخطاياه، بل ما زال يتعيّنُ عليه القيام بأعمال الرضى. قد تكون هذه الأعمالُ صغيرة جدًّا. قد

يُطلب من الخاطئ أن يُردِّدِ «السلام عليكِ يا مريم» خمسَ مرّات، أو «أبانا الذي في السماوات» ثلاثَ مرّات («السلام عليكِ يا مريم» هي صلاة كاثوليكيّة لطلب شفاعةِ مريم العذراء؛ و«أبانا الذي في السماوات» هي الصلاة الربّانيّة). ولكن، إذا كانت خطاياه من الكبائر، فقد يُطلبُ منه القيام بزيارَةِ مقاماتٍ دينيّة. ويُعتبَرُ التَصدُّقُ واحدًا من الطرُقِ المفضّلة للقيام بأعمالِ الرضى في الكنيسَةِ على مَرِّ التاريخ.

كما أشرتُ سابقًا، تعلّمُ روما أنّ أعمالَ الرضى تُعطي الخاطئَ التائب جدارة مُكتسبة. هذا النوع من الجدارة يختلف عن الجدارة المستحقّة. فالجدارَةُ المُستحقّة جديرة بالتقدير لدرجة أنّ على الله أن يكافئَها؛ أمّا الجدارة المُكتسبة فمن المناسب أو الملائم أن يكافِئَها الله. ومع ذلك، إنّها جدارة حقيقيّة يستحقّها الإنسان، وبدونها، لا يُمكن للخاطئ التائب أن يتبرّر، بغضّ النظر عن مدى إيمانِه وثقتِه بكفّارة يسوع المسيح. لذلك، يجب على الإنسان التائب أن يقومَ بأعمالِ رضًى من أجل الحصول على الجدارة.

نما النقاشُ الإصلاحيُّ حول التبرير من ممارسةٍ كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بسِرِّ التوبة، وتحديدًا بأعمال الرضى والصدقات. في كلّ مرّة تقريبًا يحدثُ فيها جدلٌ لاهوتيٌّ كبير في الكنيسة، يبدأ الجدَلُ كنقاشٍ حول بعض الممارسات في الكنيسة. وبالعادة، يفسِحُ الجدلُ حول الممارسة نفسِها في المجال للنّقاش حول المفاعيل اللاهوتيّة لهذه الممارسة. في حالة الإصلاح، كانت تلك الممارسةُ هي بَيعَ صكوكِ الغفران.

ما هو الغفران؟ في الأساس، الغفرانُ هو نَقلُ الجدارة. من أجل الحصولِ على السماء، يجب أن يتمتّعَ الشخصُ بجدارَةٍ كافية. إنْ مات شخصٌ ما يفتقِرُ إلى الجدارة الكافية للذّهاب مباشرة إلى السماء، فإنّه يذهب إلى المَطهر، مكانِ التطهير. المَطهرُ ليس جهنّم. إنّه المكان الذي يتلقّى فيه الإنسانُ تأديبًا مُحبًّا ومقدِّسًا. بهذا التأديب، يُجعلُ الإنسانُ بارًّا بما يكفي ليدخلَ السماء. بعبارة أخرى، إنّه يجمع ما يكفي من الجدارة للدّخول إلى السماء. قد يقضي الإنسانُ خمسَ دقائق في المَطهر أو آلافَ السنين، وذلك يعتمِدُ على ما ينقصُهُ من استحقاقٍ وهو داخلٌ إلى المَطهر.

ولكنَّ الكنيسَةَ الكاثوليكيّة وصلت إلى قناعةٍ بأنّ لديها القدرة على إعطاء الجدارة للذين يفتقرون إليها، من أجل تقصير وقتِهم في المَطهر. من أين حصلت الكنيسَةُ على هذا الجدارة؟ يُقال إنّها تأتي من القيامِ بأعمالٍ أكثر ممّا يتطلّبُه الواجب، وهي أعمالٌ أكثرُ جدارَةً ممّا يطلبُه الله، مثل الموتِ كشَهيدٍ أو حياة التضحيَة. يقوم القدّيسون بهذه الأعمال، وتشكّلُ هذه الأفعالُ الجديرة الزَّائدة كنزًا للجدارَةِ يمكن للكنيسة الاستفادَةُ منها لمَنحِ الغفران لشَخصٍ مُحتاجٍ في المَطهر.

أعتقدُ أنّه لا يوجد مفهومٌ داخل الكنيسة الكاثوليكيَّة يُبغضُه البروتستانت أكثر من مفهوم خزينة الجدارة. الانسانُ الذي يؤمن بالتبرير بالإيمان وحده سيبكي عند سماعِهِ هذه الفكرة. هذا لأنّ البروتستانت يؤمنون أيضًا بخزينة الجدارة، وهي خزينة أبديّة لا تنضب، لكنّنا نؤمن أنّ الخزينة مليئةٌ بجدارَةِ ابنِ الله وحده. المسألة في الجدل المتعلّق بالغفران هي كفايةُ المسيح وحده لفداءِ الإنسان.

بحسب الكنيسَةِ البروتستانتيّة، يحدُثُ التبريرُ على أساس استحقاقِ المسيحِ المنسوبِ لشعبه. أمّا بالنسبةِ إلى الكنيسَةِ الكاثوليكيّة، فإنّ خلاصَنا لا يكتمِلُ حتى نحصل على جدارَةٍ كافيةٍ خاصّة بنا.

كما ذكرْتُ أعلاه، كانت ممارسةُ بيع صكوكِ الغفران عاملًا رئيسيًّا مساهمًا في الإصلاح. بدأت الكنيسَةُ الكاثوليكيّة في أوائل القرن السادس عشر في وضع خُططٍ لإعادَةِ بناءِ كاتدرائيّةِ القدّيس بطرس في روما. وفي عام ١٥١٧، قدّم البابا ليو العاشر غفرانًا لأولئك الذين قدّموا الصدقات والتبرّعات لمشروع بناء الكاتدرائيّة. أوضحَتِ الكنيسَةُ أنّه لا ينبغي بيعُ صكوك الغفران كما لو كانت الكنيسة تجري حملة تمويل. اعتقدت الكنيسة أنّها كانت تقدّمُ للمؤمنين شكلًا بديلًا من الصدقات كجزْءٍ من أعمال الجدارة الخاصّة بهم. لذلك، لم يكن يُسمَحُ لأحَدٍ أن يقدّمَ الصدقات لبناءِ كاتدرائيّةِ القدّيس بطرس إلا بقلبٍ منكسِرٍ ومنسحِقٍ على خطاياه. بعبارَةٍ أخرى، يجب أن يكون إعطاءُ هذه الصدقات مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بسِرّ التوبة، حتى لأولئك الذين يُقدّمون الصدقات للحصول على غفرانٍ خاصّ.

ومع ذلك، بدأ الواعظُ الألمانيّ الدومينيكيّ، يوهان تيتزل، في بيع صكوكِ الغفران من دون أن يطلبَ من الناس ممارسة سِرِّ التوبة. من الواضح أنّه كان مذنبًا بتشويهِ نظام الغفران الكاثوليكيّ، وما زالتِ الكنيسَةُ الكاثوليكيّة تعترف بذلك حتى يومنا هذا. لكن لوثر تحدّى تيتزل بشأن بيع صكوك الغفران، ولفتَ الانتباه إلى ذلك. أثارَ احتجاجُه هذا تدقيقًا شاملًا لنِظامِ الاستحقاق (الجدارَة) في ضَوْءِ عقيدة التبرير بالإيمان.

## سِرُّ العشاءِ الربّاني (أو سِرّ الإفخارستيّا)

في سِرِّ العشاءِ الربّاني، وبحسب الكنيسَةِ الكاثوليكيّة، تحدُثُ معجزَةُ القدّاس، والتي تُعرَفُ باللغة الإنجليزيّة بـ «*transubstantiation*»، وبالعرَبيّة: الاستحالة. الأحرف الأولى «*trans*» تعني «عبر»، و«*substantiation*» مُشتقّة من كلمة «*substance*» أي «الجوهر». وبالتالي، تتضمّنُ الاستحالةُ انتقالَ الجوهر أو عبورَه.

مفهومُ الجوهر، كما تُعرّفُه الكنيسَةُ الكاثوليكيّة، مستوحًى من المصطلحاتِ الفلسفيّةِ للفيلسوفِ اليونانيِّ القديم أرسطو، الذي ميّزَ بين الجوهر والصورة. المادّة هي جوهرُ الشيْء، والصورَةُ هي الصفاتُ الخارجيّة التي يُمكنُ إدراكُها لهذا الشيء، أي مظهرُه الخارجيّ. إذا نظرتُ إلى كرسيٍّ، لا أستطيعُ أن أرى جوهرَها، أي الذرّات أو الجُزئيّات، لأنّها أصغرُ من أن أراها بالعين المجرّدة. لكن يمكنني أن أرى اللونَ والشكلَ والملمسَ والصفات الخارجيّة الأخرى للكرسيّ.

في الإفخارستيّا، يوجدُ الخبزُ والخَمر. إنَّ جوهرَ الخُبز والخَمر وشكل الخبز والنبيذ كلّها موجودة. وفقًا للكنيسة الكاثوليكيّة، في معجزة القدّاس، في صلاةِ التكريس، يتحوّل جوهرُ العناصرِ بشكلٍ خارقٍ للطّبيعة إلى جوهر جسَدِ المسيح ودمِه، ولكن تبقى صورة الخبز والخمر كما هي. ما زالَ الخبزُ يشبهُ الخبزَ، ومذاقُه مذاقَ الخبزِ، وملمسُه ملمسَ الخبزِ، ورائحتُه رائحةَ الخبزِ. إنْ أسقطَه الكاهنُ على الأرض، فسيُصدر صوتًا مثل صوتِ قطعة خبزٍ ترتطم بالأرض. لكنّه ليس خبزًا. لقد تحوّلَ جوهرُ المادّة بطريقةٍ خارقة للطّبيعة إلى جسَدِ،

إلـى لحـم، يسـوع المسـيح. وبالمثـل، تحـوّل جوهـرُ الخمر إلى جوهـر دَمِ المسيح.

لمـاذا ينحنـي أو يركعُ أتباعُ كنيسـة روما الكاثوليكيّـة عندما يدخلون الكنيسـة قبـل الجلـوس؟ لمـاذا ينحنـي الكاهـنُ كثيـرًا عندما يتحـرّك حول المذبـح؟ يوجـد علـى مذبَحِ كلّ كنيسَـةٍ كاثوليكيّة إناءً مقدّسًـا يُسـمّى بيتُ القربـان. يكـون فـي بعـض الأحيـان صندوقًـا مربّعًـا بسـيطًا، ولكنّـه يكـون فـي أحيـانٍ أخـرى مُزخرفًـا. هـذه هي النقطـة الجَوهريّـة عنـد كلّ انحناء. ينحنـي النـاسُ تبجيـلًا واحترامًا لأنّهم موجودون في محضـرٍ مقدّس. لكنّهم حيـن يفعلـون هـذا، هـم لا يقدّمـون احترامَهـم وتقديرَهم للصّنـدوق، بل لمـا هـو مـا داخـل الصنـدوق. يحتـوي الصنـدوقُ علـى القربـان المقـدّس، أي الخبـزِ الـذي تحوّلَ إلى جسَـدِ المسـيح. أتباعُ كنيسـة روما الكاثوليكيّة مقتنعـون بـأنّ الجسـد الحقيقـيّ للمسـيح موجودٌ فـي هذا الصنـدوق. إنّه موجـودٌ بشـكلٍ جوهـريٍّ ومادّيّ.

يوصَـف الاحتفـالُ بالقـدّاس فـي التعليـم المَسـيحيِّ للكنيسَـةِ الكاثوليكيّـة بــ «الذَّبيحَـةِ المُقدّسـة». وقـد دفـعَ ذلـك البروتسـتانت إلـى الـردِّ بأنّـه إنْ كان الخبزُ هو جسَـدُ المسـيح حقًا وقام الكاهنُ بكسـره، فإنّ الكنيسـة تقـوم بشـقّ وتمزيـقِ جسـد المسـيح مـرّةً أخـرى، بينمـا يُخبرُنـا الكتـاب المقـدّس أنّ جسـدَ المسـيح كُسِـرَ مـن أجلنـا مـرّةً واحـدةً وإلـى الأبـد، كان ذبيحَـةً نهائيّـةً وكاملـة وكافية لخطيئـةِ شـعبه (عبرانيّين ٧: ٢٧؛ ١٠: ١٢-١٤). ألا يتشـوّهُ جسـدُ المسـيح مـرّة أخـرى فـي القـدّاس؟ ألسـنا نُلحِـقُ العـذابَ علـى مـن أنهـى عملَ ذبيحتِـهِ؟ توفّـرُ روما فـي تعاليمِهـا فرقًـا بسـيطًا يتعلّـق بالذّبيحـةِ الإلهيّـة فـي القـدّاس، فتقـول إنّهـا ذبيحـة

غيرُ دمويّة وبأنّها تُظهرُ ذبيحة المسيح الواحدة. ومع ذلك، فإنّ أيّ فكرة لأيّ نوع من الذّبيحة التي تحدُث في عبادة العهد الجديد هي أمرٌ بغيض بالنسبةِ إلى البروتستانت، الذين يعتقدون أنّ جدارَةَ آلام المسيح على الصليب وأهمّيتَها ومزاياها كانت عظيمَةً جدًّا لدرجة أنّ تكرارَها يحطّ من قدرها.

يجدُ البروتستانت أيضًا صعوبةً في تقبّلِ مسألةِ وجود الطبيعةِ البشريّةِ للمسيح في أكثر من مكانٍ في الوقتِ نفسِه، فوجهة نظر الكاثوليك هذه تُضفي صفةَ «كليّةِ الوجود» على جسَدِ يسوع المادّيّ. وإذا كان يتمُّ الاحتفالُ بالقدّاس في نيويورك وشيكاغو ولوس أنجلوس في الوقتِ نفسِه، فوفقًا لتعاليم كنيسة روما الكاثوليكيّة، فإنّ جسدَ المسيح ودمَه، اللذَين يشكّلان جزءًا من طبيعتِه البشريّة، وليسا جزءًا من طبيعتِه الإلهيّة، موجودان في الوقتِ نفسِه في أكثر من مكانٍ واحد. تقول روما إنّ هذا مُمكنٌ لأنّه يوجد انتقالُ قوّةٍ من الطبيعة الإلهيّة «كليّة الوجود» إلى الطبيعَةِ البشريّة. ولكن بمجرّد أن تتّخذَ الطبيعةُ البشريّة سمات أو صفات الطبيعة الإلهيّة، تواجه روما مشكلةً مع لاهوتِها الكريستولوجيّ. حدّدَ مجمعُ خلقيدونيّة (٤٥١) العلاقة بين طبيعتَي المسيح، قائلًا إنّ المسيح «*vera homo vera deus*»، أي أنّه «إنسانٌ حقٌّ وإلهٌ حقّ»، وأنّ الطبيعتَيْن في وحدَةٍ كاملةٍ ولكن بدون اختلاطٍ أو ارتباكٍ أو انفصالٍ أو انقسام، بحيث تحتفظ كلُّ طبيعة على سماتِها الخاصّة. بالتالي، تحتاج روما أن تشرحَ كيف تعزو صفة «كليّة الوجود» إلى جسدِ المسيح من دون تأليهِه، وبالتالي منحِه صفةً إلهيّة. كيف لا يخلطُ ذلك طبيعتَي المسيح؟

صدرَ في العصر الحديث بعضُ ردودِ الفعل داخل كنيسة روما الكاثوليكيّة ضِدَّ مفهوم الاستحالة، والتي أثارَها بشكلٍ خاصّ عالمُ اللاهوت البلجيكيّ إدوارد شيلبيكس (١٩١٤ - ٢٠٠٩). كتب كتابًا بعنوان «المسيح، سِرُّ اللقاء مع الله»، ذكرَ فيه أنّ على الكنيسَةِ أن تضَعَ جانبًا الصيغَ القديمة لأرسطو. لقد سعى إلى إعادةِ صياغةِ العقيدةِ بمصطلحاتٍ حديثة، متخلّيًا عن مصطلح «الاستحالة» لصالح مصطلح «*transignification*» أي «التحويل». وفقًا لوجهة نظره، فإنّ جسدَ يسوع الفعليّ ودمَه ليسا موجودَيْن جسديًّا في الخبز والخمر، لكنّهما موجودان بشكلٍ حقيقيٍّ وموضوعيّ. وهكذا، عند التكريس، يكتسِبُ الخبزُ والخمرُ الأهميّةَ الحقيقيّةَ للجسَد والدّم.

ولكن في عام ١٩٦٥، أصدرَ البابا بولس السادس رسالةً عامّة عن سِرِّ الإفخارستيّا بعنوان «*Mysterium Fidei*» أي «سِرّ الإيمان»، والتي رفضَ فيها أفكارَ شيلبيكس وأعادَ التأكيدَ بقوّةٍ على المفهوم الكاثوليكيّ التقليديّ للعشاء الربّاني. قال:

> لقد وضعتِ الكنيسةُ قاعدةً للتعبير ودعَمَت ذلك بسلطةِ المجامع؛ وقد كلفّها ذلك مجهودُ قرونٍ بمعونةِ الروح القدُس. ولا بدّ من التقيُّدِ بصرامَةٍ بهذه القاعدة التي كثيرًا ما كانت للإيمان القويم ميزةً وشعارًا. وحذارِ أن يسمحَ أحدٌ لذاتِه بتغييرِها وفقًا لأهوائِهِ أو تحت برقع التجديد العلميّ. ومَن تُراه يسلّم بحُكمٍ يقول إنّ التعابيرَ العقائديّة التي وضعتها المجامعُ المسكونيّة لسِرَّيْ الثالوث الأقدس والتجَسُّد ما عادت

تتوافقُ والفكر المعاصر، وبالتالي التسرُّع بالاستعاضة عنها بسواها؟ كذلك لا يُمكن التسليمُ بأن يمَسَّ أيُّ فردٍ من خلال سلطانِهِ الشخصيّ بالتعابير التي استعملها مجمَعُ ترنت للتّعبير عن الإيمان بسِرّ الإفخارستيّا (سِرّ القربان الأقدس).[٢]

## التأكيداتُ الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة

بطريقةٍ مماثلة، أعادت روما التأكيدَ على العديد من مواقفِها التقليديّة بشأن الأسرار المقدّسة في الطبعة الأخيرة من التعليم المسيحيّ للكنيسَةِ الكاثوليكيّة (١٩٩٥). فيما يلي مُقتطفاتٌ من التعليم المسيحيّ الكاثوليكيّ فيما يتعلّقُ ببعض المواضيع الأكثر إثارَةً للجدَل التي ناقشناها:

تؤكّدُ الكنيسَةُ أنّ أسرارَ العهدِ الجديد ضَروريّةٌ لخلاصِ المؤمنين. (القسم ١١٢٩)

أسرارُ العهد الجديد سبعَةٌ وهي من وَضعِ المسيح: المعموديّةُ والتثبيت والإفخارستيّا والتوبَة ومسحَةُ المرضى والكهنوت والزَّواج. وتتّصلُ هذه الأسرار السبعَة بكلّ المراحل وكلّ الظّروف الهامّة في حياةِ المسيحيّ: فهي تهَب الولادة والنموّ والشفاء والاستعداد لرسالة المسيحيّين في حياتِهم الإيمانيّة. ففي هذا المجال نلحَظُ بعض الشبَه بين مراحل الحياةِ الطبيعيّة ومراحلِ الحياةِ الروحيّة. (١٢١٠)

المَعموديّة المقدّسَـة هي ركيزَةُ الحياة المسـيحيّة كلّها، ومدخلُ الحيـاة فـي الـروح «*vitae spiritualis ianua*»، والبـابُ الـذي يوصـل إلـى الأسـرار الأخـرى. فبالمَعموديّـةِ نُعتَـقُ مـن الخطيئة ونولـدُ ثانيـةً كأبنـاءِ اللـه، ونصيـرُ أعضـاء للمسـيح، ونندمـج فـي الكنيسـة ونصبحُ شـركاء فـي رسـالتها. (١٢١٣)

بالمَعموديّـةِ تُغفـرُ الخطايـا كلّهـا، الخطيئـةُ الأصليّـة وجميـعُ الخطايـا الفرديّـة وجميع عواقب الخطيئة. فالذيـن وُلدوا ثانيَةً لا يبقـى فيهـم مـا يحجُبُهـم عن دخولِ ملكـوت اللـه، لا خطيئة آدم ولا الخطيئـة الفرديّـة ولا عواقـب الخطيئـة، وأخطرُهـا الانفصالُ عن اللـه. (١٢٦٣)

يُشـكّلُ سِـرُّ التثبيـت مـع المَعموديّـة والإفخارسـتيّا مجمـوعَ «الأسـرار المُدخلـة إلـى الحيـاةِ المَسـيحيَّة» التـي لا بـدّ مـن المحافظـة علـى وحدَتِهـا. لا بـدّ إذًا مـن أن يُفسَّـرَ للمؤمنيـن أنّ قبـولَ سِـرِّ التثبيـت ضروريٌّ لإتمـام نعمة المعموديّة. لأنّه «بسِـرِّ التثبيـت يتوثّـقُ ارتبـاط المعمّديـن بالكنيسـة علـى وجـه أكمـل، ويمنحُهـم الـروح القـدُس قـوّة خاصّـة». (١٢٨٥)

فـي صُلـب الاحتفـال بسِـرِّ الافخارسـتيّا، نجـدُ الخبـزَ والخمـرَ اللذَيْـن يتحوّلان بكلماتِ المسـيح واسـتدعاءِ الـروح القدُس، إلى جسَـدِ المسـيح ودمِـه. (١٣٣٣)

ثمّـة خطايـا كثيـرَةٌ تسـيْءُ إلـى القريـب، فـلا بـدّ مـن أن نبـذلَ المسـتطاع للتكفيـر عـن الإسـاءَة (رَدُّ المسـروقات مثـلًا، إعـادة

حُسن الصيت لمن افترينا عليه، التعويض عن الجروح). هذا ما تفرضُه أبسطُ مقتضياتِ العدل. ولكنّ الخطيئَةَ تؤذي الخاطئَ نفسَه أيضًا وتضعفه، كما تؤذي وتُضعفُ علاقتَه بالله وبالقريب. إنّ الحلّة تلغي الخطيئة ولكنّها لا تداوي كلَّ العواقب التي أنتجَتْها الخطيئة. على الخاطئ، بعد أن ينهضَ من خطيئتِه، أن يسعى إلى استردادِ كاملِ عافيتِه الروحيّة، وأن يعملَ شيئًا أكثر من التوبة للتعويض عن ذنوبه: عليه أن: «يكفّر» عن ذنوبه بما يتناسب وإيّاها. هذه الكفّارة تسمّى «العقوبة». (١٤٥٩)

تحظى بالغفران بواسطة الكنيسة التي نالت من المسيح يسوع سلطانَ الحَلِّ والربط. فبقوّةِ هذا السلطان، تتوسّطُ الكنيسَةُ لصالح المسيحيّ، وتفتحُ له كنزَ استحقاقاتِ المسيح والقدّيسين، لينالَ من أبِ المراحم غفران العقوبات الزَّمنيّة الناجمة عن خطاياه. (١٤٧٨)

في مقابل هذه التصريحات، إليكم المواقف التي اتّخذَها الإصلاحيّون بشأن بعض هذه القضايا كما ورد في إقرار إيمان وستمنستر:

يوجدُ سِرّان فقط عيَّنَهما المسيح ربُّنا في الإنجيل؛ اللذان هما: المَعموديّة وعشاءُ الربّ: اللذان لا يُمكن لأيٍّ منهما أن يتمَّ القيامُ بتدبيرهما بواسطةِ أيِّ شخص، سوى بواسطةِ خادم الكلمة المرسوم قانونيًّا. (٢٧،٤)

مـع أنّ احتقـارَ هـذه الفريضـة (فريضـة المعموديّـة) أو إهمالَهـا هـو إثـمٌ كبيـر، مـع ذلـك فالنعمـة والخـلاص غيـرُ مُرتبطَيـن بهـا إلـى درجـةِ عَـدَمِ قابليّـةِ الانفصـال، حتّـى كأنّـه لا يُمكنُ لشـخص أن يتجـدّدَ أو يخلُـص بدونِهـا، أو أنّ كلّ الذيـن اعتمـدوا هـم بـلا شـكّ متجـدّدون. (٢٨،٥)

فـي [العشـاءِ الربّانـي] لا يُقدَّمُ المسـيحُ لأبيه، ولا تتـمُّ أيُّ ذبيحَةٍ حقيقيّـة لغفـران خطايـا الأحيـاء والأمـوات، لكنّـه احتفـالٌ فقـط لذكـرى تلـك الذبيحـة الواحـدة لنفسِـه، بنفسِـه، علـى الصليـب، مـرّة واحـدة، وقربانًـا روحيًّـا لـكلِّ تسـبيحٍ مُمكـنٍ للـه، على تلك الذبيحـة نفسِـها: لذلـك، فذبيحة القـدّاس البابويّة - كما يسـمّونها - هـي أشـدّ إهانـةٍ مقيتـةٍ لذبيحـة المسـيح الواحـدة، الوحيـدة، الكفّـارة الفريـدة لـكلّ خطايـا مُختاريـه. (٢٩،٢)

إنّ القدّاسـاتِ الخصوصيّـة، أو تنـاولَ هـذا السـرّ بواسـطة كاهـن، أو أيّ شـخصٍ آخـر، مُنفـردًا؛ كمـا بالمثل، إنَّ حرمانَ الشـعب من الـكأس، وعبـادَةَ العُنصُرَيْـن، ورفعَهُمـا، أو حملَهُمـا حـول المكان للسّـجودِ لهمـا، والاحتفاظَ بهما لأيّ اسـتخدامٍ دينـيٍّ مزعوم؛ هي كلّهـا مخالفـة لطبيعةِ هذا السـرّ، ولتأسـيسِ المسـيح لـه. (٢٩،٤)

إنّ العُنصُرَيْـن الظاهرَيْـن فـي هـذا السِـرّ، المفرَزَيْـن كمـا يجـب للاسـتخداماتِ المعيّنـة بواسـطة المسـيح، لهمـا تلـك العلاقـة به مصلوبًـا، حتّـى أنّهمـا، حقًّا، لكن سِـرّيًّا فقط، يُطلـقُ عليهما أحيانًا باسـم الشـيئَيْن اللذيـن يُمثّلانِهمـا، أي جسَـدِ المسـيح ودَمِه؛ ولو

أنّهما في الجوهر والطبيعة، ما زالا باقيَيْن حقًّا وفقط خبزًا وخمرًا، كما كانا من قبل. (٢٩،٥)

إنّ ذلك التعليم الذي يتمسّكُ بتحوّل جوهر الخبز والخمر إلى جوهر جسدِ المسيح ودمِه (يُسمّى عادة الاستحالة) بواسطة تكريس كاهن، أو بأيّة طريقةٍ أخرى، هو بغيض، ليس بالنسبة إلى الكتاب المقدّس فحسب، بل حتّى إلى الحِسِّ العامّ، والمنطق، ويدمّرُ طبيعة السرّ، وقد كان، وما زال، سببًا لخرافاتٍ متعدّدة؛ بل، لوثنيّاتٍ فادحة. (٢٩،٦)

أعتقد أنّ هذه الاقتباسات توَضّحُ أنّه لم يتغيّر شَيءٌ، سواء عند الجانب البروتستانتيّ أو الجانب الكاثوليكيّ، لمَحوِ الخلافات القديمة حول الأسرار المقدّسة. ما زالت وجهةُ نظر روما مليئةً بالأخطاء والخرافات، لا سيّما في إصرارها المستمرّ على أنّ المعموديّة تنقل نعمة التبرير. وتعاليمُها بأنّ جسَدَ المسيح ينكسِرُ من جديد في كلّ مرّةٍ يتمُّ الاحتفالُ بالقدّاس، تُعلن روما أشياءَ بغيضةً لأولئك الذين يؤمنون بكلمة الله ويثقون بها.

## الفصل ٥

# البابويّة

في ١٨ تموز\يوليو ١٨٧٠، حدّدت الكنيسَةُ الكاثوليكيّةُ رسميًّا عقيدَةَ العصمَةِ البابويّة في المجمع المسكونيِّ المعروف باسم المجمع الفاتيكاني الأوّل. تمَّ الإعلانُ بأنَّ هذه العقيدة هي «*de fide*» أي «من الإيمان»، أي بأنّها عقيدَةٌ رسميّةٌ للكنيسة ويُعتَبَرُ إنكارُها بدعة. كان التصويتُ في المجمع لرَفعِ هذه العقيدة إلى حالةِ «*de fide*»، أي إلى عقيدةٍ إيمانيّة، ٥٣٣ صوتًا موافقًا مقابل ٢.

إذًا، الإعلانُ الرسميُّ لعقيدة العصمة البابويّة هو تطوّرٌ حديثٌ نسبيًّا، وقد جاءَ بعد فترةٍ طويلةٍ من الإصلاح البروتستانتيّ. ومع ذلك، فإنّ مفهوم العصمة البابويّة والاقتناعَ بحقيقتِها لهما جذورٌ مبكّرة جدًّا في تاريخ الكنيسة. لذلك، سيكون من المفيد مراجعة الخلفيّة التاريخيّة التي أدّت إلى المجمع الفاتيكاني الأوّل بإيجاز.

نرى في سِفر أعمال الرسل أنّ الكنيسَةَ بدأت في أورشليم، وكانت

أورشليم نقطَةً محوريّةً في سنواتِها الأولى. هناك عُقِدَ المَجمَعُ الكنَسيُّ الأوّل لتسويةِ مسألة المتهوّدين (أعمال الرسل ١٥). ولكنَّ سِفر أعمال الرسل ينتهي بذهاب الرسول بولس إلى روما. لا أحد يعرفُ مَن أسّسَ الكنيسَةَ في روما، لكنّها سرعان ما أصبَحَت النقطةَ المحوريّة للكنيسة، خاصّة بعد خرابِ أورشليم عام ٧٠ بعد الميلاد.

من الواضح أنّ روما كانت مدينةً مهمّةً للغاية كعاصمةٍ للإمبراطوريّة الرومانيّة، وقد مُنحَتِ الكنيسَةُ في روما مكانةً فريدة بسبب موقِعِها. قال البعضُ إنّ وجودَ الكنيسة في العاصمة قد أثّرَ أيضًا في كيفيّةِ تطوّر بنيَتِها القياديّة. يقول هانز كونغ (مواليد ١٩٢٨)، وهو عالمُ لاهوتٍ كاثوليكيٍّ من سويسرا، بأنّ السببَ الرئيسيّ لتطوّر كنيسة روما الكاثوليكيّة في روما لتُصبحَ أسقفيّةً ملكيّة وبابويّة هو لأنّها تأسّست بحسب نظام الحُكمِ الروماني. وهو يعتقدُ أيضًا أنّ الكنيسَةَ تبنّت ببساطةٍ العديد من البُنى السياسيّة والقانونيّة للحكومة الرومانيّة، والتي كان أعضاءُ الكنيسة يمارسونها في حياتِهم اليوميّة.

ليس من الصعب العثورُ على مؤشّراتٍ على أهمّية الكنيسة في روما، فرسالة بولس الرسول إلى أهل رومية لها ثقلُها الكبير وأهمّيّتُها. كما نعلم أنّ بولس كان يتوق إلى الخدمة هناك (رومية ١: ١١، ١٣؛ ١٥: ٢٣) وكان يتوقّع من الكنيسة في روما أن تساعدَه في رحلته إلى إسبانيا (١٥: ٢٤، ٢٨). يقول التقليد (وهناك الكثير من الأدلّة خارج الكتاب المقدّس لدعمه) إنّ الرسولَين بولس وبطرس استُشهدا في روما حوالي ٦٥ بعد الميلاد أثناء اضطهاد الإمبراطور نيرون. وليس غريبًا أن يُعتَبَر قائدُ هذه الكنيسة الواقعة في عاصمة الإمبراطوريّة

علـى أنّـه قائـدٌ مهـمّ في الحركـة المسـيحيّة بكاملهـا في السـنوات الأولى مـن تاريخ الكنيسـة.

أحـدُ المصـادر التـي تُظهرُ لنـا البروزَ المبكّـر لقادة الكنيسـة في روما هـو رسـالة أكليمنـدس الأولى. هذه الرسـالة هي خـارج الكتـاب المقدّس، ويرجـع تاريخُهـا بالعـادة إلى حوالي عام ٩٥، وقد كتبَها شـخص يُعرَفُ بأنّه أسـقفُ روما. وفقًـا للتّقليـد، كان أكليمنـدس الأسـقفَ الرابع بعد الرسـول بطـرس ولينـوس وأنكليطـس. كتـبَ أكليمنـدس رسـالتَه إلـى الكنيسـة في كورنثـوس، والتـي كتـب إليهـا بولـس رسـالتين علـى الأقـلّ، وهما سِـفران مـن أسـفار العهـد الجديـد: رسـالتا كورنثـوس الأولـى وكورنثـوس الثانيـة. الرسـالة الأولـى لكورنثوس مليئة بنصائح لكنيسـة مضطرِبـة للغاية. وتُظهر الرسـالة الثانية إلى كورنثوس أنّ الكنيسَـةَ هناك قد اسـتجابت للعديد من نصائـح بولـس فـي رسـالتِه الأولـى، لكـنَّ المشـاكلَ ظلّـت قائمَةً فيهـا، بما فـي ذلـك الأنبيـاء الكذبـة الذيـن تحـدّوا سـلطة بولـس. أحيانًـا نتسـاءَلُ ما الـذي حـلّ بكنيسَـةِ كورنثـوس على المـدى الطويل. هـل عالجَـتِ الخطيئَةَ والانقسـامات فـي صفوفِهـا بشـكل فعّـال اسـتجابة لنصائـح بولـس، أم أنّها اسـتمرَّت تعانـي من تلك المشـاكل؟

للأسـف، تشـيرُ رسـالة أكليمندس الأولى إلى أنّ الكنيسـة لم تتحسّـن، لأنّـه أصبـح مـن الضـروري بعـد حوالـي أربعيـن عامًـا أن يتدخّـلَ أسـقف روما فـي كنيسـة كورنثوس. يبـدو أنّ هناك مشـكلةً في تنظيمِها الكنسـيّ، وأنّ تمـرّدًا يحـدُث مـن قِبَـل بعـض الذيـن يعتقـدون أنّ لديهـم مواهـب مـن الـروح القـدُس والذيـن يعتقـدون أنّ اللـه يوجّهُهـم للإطاحَـةِ بخـدّام الكنيسـة. لذلـك، كتـبَ أكليمنـدس أسـقفُ روما رسـالة يطلـب فيهـا مـن

النـاس الذيـن انجرفـوا بعيـدًا فـي حماسِـهم الدينـي أن يهدأوا.

يقـول أحـدُ مؤرّخـي الكنيسـة فـي تحليلِه لرسـالة أكليمنـدس الأولى، إنّهـا مكتوبـة بـروحِ المحبَّـةِ الأخويّـة والإرشـاد، وليـس بنبـرَةٍ سـلطويّةٍ أو اسـتبداديّة. لكـنّ المـؤرّخ يُضيـف قائـلًا إنّـه علـى الرغـم مـن أنّهـا مُصاغة بشـكلٍ أخـويّ، إلّا أنّهـا صادرة من الأخ الأكبر. أعتقـدُ أنّ ما قاله هو وصفٌ ممتـازٌ لنبـرَةِ رسـالة أكليمندس الأولـى. لا يُشـبِهُ أكليمندس بابـواتِ القرنِ العشـرين وهـم يلقـون رسـالةً عامّـة يأمـرون أهـل كورنثـوس بالتوبـةِ من خـلال قـوّةِ موقعِهـم. بل يُبـرّرُ اهتمامَه الرعـويّ بما يحدُث فـي كورنثوس كاهتمـام راعٍ يحـقُّ لـه ممارسـة إشـرافٍ روحـيٍّ وتوجيـه إرشـادات لرعيّة خارج نطـاق سـلطتِه الجغرافيّـة القانونيّة.

علـى مـرّ القـرون، أصبحنـا نـرى ازديـادًا تدريجيًّـا فـي قـوّةِ وسـلطان أسـقفِ رومـا. علـى سـبيل المثـال، فـي الخلافـات التـي وقعَت فـي القرن الرابـع، أي فـي المناظـراتِ اللاهوتيّـةِ بيـن بيلاجيـوس وأوغسـطينوس فـي شـمال إفريقيـا، اسـتأنفت سـلطاتُ الكنيسَـةِ المحليّـة فـي مرحلـةٍ مـا قـرارَ أسـقفِ رومـا. مع مـرور الوقـت، بـدأ البابـاوات يطالبون بسـلطانِهم القانونـيّ العالمـيّ علـى جميـعِ الكنائـس. حصل اسـتياءٌ من هـذا الأمر في المناطـق الشـرقيّة مـن الإمبراطوريّة بشـكلٍ خـاصّ. أخيرًا، في عـام ١٠٥٤، سـافرت مجموعـةٌ تمثّـلُ البابـا إلـى القسـطنطينيّة مُصرّيـن أنّ يعتـرفَ بطريـرك القسـطنطينيّة بـأنَّ الكنيسَـةَ فـي رومـا هـي الكنيسـة الأمّ، لكنّـه رفـضَ أن يفعـلَ ذلـك، ممّـا أثـار شـرارَةَ الانقسـام الكبيـر الـذي أدّى إلـى انقسـامِ الكنيسَـةِ الكاثوليكيَّـة والكنيسـة الأرثوذكسـيّة الشـرقيّة، وهـو انقسـامٌ لـم تُشْـفَ منـه الكنيسـة قـطّ.

## الغاليكيّة والألترامونتانيسم

بحلولِ القرن التاسع عشَر، ظهر اتّجاهان فلسفيّان مهمّان كان لهما تأثيرٌ كبيرٌ في المجمع الفاتيكاني الأوّل. أوّلًا، كانت هناك ظاهرة الغاليكيّة.

نشأت هذه المدرسة الفكريّة في فرنسا في القرن الثّالث عشَر، وهذا ما يُفسّرُ أصلَ مصطلح «*Gallicanism*». كانت كلمة «*Gaul*» تُطلق على منطقةٍ كانت تشمل خلال العصر الروماني فرنسا الحديثة وبعضَ المناطق المحيطة بها. بدأت الحركة الغاليكيّة مع مقاومة المسيحيّين الفرنسيّين للحُكمِ الروماني، حيثُ أرادت الكنيسة في فرنسا أن تديرَ شؤونَها الخاصّة بدلًا من تلقّي الأوامر من البابا، لكنّهم فشلوا في ذلك. لكن الغاليكيّة استمرّت وأصبحَت هذه الكلمة تُطلقُ على أيّ جهودٍ لها علاقة بالحُكم الذاتي. عندما وصلت إلى ذروَتِها في القرن التاسع عشَر، كانت الغاليكيّة مُصطلحًا يُستخدَم لأيّ طموح للوصول إلى حُكمٍ ذاتيٍّ من دون تدخّل من البابا. لم يكن هذا مجرّدَ صراع كنسيٍّ على السلطة، بل كان صراعًا كنسيًّا سياسيًّا على السلطة، لأنّه لم يكن في العديد من دوَل أوروبا في ذلك الوقت فصلٌ بين الكنيسة والدولة. وبالطبع، كانت لا تزال البابويّة في ذلك الوقت تتمتّعُ بسلطةٍ سياسيّةٍ كبيرة.

ثانيًا، ظهرت مدرسة فكريَّة عُرفت باسم «*Ultramontanism*». هذه الكلمة تعني حرفيًّا «ما وَراءَ الجبَال». تمَّ إطلاقُ هذا المصطلح على أولئك الذين عارضوا الغاليكيّة، وقد كانوا يُفضّلون السلطة

المركزيّة في روما، والتي كانت عبرَ جبال الألب من فرنسا. لقد كانوا يفضّلون حكومَةً كنسيّةً مركزيّة للكنيسة الكاثوليكيّة على رأسِها البابا الذي يتمتّعُ بالسلطة الأسقفيّة العليا.

في حزيران\يونيو من عام ١٨٤٦، تمَّ انتخابُ جيوفاني ماريا ماستاي فيريتي ليكون البابا پيوس التاسع وبقي في هذا المنصب اثنين وثلاثين عامًا، وهي أطول فترة بابويّة على الإطلاق. عندما وصل پيوس التاسع إلى السلطة، كان يُنظر إليه على أنّه شخصٌ ليبراليٌّ إلى حدٍّ ما، وبأنّه لم يكن بكلّ تأكيد من أتباع الـ «*ultramontanism*». لكن خلال سنواتِه الأولى كبابا، فشلت العديدُ من برامج الإصلاح التي حاولَ تأسيسَها، ومَرَّ بأزَمَةٍ شخصيّة. نتيجةً لذلك، أصبَحَ خصمًا قويًّا للحرَكة الغاليكيّة، وبدأ في الضغط بشدّةٍ لتوطيد قوّةِ البابويَّة وسلطتِها.

في عام ١٨٥٤، أصدر البابا پيوس بدون استشارَةِ الكرادلة أو الأساقفة رسالةً بابويّةً عامّةً بعنوان «*Ineffabilis Deus*» أي «الله فائقُ الوَصف»، أعلنَ فيه مفهومَ الحَبَل بلا دنس لمريم العذراء (التعليم القائل بأنّ مريم ليس لديها خطيئة أصليّة) وأعلن أنّها «*fide doctrine*» أي عقيدَةٌ إيمانيّة. سأقضي المزيدَ من الوقت في دراسةِ هذه الرسالة العامّة وموضوع اللاهوت المريَميّ بالكامل في الفصل ٦. إلّا أنّني أذكرُها هنا لأظهرَ بكلّ بساطةٍ مَيلَ البابا پيوس المتزايد لحُكمِ الكنيسَةِ بطريقةٍ أحاديّة. اتّخذَ إجراءً مماثلًا في عام ١٨٦٤ عندما نشرَ «منهجَ الأخطاء»، أدان فيه قائمةً طويلة من المذاهب والأفكار، بما في ذلك المذهب الطبيعيّ والارتقاء والتطوّر والليبراليّة والفصل بين الكنيسة والدولة. كانت هذه الوثيقة أيضًا إدانةً لاذعَةً للبروتستانتيّة. ونفى

بشكلٍ خاصّ الفكرَةَ القائلة بأنّ «البروتستانتيَّة ليست أكثرَ من شكلٍ آخرَ من الدينِ المسيحيّ الحقيقيّ نفسِه، حيث إنّها تعملُ لإرضاء الله على قدم المساواة كما في كنيسة روما الكاثوليكيّة».[١] بطبيعة الحال، تعرّض البابا پيوس والكنيسة لانتقاداتٍ شديدةِ اللهجة من البروتستانت بسبب هذا الموقف.

في العقد الذي سبقَ المجمَعَ الفاتيكاني الأوّل، وقعت أحداثٌ سياسيّة مهمّة كان لها تأثيرٌ بالغ الأهميّة على قرارات المجمع. في عام ١٨٦٠، هزَمَ فيكتور إيمانويل الثّاني، ملكُ إيطاليا، القوّاتِ العسكريّة للبابا واستولى على معظم الأراضي البابويّة، تاركًا لپيوس السيطرَةَ على الفاتيكان وأراضٍ أخرى قليلةٍ حولها. قام پيوس على الفور بتحريم فيكتور إيمانويل كنسيًّا، لكنّ الملكَ رفضَ الاذعانَ لرَغبات البابا. ومع ذلك، كان لهذه النكسَاتِ أثرٌ بالغ في خلق تعاطفٍ شَعبيٍّ كبير مع پيوس. بعد ذلك، تمّ إطلاقُ الحملات لجمع التبرّعات الماليّة لدعم البابويّة، فكانت في النهاية الأوضاعُ الماليّة لپيوس في حالةٍ أفضل ممّا كانت عليه قبل أن يخسَرَ الولايات التابعة للبابويّة. واستمرَّ في التمتّع بدعم شَعبيٍّ كبير وتبجيلٍ من الشعوبِ الكاثوليكيّة في جميع أنحاءِ العالم.

كونغ، اللاهوتيُّ السويسريّ الذي انتقد البابويّة إلى حدٍّ ما، قال التالي فيما يتعلّق بشعبيّةِ پيوس:

> على الرغم من أنَّ پيوس التاسع... جلبَ على الكاثوليك الإيطاليّين صراعاتِ ضميرٍ شديدةً لا داعيَ لها، إلّا أنّه نال

تعاطفًا كبيرًا مع شخصِه ومركزه في دوره كرَجُلٍ اضطُهِدَ من قبَل قوى غير مسيحيّة. اكتسبت الرابطة العقائديّة بين الكاثوليك والبابا لمسَةً عاطفيّة ونشأت ظاهرَةٌ جديدة تمامًا هي ظاهرة «تبجيل البابا» بشكلٍ عاطفيٍّ كبير، تمّ تعزيزُها بشكلٍ كبير من قبَل الحشود المحيطة بالبابا ومجموعاتِ الحُجّاج القادمة إلى روما. كان پيوس التاسع شَخصيَّةً خيريّة وبليغَ اللسان. مع أنّ شخصيّتَه كانت قويّةً جدًّا إلّا أنّها كانت عاطفيّةً بشكلٍ خطير. كان تدريبُه اللاهوتيُّ سطحيًّا، ولم يكن لديه أيّ معرفةٍ بالطرُق العلميّة الحديثة. وفوق كلّ هذا، كان يُحيطُ به زملاؤُه المتحمّسون والغيورون والبسيطون المقتنعون بعقائد غير واقعيّة. رأى البابا الأزمة التي تمرُّ بها البابويّة على أنّها بكلّ بساطةٍ حلقةٌ في التاريخ العالميّ للصّراع بين الله والشيطان، وأمِلَ في التغلّب عليها من خلال الثقةِ شبه الصوفيّة في انتصار العناية الإلهيّة.[٢]

لذلك، عندما عقدَ البابا پيوس المجمعَ الفاتيكانيَّ الأوّل عام ١٨٦٩، كانت البابويّة تحتَ حصار السلطاتِ العلمانيّة لكنّها كانت تتمتّع بدَعمٍ شَعبيّ.

## مُقرّرات المجمَع الفاتيكانيّ الأوّل

تمَّ تثبيتُ أسبَقيّةِ البابا في الدورَةِ الرابعة للمَجمَع الفاتيكانيّ الأوّل، الواردة مقرَّراتُها في «الدُّستور العقائديّ الأوّل لكنيسَةِ المسيح»

(١٨ تموز\يوليو ١٨٧٠). وأنا أجدُ أنّه جديرٌ بنا أن نُخصّصَ بعض الوقت لدراسَةِ بعض العبارات الواردة في هذه الوثيقة. ورَدَ في المقدّمة النصّ التالي:

> بما أنّ أبوابَ الجحيم تحاولُ القضاء على الكنيسة لو أمكنَها ذلك، بكراهيّة تزداد يومًا بعد يوم لأساسِها الموضوع من الله، نرى أنّه من الضروريّ، لحفظ القطيع الكاثوليكيّ ونموّه، أن نبسطَ، بموافقةِ المجمع المقدّس هذه العقيدة فيما يختصّ: ١. إنشاء، ٢. ديمومة، ٣. وطبيعة الأسبقيّة الرسوليّة المقدّسة التي تعتمدُ عليها قوّةُ الكنيسَةِ بكاملِها ومناعتِها. يجب على كلّ المؤمنين الإيمانُ بهذه العقيدة والتمسُّكُ بها، بحسب إيمان الكنيسَةِ القديم والثابت. بالإضافة إلى ذلك، علينا أن ننبذَ وندينَ الأضاليلَ المناقضة المسيئة جدًّا لقطيع الربّ.[٣]

لاحِظَ الإصرارَ على أنّه «يجب على كلِّ المؤمنين الإيمانُ بهذه العقيدة والتمسّكُ بها». أحيانًا تذكر الرسائلُ البابويّة والبياناتُ الصادرة عن المجامع أنّه على جميع المؤمنين الكاثوليك التمسّكُ بعقيدَةٍ ما. ولكنّنا نجدُ هنا أنّه بالإضافة إلى التمسّكِ بعقيدَةِ العصمة البابويّة، على المؤمنين أن يؤمنوا بها.

لا تُقدّمُ مُعظمُ البياناتِ الصادرةِ عن المجامع الإعلانات فحسب، بل أيضًا تُعلنُ «تَحريمًا» على الضلال. مثلًا، نقرأ التالي من مجمع ترَنت: «إذا قال أحدٌ إنّ الكافرَ يُبرَّرُ بالإيمان وحدَه، عانيًا بذلك أنّ لا شَيْءَ غيرَ

الإيمان ضَروريٌّ للحصول على نعمَةِ التبرير، وأنّه ليس بحاجةٍ البتّة إلى التأهبّ والاستعداد بحرَكةٍ من إرادَتِه: فليكن أناثيما.»[٤] وكلمة «أناثيما» تعني بالطبع «ملعونًا» أو «مَحرومًا».

لقد تضمّنت كذلك تصريحاتُ المجمع الفاتيكاني الأوّل العديدَ من الأناثيما. ففي الفصل الأوّل من القانون العقائدي، حدّد المجمعُ أسبَقيَّةَ بطرس، معلنًا أنّه لم يكن مجرّدَ واحدٍ من الرسل، بل أنّ يسوعَ أعطاه الأسبقيَّةَ على جميع الرسُل الآخرين في الكنيسة الأولى. أعلن المجمعُ في نهاية هذا الفصل التالي: «فمن يقول إنّ بطرسَ الرسول المغبوط لم يُقمْهُ المسيح الربُّ رئيسًا على جميع الرسل ورأسًا منظورًا للكنيسَةِ المجاهدة جمعاء؛ أو إنّ هذا الرسول لم يتسلّمْ مباشرَةً وفورًا من المسيح غيرَ أسبقيَّةٍ شَرَفيّة، لا أسبقيّةِ ولايةٍ حقيقيّةٍ قانونيّة، فليكن أناثيما.[٥]

وقد أكّد المجمَعُ أنّ أسبقيَّةَ بطرس قد تمَّ تناقلُها في تتابُعٍ دائم، وبأنّ هذا الاعتقاد ضَروريّ: «فمن يقول إنّه ليس من فريضَةِ المسيح الربِّ نفسِهِ أو من الحَقِّ الإلهيّ أن يكون لبطرُسَ المغبوطِ خلفاءُ دائمون لهم الأسبقيّة في الكنيسة، فليكن أناثيما.»[٦] لذلك، ليس هناك خلافة متعاقبة من الأساقفة فحَسب، إنّما أسبقيّة بطرس أيضًا يتمُّ تناقلُها من أسقفٍ إلى آخر.

أخيرًا، يُصرّحُ المجمَعُ بالتالي:

«فمن يقولُ بأنَّ للحِبر الرومانيّ مُهمّةُ المراقبَةِ والتوجيه

فقـط، وليـسَ لـه سـلطانٌ كامـلٌ أعظـمُ للولايـة علـى الكنيسَـةِ جَمعـاء، لا فيمـا يتعلّـق بالإيمـان والأخـلاق فقـط، ولكـن أيضًـا فيمـا يتعلّقُ بالنظام وسياسـة الكنيسـة المنتشـرة فـي العالم كلّه، أو إنّ لـه الجـزْءَ الأهـمّ لا كمال هذا السـلطان الأعظـم كلّه، أو إنّ هـذا السـلطان ليـس عاديًّـا ومباشـرًا علـى جميع الكنائـس وعلى كلّ واحـدَةٍ منهـا، كمـا علـى جميـع الرعـاة والمؤمنيـن وعلى كلّ واحـد منهـم فليكـن أناثيما».[٧]

هـذا يعنـي أنّ السـلطة البابويّـة ليسـت مجـرّدَ سـلطةٍ تعليميّـةٍ بـل هـي أيضًـا سـلطةٌ حكوميّـة. وبالتالـي، فـإنّ البابـا لـه سـلطة قضائيّـة علـى نظـام وحُكـم الكنيسـة بكاملهـا. هـذا مـا يُطلـقُ عليـه الكاثوليـك تسـمية أسـبقيَّة القضـاء.

## تعريفُ العِصمَة

نجـدُ تعريـفَ العصمـة البابويّـة فـي الفصـل الرابـع والأخيـر مـن الدسـتور العقائـدي الـذي ينـصُّ علـى التالـي:

نعلّـمُ ونُحـدّدُ كعقيـدَةٍ إلهيّـةٍ موحًـى بهـا أنّ الحِبـرَ الرومانـيَّ، عندمـا يتكلّـمُ «EX CATHEDRA» (أي عندمـا يتكلّمُ من على الكرسِـيِّ الرسـوليّ)، أي عندمـا يتكلّـم وهـو يقـوم بمَهمّتِـهِ كراعٍ ومعلّمٍ لجميع المسـيحيّين، بسـلطانِهِ الرسـوليّ الأسـمى، أنّه من واجـبِ الكنيسَـةِ جمعـاء التمسّـكُ بعقيـدَةٍ فـي موضـوع الإيمان

أو الأخلاق، فهو يتمتّعُ، بفِعل العَونِ الإلهيّ، الذي وعدَ به في شخصِ بطرس المغبوط، بتلك العِصمَةِ التي أراد لها الفادي الإلهيّ أن تكون للكنيسة عندما تُحدّدُ عقيدَةً في الإيمان والأخلاق. وبالتالي، تكون تحديداتُ الحِبر الرومانيّ هذه غيرَ قابلةٍ للإصلاح بذاتِها وليس بفِعلِ موافقة الكنيسة.[٨]

هنالك نوعان من المفاهيم الأساسيّة في هذا التعريف. أوّلًا، تقتصرُ العِصمَةُ البابويّة على أقوال البابا حول الإيمان أو الأخلاق والتي يُعطيها «*ex cathedra*»، أي عندما يتّخذُ قرارًا بالنيابة عن الكنيسة بكاملِها. لذلك، لم يقلِ المَجمَعُ الفاتيكانيُّ الأوّل إنّه لو قابلنا البابا في شوارع روما وسألناه عن أقرب مطعم بيتزا، يمكنُنا بالتالي أن نفترضَ أنّه سيدلّنا إلى ذلك المطعم بشكلٍ دقيق ومعصوم من الخطأ، بل قد يوجّهُنا نحو الشارع الخطأ أو حتى إلى المنطقة الخطأ من المدينة. البابا غيرُ معصوم من الخطأ فيما يتعلّقُ بمثل هذه الأمور اليوميّة. بعبارة أخرى، لم يعلن المجمعُ عصمَةَ الشخص، بل عصمَةَ المنصِب وذلك فقط عندما يتحدّثُ البابا عن مسائل تتعلّق بالعقيدَةِ والأخلاق من كرسيِّهِ الرسميّ وهو يمارسُ منصِبَ البابا. ثانيًا، وفقًا لهذا البيان، إنّ العصمَةَ البابويّة ليست أمرًا جوهريًّا؛ بل تأتي من خلال المساعدَةِ الإلهيّة التي وُعِدَ بها البابا في بطرُس. البابا معصومٌ من الخطأ عندما يتحدّثُ عن الإيمان أو الأخلاق بسبب المساعدَةِ الإلهيّةِ الخاصّةِ الممنوحة له.

تلَى العبارَةَ الأخيرَةَ جَدَلٌ كبير: «وبالتالي، تكون تحديداتُ الحِبر

الرومانـيّ هـذه غيرَ قابلـةٍ للإصلاح بذاتِها وليس بفعل موافقَةِ الكنيسـة.»

فالسـؤالُ المطـروحُ هنـا هـو مـا إذا كان البابـا يتكلّـم «*ex sese*» أي «مـن نفسِـه» - أو مـا إذا كان يتحـدّثُ خـارج السـياق الأوسـع للكنيسـة بكاملها. هـل العصمـة البابويّـة أمـرٌ يمكـن للبابـا أن يمارسَـه مـن جانـبٍ واحـد، أم يجـب أن يتـمَّ ذلـك بالتشـاور مـع أسـاقفةِ الكنيسَـةِ وكرادلتِها وبـروحِ الزَّمالـةِ معهـم؟ لـم يقـدّمِ الفاتيـكانُ قـطُّ إجابـةً عن هذا السـؤال، لأنّ المجمـع انتهـى باكـرًا أو انَّـه بسـبب غـزو فيكتـور إيمانويـل الثانـي لروما. لذلـك، لـم يتمكّن المشـاركون مـن الإجابةِ عن كلّ التسـاؤلات التي غفلـوا عنها.

تفاوتـت ردودُ الفعـل علـى التصريحـاتِ الصـادرَةِ عـن المجمـع الفاتيكانـيّ الأوّل بشـكلٍ حـادّ. مـن ناحيـةٍ، أشـادَ البَعـضُ بقـوّةٍ بعقيـدَةِ عصمَـةِ البابـا، وبـدأوا يرحّبـون بهذا التعليـم الجديد بعبـاراتٍ رنّانةٍ تشـيرُ ضمنيًّـا إلـى أنّ البابـا يتمتّـعُ بعصمَةٍ جوهريّـة. حتى أنّ بعضَهـم بدأ يقارن بيـن عصمَـةِ اللـه وعصمَـةِ البابـا. مـن جهـةٍ أخـرى، عـارض كثيـرون هـذه العقيـدة بشـدّة، فقـد رفـضَ عالـمُ اللاهـوت والمـؤرّخ الألماني البـارز في ذلـك الوقـت، يوهان جوزيـف إيغناز ڤـون دولينغر قبولَ مرسـوم العِصمَة هـذا، ممّـا أدّى إلـى تحريمِـه. كمـا انسـحَبَت مجموعـةٌ مـن الكاثوليـك وشـكّلوا مـا أصبـحَ يُعـرَف لاحقًـا بالكنيسَـةِ الكاثوليكيّة القديمـة. وبحلول عـام ١٩٥٠، أصبـحَ أتبـاعُ هـذه المجموعـة أكثـر مـن مائـة ألـف. الكنيسَـةُ الكاثوليكيّـة القديمـة التـي تتواجـدُ بشـكلٍ كبيـرٍ فـي ألمانيـا وسويسـرا وهولنـدا والنمسـا، هي كنيسـة كاثوليكيّة مـن كلّ النواحي تقريبًا باسـتثناء أنّهـا لا تعتـرفُ بأسـبقيّةِ البابـا.

في عام ١٨٧٢، تعرّضَ أوتو ڤون بسمارك مستشارُ الإمبراطوريّة الألمانيّة الجديدة، لانتقاداتٍ من بعضِ الأساقفةِ المحلّيّين بسبب سياساتِه. أعلنَ أنّه لا يحتاج أن يُعيرَ أيَّ انتباهٍ للأساقفة لأنّهم مجرّد «أُجَرَاء» يفتقرون إلى القوّةِ والسلطة. اعتبَرَ بسمارك أنّ المجمَعَ الفاتيكاني الأوّل تركَ الأساقفة بلا سلطة، وبأنّهم، في نظره، غيرُ ذَوي أهمّيّةٍ مقارنةً بالبابا. ردّ الأساقفةُ عليه بغضبٍ شديدٍ قائلين إنّهم أخذوا سلطتَهم بشكلٍ مباشر وفوريٍّ من يسوع المسيح، وبأنّهم يتكلّمون باسمِهِ وسلطانِه. كان الجدَلُ بشكلٍ أساسيٍّ حول البند الأخير من الدستور العقائديّ للمجمع الفاتيكاني الأوّل. وقد أكّد البابا پيوس التاسع في العام نفسِه أنّ الأساقفة أخذوا بالفعل سلطتَهم بشكلٍ مباشر وفوريّ من المسيح، وأنّهم غيرُ مُستبعَدين عن السلطة الكنسيّة بسبب عقيدة العِصمَة البابويّة، لكنَّ ميزانَ سلطتِهم الدقيق لم يتمَّ تحديدُه.

## توضيحاتٌ في المجمع الفاتيكانيِّ الثاني

ليس من المُستغرب أن يُطرَحَ هذا السؤالُ مرّةً أخرى في المجمع الفاتيكانيّ الثاني، إذ تمَّ معالجَةُ قضيّةِ عصمَةِ البابا بشَيْءٍ من التفصيل في قسم الفاتيكان الثاني، الدستور العقائديّ في الكنيسة، بعنوان *Lumen Gentium* أي «نورُ الأمَم». وكما ذكرنا سابقًا، كانت الروحُ الأساسيّة للفاتيكان الثاني مختلفةً جذريًّا عن المجمع الفاتيكاني الأوّل. لقد عُقد المجمَعُ الفاتيكانيُّ الأوّل ضمن سياقِ الخوفِ والاضطراب العاطفيّ. أمّا المجمعُ الفاتيكانيُّ الثاني فقد عُقد بروحٍ من المصالحَةِ والسلام. على سبيل المثال، أشار المجمع الفاتيكاني الأوّل إلى

البروتستانت على أنّهم منشقّون وهراطقة، أمّا المجمَعُ الفاتيكانيُّ الثاني فقد تحدّث عن البروتستانت كأخوَةٍ منفصلين. أعلن البابا يوحنّا الثالث والعشرون أنّ الوقتَ قد حانَ لفتح نوافذ الكنيسة لكي يتسنّى للهواء النقيِّ أن يتدفّقَ إليها، وقد قصد بذلك أن يتميّز هذا المجمع بروحٍ جديدةٍ من التواضع.

على الرغم من روح الوفاق والدّفء، قدّمَ الدستور العقائديُّ في الكنيسة بعنوان «نورُ الأمَم» تأكيدًا قويًّا داعمًا للمجمع الفاتيكاني الأوّل فيما يتعلّق بأسبقيّةِ البابا وعصمَتِه. وقد أضاف فروقًا دقيقةً كانت بمثابة حلولٍ لبعض الأسئلة التي كانت تدور حول سلطةِ البابا والأساقفة، لكنّها لم تقلّلْ على الإطلاق من تأكيد المجمع الفاتيكاني الأوّل على عصمَةِ البابا فيما يتعلّقُ بمسائل الإيمان والأخلاق. وفي هذا السياق، أعتقدُ أنّه من الجدير إلقاءُ نظرَةٍ عامّة موجزة على البيانات الرئيسيّة الواردة في الدستور العقائدي في الكنيسة بعنوان «نور الأمم» *Lumen Gentium*.

أوّلًا، قال المجمَع: «يُعلّمُ هذا المجمَعُ المقدّسُ الذي يسير على خطى المجمَعِ الفاتيكاني الأوّل ويعلن أنّ يسوعَ المسيح، الراعي الأبديّ، أسّسَ كنيسته المُقدّسة بعد أن أرسلَ الرسل، كما كان هو نفسه مرسلًا من قبل الآب. وشاءَ أن يكون خلفاؤُهم، أي الأساقفة، رعاةً في كنيسته حتى انقضاء الدهر».[٩] إذًا، ذُكر فيه أنّ جميع أساقفة الكنيسة هم خلفاءُ الرسل، أي أنّ البابا هو خليفة بطرس، الأوّل بين الرسل، والأساقفةَ هم خلفاءُ الرسلِ الآخرين. وهكذا، فإنّ الأساقفة ليسوا «أُجَرَاءَ»، كما أعلنَ بسمارك؛ بل هم بالأحرى أشخاصٌ أهميّتُهم كأهمّيَّةِ الرسل الآخرين

الذين خدموا تحت قيادة بطرس.

ثانيًا، أعلنَ المجمعُ أنّ سلطةَ الأسقف هي بالرسامة والتكريس، وليس بالتثبيت أو التعيين البابويّ: «من أجل القيام بمثل هذه الواجبات العظيمة، أغنى المسيحُ الرسلَ بانسكابٍ خاصّ من الروح القدُس الذي حلّ عليهم، ونقلوا هذه الهبَةَ الروحيّة إلى مساعديهم بوضع الأيدي، وقد تمَّ نقلها إلينا عبر الرسامة الأسقفيّة. ويُعلّمُ المجمع المقدّس أنّ مِلءَ سِرِّ الكهنوت يُمنح بالرسامة الأسقفيّة، ويعلّم أنّ ملءَ القوّة، وبشكلٍ خاصّ في الممارسة الليتورجيّة للكنيسة وفي كلام آباء الكنيسة، تُدعى الكهنوت الأعلى، القوّة العليا للخدمة المقدّسة».[١٠] لماذا بذل المجمعُ كلّ هذا الجهد ليعلّم أنّ سلطةَ منصب الأسقف تكمن في سِرِّ الكهنوت؟ حدثَ هذا لأنّ الهدفَ منه كان إظهارَ أنّ سلطة الأساقفة وسلطانَهم هما من الله من خلال الأسرار وليس من السلطةِ البابويّة.

ثالثًا، قال المجمع: «على الرغم من أنّ الأساقفة كأفرادٍ لا يتمتّعون بامتياز العِصمَة، فإنّهم مع ذلك يُعلنون عقيدة المسيح بشكلٍ معصوم من الخطأ في كلّ مرّة، على الرغم من انتشارهم في جميع أنحاء العالم، ولكنّهم ما زالوا يحافظون على رِباطِ الشركة فيما بينهم ومع خليفةِ بطرس، ويعلّمون مسائلَ الإيمان والأخلاق بأصالة، إلّا أنّهم متّفقون على موقفٍ واحدٍ يجب الالتزامُ به بشكلٍ نهائيٍّ».[١١] لذلك، بينما يتمّتعُ البابا بامتياز العِصمَة، إلّا أنّ الأساقفة كأفراد لا يتمتّعون بها. ومع ذلك، يُمكنُ للأساقفة إعلانُ العقيدَةِ المسيحيّة بشكل معصوم من الخطأ- إن كانوا متّحدين مع البابا، أو إن كانوا متّفقين على وجهةِ نظرٍ واحدة، أو مُتّفقين مع البابا في مجمَعٍ مسكونيٍّ. في ظلِّ هذه

الظّروف، هم يشاركون بشكلٍ أو بآخرَ في العِصمَةِ مع البابا. مفهوم العِصمَة إذًا هو مفهومٌ جماعيٌّ مشترك، وليس مفهومًا فرديًّا، بعكس البابا الذي هو معصومٌ بشكلٍ منفرد.

لهذا التعليم آثارٌ عديدة. أوّلًا، لعِصمَةِ البابا حدود. أسبقيّة البابا موجودة، ولكنّها ليست مُطلقة. فهنالك أشياءُ معيّنة لا يجوز للبابا أن يفعلَها بموجب القانون الكنسيّ. على سبيل المثال، لا يمكنُه إلغاءُ الأسقفيَّة بقرارٍ أحاديّ، أو استغلالُ منصب وخدمة الأساقفة. لا يستطيع كتابَةَ رسالةٍ عامّةٍ والادّعاء أنّه قرّرَ بعصمَتِهِ وضعَ حَدٍّ لمنصبِ الأساقفة والاستغناء عنهم. ولو حاول البابا القيام بذلك، فبإمكان الكنيسة أن تعزلَه، لأنّ الفكرة منذ المجمع الفاتيكاني الثاني هي أنّ عصمَةَ البابا هي سِمَةٌ محلّيّةٌ تمتدُّ إلى الكنيسة بكاملِها. العِصمَةُ مُركّزَةٌ عليه، لكنّها لا تستقرّ فيه بشكلٍ جوهريّ.

ثانيًا، سلطة البابا ليست تعسّفيَّةً. يجب أن يُنظرَ إلى البابويّة على أنّها خدمة وليست سُلطة. أشار المجمع الفاتيكاني الأوّل إلى البابا على أنّه رأسُ جسَدِ المسيح أو رأسُ الكنيسة. لكن، إذا كان المسيحُ هو رأسَ الكنيسة، فكيف يمكن للبابا أن يكون رأسَ الكنيسة أيضًا؟ ألا يكون البابا بذلك يتعدّى على المقام أو المنصب الذي أُعطيَ للمسيح وحده؟ لهذا ذكَرَ المجمَعُ الفاتيكانيّ الثاني البابا باعتباره راعيَ القطيع أو نائبَ المسيح أو رأسَ المسيح على الأرض. وبهذا المعنى، يكون البابا رأسَ الكنيسة كمُمثّلٍ أو بديلٍ عن قيادة يسوع؛ وهكذا يبقى المسيح بالطبع رأسَ الكنيسَةِ الحقيقيّ.

ثالثًا، يشتركُ البابا مع الأساقفَةِ في مسؤوليّتِهِم كزُملاء عن إدارة الكنيسة. ويجبُ ألّا يكون حكمُه من جانب واحد بدون استشارة الأساقفة.

## التأكيداتُ الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة

تواصلُ الكنيسَةُ الكاثوليكيّة تأكيدَ هذه التعاليم، إذ ينُصُّ التعليمُ المسيحيُّ للكنيسَةِ الكاثوليكيّة (إصدار عام ١٩٩٥) على التالي:

> «هذه العصمَةُ يتمتّعُ بها الحِبرُ الرومانيّ، رئيسُ هيئة الأساقفة، بحكم مهمَّتِه بالذات، عندما، بصفةِ كونِه راعيًا ومعلّمًا أعلى لجميع المؤمنين ومكلفاً بتثبيتِ إخوتِهِ في الإيمان، يعلنُ، بتصميم مطلق، مادّةً عقائديّةً تتعلّقُ بالإيمان والآداب... والعصمة التي وُعدت بها الكنيسة مستقرّة أيضًا في هيئة الأساقفة عندما تمارسُ سلطانَها التعليميَّ الأعلى بالاتّحاد مع خليفةِ بطرس ولا سيّما في مجمعٍ مسكونيٍّ. فعندما تعرض الكنيسَة، بواسطة سلطتِها التعليميّة العُليا، شيئًا، «للإيمان به على أنّه موحًى به من عند الله» وعلى أنّه من تعليمِ المسيح، «يجب قبولُ مثل هذه التحديدات بطاعَةِ الإيمان». وهذه العِصمَة تمتدُّ بامتداد وديعَةِ الوحي الإلهيّ نفسِها». (القسم ٨٩١)

كُتبَت إقراراتُ وعقائدُ الإصلاح العظيمة قبل صياغةِ عقيدة العِصمَة

البابويّـة، لكـن مـن المُهـمّ أن نتذكّـرَ مـا اعتقـده الإصلاحيّون عـن البابويّة. يقـول إقرارُ إيمان وستمنسـتر:

> الكنيسَـةُ الجامعَـةُ أو العامّة، التي هي غيـرُ المنظورة، تتألّفُ من كلّ عـددِ المختاريـن، الذيـن قـد تمَّ ضمُّهـم، أو هـم منضمّون، أو سـيتمُّ ضمُّهـم إلـى واحدٍ، تحت المسـيح رأسِـها؛ وهـي العروسُ، الجَسَـدُ، مِـلءُ الذي يمـلأ الكلَّ في الـكلّ. (٢٥: ١)
>
> ليـس هنـاك أي رأسٍ آخرَ للكنيسَـةِ سـوى الربِّ يسـوع المسـيح. ولا يُمكـن لبابـا رومـا، بـأيّ حالٍ مـن الأحوال، أن يكون رأسًـا لها. (٢٥: ٦)

مـن الجيّـد أن نتذكّـرَ أن رجُـلًا واحـدًا فقـط تكلّم بشـكلٍ معصوم عن الخطـأ وهـو ربّنـا يسـوع، الـذي هـو وحـده رأسُ كنيسَـتِهِ. لنَقبـلْ كلمَتَـه - الكتـاب المقـدّس - علـى أنّهـا النَـصُّ الوحيـدُ المعصوم مـن الله.

## الفصل ٦

# مَريَم

أحدثتْ وجهَةُ نظر الكاثوليك لمَريَم، والدة يسوع، الكثيرَ من الجَدَل والنقاش ليس فقط بين البروتستانت والكاثوليك، ولكن أيضًا داخل الكنيسَةِ الكاثوليكيّة. كما هي الحال مع عقيدة العِصمة البابويّة، لم يتمَّ تحديدُ العديد من تعاليم الكاثوليك عن اللاهوتِ المَريميّ رسميًّا إلّا بعد فترة الإصلاح. في الواقع، فيما يختصّ بمَريم، تمَّ وضعُ معظم التحديدات والتعريفات في عام ١٨٥٤، ومرّة أخرى في عام ١٩٥٠. ومع ذلك، فإنّ الانشغال بشخصِ وعمَلِ مريَم هو من أقدم التقاليد في كنيسة روما الكاثوليكيّة. من السهل جدًّا تمييزُ المظاهر الشعبيّة لعبادة مريم داخل الكنيسة الكاثوليكيَّة، وبالإمكان الرؤيَةُ بشكلٍ أوضحَ مظاهرَ تبجيلِ الكنيسَة لمَريَم في الفنّ، حيث تُهيمن لوحةُ مادونا على فنِّ العصور الوسطى وإلى حدٍّ ما على فنّ عصر النهضَة. غالبًا ما تكون اللوحة الفنيّة رسمًا لمادونا والطفل، أو مادونا وهي تساعد في إنزالِ المَسيح عن الصليب. ويوجد في الفاتيكان لوحة جداريّة

خلّابـة تَظهـرُ فيهـا مادونا مرفّعـة ومبَجَّلة، حيث المسـيحُ والآب جالسَـيْن علـى جانبَـي مريَـم. كمـا نـرى عبـر التاريـخ، أنّ الكنيسـة تحتفـلُ بمريَـم مـن خـلال الموسـيقى والترنيـم، إذ تـمَّ تخصيصُ عـدّةِ تراتيل لها، أشـهرُها «آفـي ماريـا» أو «السـلامُ عليـك يـا مريَـم».

تـمّ تكريـسُ عدَدٍ من المـزارات لتكريم مريَم في جميـعِ أنحاءِ العالم. هنالـك نوعـان من الأضرحـة. النوعُ الأوّلُ هو الأضرحـة الخاصّة التي كانت تحظـى بشَـعبيّةٍ كبيـرَةٍ فـي العقـود السـابقة. وفي وقـتٍ من الأوقـات، لم تكـن الأسـرَةُ الكاثوليكيّـة تُعتبَـر بأنّهـا تقـوم بواجباتِهـا الدينيّـة الكاملة ما لـم يكـن لديهـا مـزارٌ ما في حديقـة المنـزل، أو تمثالٌ لمريَم فـي الفناء، أو مـكانٌ خـاصّ للاحتفـال بهـا. النـوعُ الثاني هو المـزاراتُ العامّـة التي يُمكن للنّـاس أن يحجّـوا إليهـا، والتـي من خلالها يمكن للشّـخص الـذي بدأ عمليّة التوبـة أن يكسـبَ رضى الله وتكفيـرًا لخطاياه.

مـزارُ فاطيمـا فـي البرتغـال هـو مـن أشـهر المـزاراتِ العامّـة، حيـث يُقـال إنَّ مريـمَ ظهـرت لثلاثـةِ أطفـالٍ رُعـاةٍ في عـام ١٩١٧. يُقـال أيضًا إنّه فـي صيـف ذلـك العام، شـهدَ حشـدٌ كبير مـن الناس ما يُسـمّى بــ «معجزة الشـمس،» حيـث بـدت الشـمسُ وكأنّهـا ترقـصُ فـي السـماء ويصـدرُ منها ألـوانٌ متعـدّدة. قـال العديدُ من الأشـخاص الذين زاروا مزارَ سـيّدةِ فاطيما إنّهـم اختبـروا شـفاءً عجائبيًّا.

يوجـد مـزارٌ عـامّ شـهيرٌ آخـرُ في لـورد في فرنسـا، حيث ذكـرت فتاةٌ مراهقـة اسـمُها برناديـت سـوبيروس، أنّ امـرأةً جميلـة ظهـرت لهـا عـدّة مـرَّات فـي عـام ١٨٥٨. يعتقـد الكاثوليـك أنّ هـذه المـرأة كانـت مريَـم،

على الرغم من أنّها لم تُعرِّف عن نفسِها على هذا النحو. ومع ذلك، أَطلَقتِ المرأة في إحدى هذه الظهورات على نفسِها اسمَ «الحَبَل بلا دنس». من المثير للاهتمام أنَّ البابا پيوس التاسع أصدر عقيدة الحَبَل بلا دنس- التي سأذكرُ المزيد عنها أدناه - في عام ١٨٥٤، أي قبل أربع سنوات من رؤى برناديت في لورد.

يمكن التكلّم أكثر عن النظرة الشعبيّة لمريَم، إذ تُقام الاحتفالاتُ على شرَفِها بانتظامٍ داخل الكنيسة، بما في ذلك عيدُ الحَبَل بلا دنس في ٨ كانون الأوّل\ديسمبر. وقد تمَّت تسميَةُ عددٍ لا يحصى من المدارس والكنائس على شرفِها، وكذلك الأخويّات الإرساليّة والرَهبنات وما إلى ذلك. هي، على أقلّ تقدير، شخصيّة رئيسيّة في إيمان الكاثوليك العاديّين.

## «السلام عليكِ يا مريم، يا مُمتلئَةً نعمَة»

أحدُ جوانب تكريم وتبجيل الكاثوليك لمريَم هو سلسلة الصلوات التي تتكوّن منها المسبَحَة الوَرديّة. تقعُ «السلام عليكِ يا مريم» في قلب المسبَحَة الوَرديّة. وصياغتُها التقليدية هي كما يلي: «السلامُ عليكِ يا مريم، يا ممتلئةً نعمَة، الربُّ معك. مباركة أنتِ بين النساء ومباركة ثمرَةُ بطنِكِ سيّدُنا يسوع المسيح. يا قدّيسة مريم، يا والدَةَ الله، صلّي لأجلنا نحن الخطأة، الآن وفي ساعَةِ موتِنا. آمين». بينما أبدأ في تحليل وجهة نظر الكاثوليك لمريَم، أودُّ أن ألقيَ نظرةً فاحصة على هذه الكلمات. وعندما أفعل ذلك، سنبدأ في رؤية الخطوط العريضة للجَدَل القائم بين البروتستانتيّة والكاثوليكيّة.

هـذه الكلمـات «السـلامُ عليـكِ يا مريَم، يـا ممتلئَةً نعمَـة، الربُّ معك. مباركـة أنـتِ بيـن النسـاء، ومباركـة ثمـرَةُ بطنِـك، يسـوع» مأخـوذة مـن الكتـاب المقـدّس. تتضمّـنُ هـذه الجملـة كلمـاتِ المـلاك التـي مـن خلالها أعلـنَ لمريَـمَ عـن خطّـةِ اللـه (لوقـا ١: ٢٨)، كمـا تتضمّن كلمـاتِ أليصابات عندمـا اسـتقبلت مريم (الآيـة ٤٢). وبالتالـي، لا يُمكن لهـذه الكلمات بحدٍّ ذاتِها أن تكون مكروهة بالنسـبة للبروتسـتانت الذين يتمسّـكونَ بسـلطان الكتـاب المقـدّس. ومـع ذلـك، فـإنّ اسـتخدام الكلمـات علـى شـكلِ صـلاةٍ يثيـرُ لدينـا الكثيـرَ من التسـاؤُلات.

أمّـا الجملـةُ الثانيـة من «السـلام عليكِ يـا مريم» فيوجد فيها إشـكاليّة أكبـر: «يـا قدّيسَـة مريـم، يـا والـدَةَ اللـه، صلّـي لأجلنا نحـن الخطـأة، الآن وفـي سـاعةِ مَوتِنـا. آميـن». لا يعتـرضُ البروتسـتانت علـى تسـميةِ مريـم بالـ«قدّيسَـة»، فنحـن نُشـيرُ إلـى المؤمنيـن على أنّهـم «قدّيسـون» بمعنى أنهـم مُفـرَزون أو مُكرّسـون. كلُّ المسـيحيّين «قدّيسـون» بهـذا المعنـى. وبالتالـي، القـول بـأنّ مريَـم «قدّيسَـة» لا يعنـي بالضـرورة أنّنـا نعبدُهـا.

ومـاذا عـن عبـارة «والدة اللـه»؟ أعطى مجمَعُ أفسـس (عـام ٤٣١م.) لمريَـمَ اللقـبَ اليونانـيَّ «*Theotokos*»، والـذي يعني حرفيًّـا «حاملَ الله» أو «الـذي يَلِـدُ اللـه». إذا نظرنـا إليهـا بشـكلٍ غيـر حرفـيّ، فهـي تُترجَـم عـادةً إلـى «والـدة اللـه». تـمّ التصديـقُ علـى هـذا اللقـب فـي مجمـع خلقيدونيّـة (عـام ٤٥١ م.)، وهـو المجمـعُ المسـكونيُّ الوحيـد الـذي تُقـرُّ بـه تقريبًـا كلّ كنيسَـةٍ منطويـةٍ فـي مجمـع الكنائـس العالمـيّ. لكـن مـاذا يعنـي هـذا اللقـبُ بالفِعل؟

في زمن مجمَع أفسُس، كانت كلمة «*Theotokos*» تعني أنَّ مريمَ هي والدَةُ الله، ولكن ليس بمعنى أنّ يسوع حصلَ على طبيعتِه الإلهيّة من مريم بأيِّ شكلٍ من الأشكال. هذا يعني ببساطة أنّ مريم، كونَها والدَةَ يسوع، كانت والدَةَ الله بهذا المعنى: يسوع هو الله، ومريمُ هي والدتُه بطبيعتِهِ البشَريّة. لم يكن هناك التباسٌ في مجمع أفسُس أو في مجمع خلقيدونيّة في أنّه كان يُفترَض من هذا اللقب أن ينسبَ أيَّ فكرةٍ ألوهيّةٍ إلى مريَم. لقد أوضح ببساطة حقيقة أنّها كانت الأمَّ الأرضيَّةَ للذي كان اللهَ المتجَسِّدَ. قدّم المؤرّخ المسيحيّ ياروسلاف پيليكان ترجمَةً رائعة لكلمة «*Theotokos*»، وهي ترجمة تُعبّرُ بدقّةٍ عن الفهم التاريخيّ للكلمة: «الشخصُ الذي يلدُ الشخصَ الذي هو الله».[١] (أو: الإنسانُ الذي يلدُ الإنسانَ الذي هو الله) بالنظر إلى هذا المفهوم، لم يكن هناك أيُّ اعتراضٍ بروتستانتيٍّ رَسميٍّ على لقب «والدَة الله». يمكن بالتأكيد أن يُفهَمَ على أنّه يعني أكثرَ بكثير ممّا كان يُعنى به في مجمَعِ أفسُس وفي مجمع خلقيدونيّة، لكن الكلمات في حدِّ ذاتِها لم تكن مدعاةً للجَدَل.

تنتهي «السلامُ عليكِ يا مريَم» بالتضرّع إلى مريَم لكي «تصلّي لأجلنا نحن الخطأة، الآن وفي ساعَةِ مَوتِنا». وهنا لدينا مشكلةٌ مع هذه العبارة. إنّ إسنادَ عمَلِ الشفاعة إلى مريَمَ يثير اعتراضاتِ الغالبيّةِ الساحقة من البروتستانت، فهم يقولون إنّ اعتبارَ مريم كشَخصٍ يتشفّعُ لنا الآن أو عند مَمَاتِنا يجعل منها وسيطًا لفدائنا. بشكلٍ عامّ، تصرُّ الكنيسة البروتستانتيّة على أنّ يسوع هو الوسيطُ الوحيدُ بين الله والناس (١ تيموثاوس ٢: ٥)، علمًا أنّ الروحَ القدُس يشفعُ فينا أيضًا

(رومية ٨: ٢٦).

## تصريحاتٌ عن مريم

مع هذه الخلفيّة التي استعرضناها، أودُّ أن ألقيَ الآنَ نظرةً على تصريحاتِ الكنيسة الرسميّة فيما يختصُّ بمَريم. كما أشرتُ سابقًا، إنّ الكثيرَ من التعاليم الرسميّة عن مريم هي حديثةٌ جدًّا، لكنّها لم تظهر بشكلٍ مفاجئ؛ بل كان هنالك تاريخٌ طويلٌ تطوّرت عبرَه فكرَةُ تبجيل مريم داخل الكنيسةِ الكاثوليكيّة.

اسمحوا لي أن أبدأ بعقيدَةِ «الحَبَل بلا دنس» المذكورة أعلاه. تمّ إعلانُ هذه العقيدة بشكلٍ رسميٍّ في رسالةٍ بابويّةٍ عامّة عام ١٨٥٤. يعتقد العديدُ من البروتستانت أنّ «الحَبَل بلا دنس» هي إشارَةٌ إلى ولادَةِ المسيح العُذريّة. ومع ذلك، فإنّ عقيدة الولادة العُذريّة كانت عقيدَةَ كلّ المسيحيّين منذ الأيّام الأولى للكنيسة، وهي عقيدةٌ يشتركُ البروتستانت فيها بفرَحٍ مع الكاثوليك، لذلك لم يكن هناك حاجة أن يؤكّدَها البابا پيوس التاسع بشكلٍ رَسميٍّ في عام ١٨٥٤. في الواقع، إنّ عقيدَةَ «الحَبَل بلا دنس» لها علاقة بحَبَل مريمَ نفسِها وهو الإيمانُ بأنّ مريَمَ لم ترِثِ الخطيئَةَ الأصليّةَ عندما حَبِلَت بها أمُّها، فعاشت حياةً طاهرَةً بلا خطيئَة.

لقد أثارت هذه العقيدةُ بالتأكيد اعتراضاتٍ شديدةً من البروتستانت. فلو كانت مريمُ بلا خطيئَةٍ، فهي ليست بحاجة إلى من يفديها. وأيضًا، لو كانت بلا خطيئة، لكانت هي نفسُها مناسبَةً لتفديَنا

إلى حدٍّ ما. في الواقع، غذّتْ هذه العقيدة وجهة النظَر القائلة بأنّ مريم هي شريكَةٌ في الفداء في الأوساطِ الكاثوليكيّة، وبأنّها شاركت في عمليّةِ الفداء. لم تعترف الكنيسَةُ الكاثوليكيّة بشكلٍ رَسميٍّ بهذا اللقب، وهو محلُّ نزاعٍ كبيرٍ في روما، لكنّ الكثيرين يتبنّون وجهة النظَر هذه عن مريَم.

رفضَ عالمُ اللاهوت الأعلى في كنيسة روما الكاثوليكيّة، الدكتور أنجيليكوس، توما الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤) فكرة أنّ مريم كانت بلا خطيئةٍ في أيّامِه. تُظهرُ حقيقةُ كتابة توما عن هذه الفكرة أنّه كانت هناك حرَكةٌ عامّة منذ العصور الوسطى لاعتبار مريَمَ بلا خطيئة. اتّخذَ توما موقفَه ضدّ هذا التعليم استنادًا على كلمات مريم في تسبيحَتِها: «تُعَظِّمُ نَفْسِي ٱلرَّبَّ، وَتَبْتَهِجُ رُوحِي بِٱللهِ مُخَلِّصِي» (لوقا ١: ٤٦-٤٧). قال توما إنّ مريمَ اعترفتْ في تسبيحَةِ الشكر هذه الموحى بها من الروح القدُس بحاجتِها إلى مُخلّص، مُشيرَةً إلى أنّها كانت خاطئة. لذلك، واجهت كنيسة روما الكاثوليكيّة موقفًا مُحرجًا بإنكارِ عالِمِها اللاهوتيّ الأعلى فيها هذه العقيدَةَ.

كيف كان رَدُّ الكنيسة؟ أوّلًا، قالت روما إنّ توما تحدّثَ قبل تحديد العقيدة. لقد كان بالتأكيد عالمَ لاهوتٍ عظيمًا، لكنّه لم يكن معصومًا من الخطأ، ولو قُدّر له أن يرى كيف حدّدت الكنيسةُ عقيدَةَ «الحَبَل بلا دنس»، لصدّقها على أساس «*fide implicitum*»، أي على أساس الإيمان الضمني بكلّ ما تُعلنُه الكنيسة. ثانيًا، كان هنالك اقتراحٌ بأنّه ربّما كان مُخطئًا فيما قال، فقد أشارَ مُفسّرو الكتاب المقدّس في روما إلى أنّ مُصطلح «مُخلّص» لا يعني دائمًا الشخصَ الذي يُخلّصُ من الخطيئة، إذ

يمكـن للإنسـان أن يُخلَّـصَ من أشـياءَ أخـرى، ويمكن فهمُ الخـلاص بمعنًى أوسـعَ بكثيـر، كاختبـار فوائـدَ موهوبـةٍ مـن اللـه. فـي الواقـع، نالـت مريم فوائـدَ عظيمـة، وبهـذا المعنـى كان اللـه مخلّصًـا لهـا، أي أنّـه كان مُنعِمًـا ومُحسِـنًا إليهـا حيـن أعطاهـا بـركاتٍ خاصّـة لـم يعْطِهـا لأيّ شـخص آخـر. هـذا تفسـيرٌ مُحتَمَـل لذلـك المقطـع مـن تسـبيحَةِ مريـم، علـى الرغم من أنّنـي أعتقـدُ أنّـه لا يُمكـن تحميـلُ هذا التفسـير لهـذا المقطـع لغويًّا.

فـي عـام ١٩٥٠، فـي الدسـتور الرسـولي بعنـوان «*Munificentissimus Deus*» أي «اللـه الأكثـرُ جـودًا»، حدّد البابا پـيوس الثانـي عشَـر عقيـدَةَ انتقـالِ مريـم بالجسَـد إلـى السـماء وبأنّهـا شـاركت بالفِعـل مشـاركةً كاملـة فـي قيامَـةِ الجسَـد، الأمرُ الـذي يتطلّعُ إليـه جَميعُ المؤمنين. وبالمثل، في عام ١٩٥٤، أصدرَ البابا پـيوس رسـالةً عامّةً بعنوان «*Ad Caeli Reginam*» أي «ملكة السـماء»، والتي أسّسـت للاحتفال بعيدِ الملكـة مريـم، كمـا كانـت بمثابة تعليمٍ رَسـميٍّ للكنيسـة بأنّ مريَـمَ تَحكُمُ كملكـةٍ للسّـماء جنبًـا إلـى جنب مـع ابنِها الملك يسـوع.

## دعوة إلى تبجيل مريم

جـاءَت الدعـوةُ إلـى تبجيلِ مريـم من أعلى مسـتوياتِ الكنيسَـة. ربّما تكـون هـذه الفكـرة مأخوذةً مباشـرةً مـن الرسـالة البابويّة العامّـة بعنوان «*Mystici Corporis Christi*» للبابـا پـيوس الثانـي عشـر عـام ١٩٤٣، أي «جسَـد المسـيح السِـرِّي». قال پـيوس في نهاية الرسـالة:

أخوتـي الموَقّريـن، فلتسـمَعِ العذراءُ، والـدةُ الله، صلـواتِ قلوبِنا

الأبويّـة - التـي هـي صلاتُكـم أيضًـا – ولتُعـطِ الجميـعَ المحبّـةَ الحقيقيّةَ للكنيسـة – هي التـي امتلأت روحُها غيرُ الخاطئة بروح يسـوع المسـيح الإلهيّ فوق كلّ النفوس المخلوقة الأخرى، والتي «باسـم الجنس البشَـريّ كلّـه» وافقت على «الـزَّواج الروحي بين ابـن اللـه والطبيعـة البشَـريّة». فـي بطنِها العُـذريّ، حملَ سـيّدُنا المسـيح لقـبَ رأسِ الكنيسـة الفائـق. وفـي ولادةٍ رائعـةٍ أنجبتْـه كمصـدر لـكلِّ حيـاةٍ خارقـةٍ للطبيعـة، وقدّمتـه طفلًا ونبيًّـا وملكًا وكاهنًـا لأولئـك الذيـن كانـوا، مـن اليهـود والأمـم، أوّلَ مـن أتـى ليعبـدوه. إنّ ابنَهـا الوحيـد، اسـتجابةً لطلبِهـا فـي «قانـا الجليل»، صنـع المعجـزَةَ التـي بواسـطتِها «آمـنَ بـه تلاميـذُه». لقـد كانت هـي، حـوّاءُ الثانيـة، خاليـةً مـن كلّ خطيئـة، أصليّـة أو شَـخصيّة، ومتّحـدة دائمًـا اتّحـادًا وثيقًا مـع ابنِها، مقدّمة إيّـاه على الجلجثة إلـى الآبِ الأزلـيِّ مـن أجل جميع أبنـاء آدم، الملطّخين بالخطيئة بسـبب سـقوط آدم المؤسـف، وحقـوقُ أمومتِهـا ومَحبّتِهـا كانت مشـمولةً فـي الصليب».[٢]

مـاذا قصـدَ پـيوس عندمـا أكّـدَ أنَّ مريَـمَ «قدَّمَتـهُ علـى الجلجثـة إلـى الآبِ الأزلـيّ»؟ هـل كان يفكّـرُ فقط في تقديم الأم لابنِهـا كتضحيَةٍ؟ أم أنّه كان يفكّـرُ فـي التقدمَـةِ الكهنوتيّـة؟ إنْ كان الأمـرُ بـكلّ بسـاطةٍ تقدمَةَ الأم لابنِهـا، فـلا يسـعني إلّا القـول بـإنّ البابـا لـم يكـن حكيمًا بمـا فيـه الكفاية باسـتخدامِهِ كلمـة «قدّمَـت»، المُحمَّلـة بـدلالاتٍ لاهوتيّة.

وتابع پـيوس قائلًا: «هكذا هي التي كانت بحسـب الجسَـدِ أمَّ رأسِـنا،

مـن خـلال إضافةِ سـمَةِ الألـم والمَجد لها، أصبحت، بحسـب الـروح، والدةَ جميـع أعضائِـه».[٣] هـذا البيـانُ جعـلَ مـن مريـم والـدةَ الكنيسَـةِ وكذلـك والدةَ المَسـيح.

وأضـافَ: «هـي التـي نالـت من خـلال صلواتِهـا القويّـة أن يُمنَـحَ روحُ فادينـا الإلهـيّ، المقـدّمُ علـى الصليـب، والـذي يجـب أن يوهَـبَ، مصحوبًا بمواهـبَ عجائبيّـة، للكنيسَـةِ التـي تأسَّسَـت حديثًـا فـي يوم الخمسـين».[٤] من كان مسـؤولًا عن انسـكابِ الروح القدُس يوم الخمسين؟ وفقًا لپـيوس، صلـواتُ مريـم القويّـة هي التـي وهَبَتْ هـذه البَرَكة للكنيسَـة.

وتابـع قائـلًا: «أخيـرًا، لقـد تحمّلـتْ بشـجاعَةٍ وثقـةٍ العـبءَ الهائـلَ لأحزانِهـا ومآسـيها، إنّهـا حقًّا ملكةُ الشـهداء، أكثـرَ مـن كلّ المؤمنين مَلأتْ تلـك الأشـياءَ الناقصَـة فـي آلام المسـيح... لجسَـدِه الـذي هـو الكنيسـة؛ وتسـتمرُّ تقدّمُ لجسَـدِ المسـيح السِـرِّي ولقلبِ المخلّص المثقوب، الرعايَةَ الأموميّـة نفسَـها والحُبَّ الشـديدَ الـذي من خلاله رَعَـتْ وأطعَمَتِ الرضيع يسـوع فـي المَهـد».[٥] ما زالت مريم ترعى كنيسَـةَ يسـوع المسـيح بطريقةٍ مماثلـةٍ للرّعايـةِ التـي قدّمتهـا ليسـوعَ عندما كانـت تُطعمُـه وتغذّيه عندما كان رضيعًا.

وخَلُصَ پـيوس إلى القول:

> رجاؤُنـا بـأنّ الأمَّ الكلّيـةَ القداسَـة لجميـع أعضـاءِ المسـيح، التـي كرّسـنا لقلبهـا غيـر المدنّـس كلَّ البشـريّة، والتـي تَمْلُـكُ الآن في السـماء مـع ابنهـا، بجسـدها وروحهـا اللذَيْـن يتألّقـان بالمجـد

السماوي - رجاؤُنا ألّا تتوقّف أبدًا عن التضرّع إليه لكي تتدفّقَ تيّاراتُ النعمة الغزيرة من رأسه الممجّد إلى جميع أعضاءِ الجَسَد السِرِّي. رجاؤُنا أن ترميَ على الكنيسة اليوم، كما حصل في الماضي، رداءَ حمايتِها وتنالَ من لدنِ الله أن تتمكّنَ الكنيسَةُ وكلُّ البشَر من التمتّع أخيرًا بأيّام أكثر سلامًا.[٦]

أعتقد أنّ هذه الكلمات تعطينا صورَةً واضحةً عن تبجيلِ الكاثوليك لمريم.

## تشابيه مع الآخرين

ربّما لاحظتَ أنّ هذه الرسالة البابويّة العامّة أشارت إلى مريم على أنّها «حوّاءُ الثانية». هذا التشبيهُ شائع في تعاليم الكاثوليك. إنّه يعكس التشبيهَ الكتابيَّ بين المسيحِ آدَمِ الثاني وآدَمِ نفسِه. مثلًا، كتبَ بولس قائلًا: «فَإِذًا كَمَا بِخَطِيَّةٍ وَاحِدَةٍ صَارَ ٱلْحُكْمُ إِلَى جَمِيعِ ٱلنَّاسِ لِلدَّيْنُونَةِ، هَكَذَا بِبِرٍّ وَاحِدٍ صَارَتِ ٱلْهِبَةُ إِلَى جَمِيعِ ٱلنَّاسِ، لِتَبْرِيرِ ٱلْحَيَاةِ. لِأَنَّهُ كَمَا بِمَعْصِيَةِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْوَاحِدِ جُعِلَ ٱلْكَثِيرُونَ خُطَاةً، هَكَذَا أَيْضًا بِإِطَاعَةِ ٱلْوَاحِدِ سَيُجْعَلُ ٱلْكَثِيرُونَ أَبْرَارًا». (رومية ٥: ١٨-١٩).

تُشيرُ روما حين تتكلّم عن مريم على أنّها حَوّاءُ الثانية، وتُعلّم أنّه كما بعصيانِ امرأةٍ واحدةٍ دخل الدمارُ إلى العالم، هكذا أيضًا بطاعة امرأةٍ أخرى دخلَ الفداءُ إلى العالم. هنالك فكرَةٌ موازية بين والدَةِ الهلاك ووالدَةِ الفداء ووالدة الخطيئة ووالدة القداسة. ويُشير هذا إلى دَورٍ تمثيليّ لمريم، وهو أنّ مريَمَ لم تكن تعيش وتتصرّف فقط

مـن أجـل نفسِـها فحسـب، ولكـن أيضًـا مـن أجـل الجنـس البشَـريّ، تمامًـا كمـا فعلـت حـوّاء. وكمـا قـال البابا پـيوس الثاني عشَـر في رسـالتِهِ العامّة «*Mystici Corporis Christi*»، «قدّمـت مريـم [يسـوع] على الجلجثة إلى الآبِ الأزلـيِّ مـن **أجـل جميع أبنـاءِ آدَم**». كان هذا معاكسًـا لأداةِ الخطيئَة، أي الثمـرَة المحرّمَـة، التـي قدّمتهـا حـوّاءُ إلـى زوجِهـا، على الرغـم من أنّ هـذا الفعـل كان فعـلًا تمثيليًّـا للبشَـريّةِ جَمعاء.

تعلّـمُ رومـا أيضًـا تشـبيهًا آخـر بين مريـمَ وإبراهيم. فكمـا أنّ إبراهيمَ هـو أبُ المؤمنيـن (رومية ٤: ١١، ١٦)، تـرى كنيسـة رومـا الكاثوليكيّـة أنّ مريـمَ هـي أيضًـا أمُّ المؤمنين.

شُـبّهَتْ مريَـمُ أيضًـا بالمرأة المذكورة فـي رؤيا يوحنّـا ١٢، حيث نقرأ هناك:

> وَظَهَـرَتْ آيَـةٌ عَظِيمَـةٌ فِـي ٱلسَّـمَاءِ: ٱمْـرَأَةٌ مُتَسَـرْبِلَةٌ بِٱلشَّـمْسِ، وَٱلْقَمَـرُ تَحْـتَ رِجْلَيْهَـا، وَعَلَى رَأْسِـهَا إِكْلِيلٌ مِنِ ٱثْنَيْ عَشَـرَ كَوْكَبًا، وَهِـيَ حُبْلَـى تَصْـرُخُ مُتَمَخِّضَـةً وَمُتَوَجِّعَـةً لِتَلِـدَ. وَظَهَـرَتْ آيَـةٌ أُخْـرَى فِـي ٱلسَّـمَاءِ: هُـوَذَا تِنِّيـنٌ عَظِيـمٌ أَحْمَرُ، لَـهُ سَـبْعَةُ رُؤُوسٍ وَعَشَـرَةُ قُـرُونٍ، وَعَلَـى رُؤُوسِـهِ سَـبْعَةُ تِيجَـانٍ. وَذَنَبُـهُ يَجُـرُّ ثُلُثَ نُجُـومِ ٱلسَّـمَاءِ فَطَرَحَهَـا إِلَـى ٱلْأَرْضِ. وَٱلتِّنِّيـنُ وَقَفَ أَمَـامَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَتِيـدَةِ أَنْ تَلِـدَ، حَتَّـى يَبْتَلِـعَ وَلَدَهَـا مَتَـى وَلَـدَتْ. فَوَلَـدَتِ ٱبْنًـا ذَكَـرًا عَتِيـدًا أَنْ يَرْعَـى جَمِيـعَ ٱلْأُمَـمِ بِعَصًا مِـنْ حَدِيـدٍ. وَٱخْتُطِفَ وَلَدُهَـا إِلَـى ٱللهِ وَإِلَى عَرْشِـهِ، وَٱلْمَـرْأَةُ هَرَبَتْ إِلَـى ٱلْبَرِّيَّةِ، حَيْثُ لَهَـا مَوْضِـعٌ مُعَـدٌّ مِـنَ ٱللـهِ لِكَـيْ يَعُولُوهَـا هُنَـاكَ أَلْفًـا وَمِئَتَيْـنِ

وَسِتِّينَ يَوْمًا. (الأعداد ١-٦)

في دستوره الرسولي بعنوان «*Munificentissimus Deus*»، ربطَ البابا پيوس الثاني عشَر مريَمَ بهذه المرأة المجهولة، قائلًا: «إضافة إلى ذلك، اعترف الدكاترة السكولاستيّون بانتقال السيّدة العذراء، والدة الله، ليس فقط بدلالةٍ من شخصيّاتٍ مُختلفةٍ من العهد القديم، ولكن أيضًا من تلك المرأةِ المرتدية الشمسَ التي تأمّل فيها يوحنّا الرسول في جزيرة بطمس».[٧] تسبّبَ هذا البيانُ في قدرٍ كبيرٍ من الجَدَل بين علماء الكتاب المقدّس الكاثوليك، وانتقدَ العديدُ منهم البابا على هذا التعليم. ومع ذلك، يُعتَبَر هذا البيانُ بيانًا رسميًّا حول مريم.

## أمرُ مريم

ذُكرت فكرَةٌ كاثوليكيّة أخرى عن مريم في «*Mystici Corporis Christi*»، وهي عن أهمّيّة أمْرِ مريَم. نجدُ في لوقا ١ بشارة الملاك جبرائيل وما كان على وشكِ أن يحدُث. نقرأ هناك التالي:

> وَفِي ٱلشَّهْرِ ٱلسَّادِسِ أُرْسِلَ جِبْرَائِيلُ ٱلْمَلَاكُ مِنَ ٱللهِ إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ ٱلْجَلِيلِ ٱسْمُهَا نَاصِرَةُ، إِلَى عَذْرَاءَ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ ٱسْمُهُ يُوسُفُ. وَٱسْمُ ٱلْعَذْرَاءِ مَرْيَمُ. فَدَخَلَ إِلَيْهَا ٱلْمَلَاكُ وَقَالَ: «سَلَامٌ لَكِ أَيَّتُهَا ٱلْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! اَلرَّبُّ مَعَكِ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي ٱلنِّسَاءِ.» فَلَمَّا رَأَتْهُ ٱضْطَرَبَتْ مِنْ كَلَامِهِ، وَفَكَّرَتْ: «مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ ٱلتَّحِيَّةُ.» فَقَالَ لَهَا ٱلْمَلَاكُ: «لَا تَخَافِي يَا

مَرْيَمُ، لِأَنَّكِ قَدْ وَجَدْتِ نِعْمَةً عِنْدَ ٱللهِ. وَهَا أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ٱبْنًا وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ. هَذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَٱبْنَ ٱلْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ ٱلرَّبُّ ٱلْإِلَهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى ٱلْأَبَدِ، وَلَا يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ.» فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلَاكِ: «كَيْفَ يَكُونُ هَذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلًا؟» فَأَجَابَ ٱلْمَلَاكُ وَقَالَ لَهَا: «اَلرُّوحُ ٱلْقُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُوَّةُ ٱلْعَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، فَلِذَلِكَ أَيْضًا ٱلْقُدُّوسُ ٱلْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ٱبْنَ ٱللهِ. وَهُوَذَا أَلِيصَابَاتُ نَسِيبَتُكِ هِيَ أَيْضًا حُبْلَى بِٱبْنٍ فِي شَيْخُوخَتِهَا، وَهَذَا هُوَ ٱلشَّهْرُ ٱلسَّادِسُ لِتِلْكَ ٱلْمَدْعُوَّةِ عَاقِرًا، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَى ٱللهِ.» فَقَالَتْ مَرْيَمُ: «هُوَذَا أَنَا أَمَةُ ٱلرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ.» فَمَضَى مِنْ عِنْدِهَا ٱلْمَلَاكُ. (الأعداد ٢٦-٣٨)

يسجّلُ هذا المقطع ما تسمّيه الكنيسَةُ الكاثوليكيّة بـ «أمرِ مريَم»، والذي يُعتَبَر في بعض دوائر كنيسة روما الكاثوليكيّة بأنّه أهَمُّ دليلٍ كتابيّ يدعم فكرة أنّ مريم هي «Co-Redemptrix»، أي «شريكة بالفداء». ما هو هذا الأمر؟ إنّها الكلماتُ التي قالتها مريم عند سماعِها خطّة الربِّ لحياتِها: «هوذا أنا أَمَةُ الربّ. ليَكُن لي كقولِك».

فسّرَ البروتستانت هذه الآية عبر التاريخ على أنّها تعني بأنّ مريمَ خضعت بإرادتِها لإعلان الله. جاءَ الملاكُ وأعلنَ خطّة الله لمريم لتحملَ المخلّص. لقد ذكر الملاكُ ما رضيَ الله بالقيام به. وهكذا، أذعنت مريم بتواضعِها وطاعتِها، تمامًا كما ينبغي على أيّ ولدٍ من أولاد الله أن يُذعِنَ لمشيئةِ الله. كان هذا فعلًا من أفعال التواضع الفائق. قالت مريم: «إنْ

كانت هذه مشيئةَ الربّ، فأنا على استعداد للقيام بها». من وجهة النظر البروتستانتيّة، كانت مريم ببساطة توافقُ على مشيئةِ الربِّ لحياتِها، ولا يرَوْن في هذا الإعلان ما يُشيرُ إلى أنّ الملاك كان يطلبُ إذنَها.

بالنسبة إلى روما، إنّ كلمات مريم كانت أكثرَ من ذلك بكثير؛ لقد كانت أمرًا. فعندما قالت مريم: «ليكن»، فإنّ الكلمة اللاتينيّة المُستخدَمَة هنا هي «*fiat*»، وهي صيغةُ الأمر للفِعل «يكون». وفقًا لهذا الرأي، كانت مريم تقول: «ليكن هكذا». لقد كانت تصدرُ أمرًا، ولو أنّها لم تفعلْ ذلك لما تمّ الفداءُ على الأقلّ وفقًا لما يُسمّى بالموقف المتطرّف داخل كنيسة روما الكاثوليكيّة، أي أنّ كلّ عمل الفداء بيسوع المسيح، والتجسُّد بحدّ ذاته، كان مُعلّقًا على استجابةِ مريم. قد يعترف البروتستانت بأنّ الله لن ينتهِكَ قرار مريم أبدًا، وأنّه كان بإمكانِها نظريًّا أن تقول: «لا». لكنّ رفضَها بالتأكيد لم يكن ليَقضِيَ على كلّ أمَلٍ في فداءِ شَعبِ الله. أمّا من وجهةِ نظر الكاثوليك، كان لا بدّ أن تكونَ مريمُ من يحملَ المُخلّص. لماذا؟ لأنّها كانت المرأة الوحيدة في العالم الخالية من الخطيئة.

## المتطرّفون والمعتدلون

في الكاثوليكيّة المعاصرة، يدور نقاشٌ بين مجموعَتَين مريَميّتَين هما: المتطرّفون والمعتدلون، والفرق بسيطٌ بينهما. فالمتطرّفون يريدون إعطاءَ أهمّيّةٍ بالغَة لمريم في إطار الفداء، أمّا المعتدلون فلا يريدون الذّهاب إلى كلِّ هذا الحدّ.

كان لهذا الخلاف بين المجموعَتَيْن تأثيرٌ كبيرٌ على المجمع الفاتيكاني الثاني، وتحديدًا على تبنّي جدول الأعمال. قال البابا يوحنّا الثالث والعشرون إنّ الغرضَ من المجمع الفاتيكاني الثاني لم يكن تعريفَ العقيدة، إنّما كان هناك من أرادَ توضيحَ موقف الكنيسة رسميًّا فيما يتعلّق بمريَم في ضَوءِ جميع التصريحات التي تمَّ الإدلاءُ بها في القرنَيْن التاسع عشَر والعشرين.

دعا الكاردينال روڤينو سانتوس، رئيسُ أساقفة مانيلا بالفلبين، والذي يمثّلُ الجناحَ المحافظ للكنيسة، دعا المجمع إلى معالجة الأسئلة المتعلّقة بمريَم ضمنَ عِلم اللاهوت. ألقى الكاردينال فرانز كونيغ، رئيس أساقفة فيينا، الذي يمثّلُ الجناحَ الغربيّ الأكثر تقدّمًا، ألقى خطابًا دعا فيه إلى مناقشةِ موضوع مريم في إطار عِلمِ الكنيسَةِ بدلًا من عِلمِ اللاهوت. بعبارة أخرى، رأى كونيغ مريم كجزْءٍ من مفهوم الكنيسة وليس في الأمور الفرعيّة لفَهمِ الأمور المتعلّقةِ بالله واللاهوت، وهو فرق مهمٌّ للغاية. تمّ اعتمادُ اقتراح كونيغ بشكلٍ ضيّق. ولكن تذكّروا أنّ البابا كان قد أعلنَ سابقًا أنّه لا يريد أن يتعاملَ المجمَعُ مع الأمور اللاهوتيّة، لذلك يُحتمل أنّ بعض المتطرّفين صوّتوا مع المعتدلين على هذا الطلب احترامًا لطلب البابا. ومع ذلك، أرادَ ما يقرُبُ من نصفِ الممثّلين في المجمع الفاتيكاني الثاني التعاملَ مع مسألةِ مريم باعتبارها مسألةً لاهوتيّةً وليس مسألة كنسيّة.

هنالك العديدُ من الاختلافات بين المتطرّفين والمعتدلين، ولكنَّ الاختلافَ الأساسيّ هو هذا: يريد المتطرّفون التأكيد على أن مشاركة مريم في خلاصِنا كان من خلال الأمر الذي نطقت به، ومن خلال

تقديمِها للابـن. لقـد كانـا ضروريّيـن بشـكلٍ مُطلـق لكـي يتـمَّ التَجسُّـد والفـداء. لقـد اتّخذوا الموقـفَ القائل بأنّه بدون أمْرِ مريـم، لن يتمَّ الفداء. لذلـك، بمـا أنّ الفـداءَ يعتمـدُ بشـكلٍ كلـيٍّ ومطلـق علـى أمْرِ مريـم، يمكن أن يُطلَـقَ عليهـا لقـب «Co-Redemptrix»، أي شـريكة في الفـداء، وهذا مـن شـأنه أن يعطـيَ تعريفًـا إضافيًّـا للبيانـات البابويّة السـابقة حـول دَور مريـم فـي فـداء شـعب اللـه. علـى النقيض مـن ذلـك، يريـد المعتدلون أن يُنظَـرَ إلـى مريـم ليس على أنّها شـريكة بالفـداء، ولكن باعتبارهـا كنموذَجٍ كنسـيٍّ أعلـى أو كنمـوذجٍ للإيمـان، النمـوذج الأسـمى للإيمان المسـيحيّ.

لا يوجـد اعتـراضٌ مـن البروتسـتانت علـى اعتبـار أنّ مريَـمَ هـي مـن أفضـل نمـاذج الإيمـان، إن لـم تكـن أفضلَهـا. دُعيـتُ منـذ سـنواتٍ لألقـي عظـة فـي الكنيسـة بمناسـبة عيـد الأمّ، فكانـت عظتـي عـن مريـم. بعـد ذلـك، أخبرنـي الكثيـرُ مـن النـاس أنّهـم لـم يسـمعوا أبـدًا عظـة عـن مريَم أمّ المسـيح. لقـد سـمعوا مـن قبـل عظـاتٍ فـي عيـدِ الأمّ حـول والـدة أوغسـطينوس، ووالـدة مارتـن لوثـر، ووالـدة جـون كالفـن، وما إلـى ذلك. يبـدو أنّهم سـمعوا عـن جميعِهنّ ما عدا عن أمّ يسـوع. نحن البروتسـتانت نبـدو حريصيـن جـدًّا علـى إبعـاد أنفسِـنا عـن موقـف رومـا لدرجـة أنّنـا نفتقـدُ مثـالًا رائعًـا للتقـوى. أودُّ أن أتجـرأ وأقـول إنّه لا يوجد مثـالٌ أفضل للتقـوى مـن مثـال مريـم فـي كلّ الكتـاب المقـدّس. لا أريـد إقصاءَهـا عـن التـراث البروتسـتانتيّ. إنّهـا تخصُّنـا بقـدر مـا تخـصّ الآخريـن أيضًـا.

ومـع ذلـك، لا ينبغـي الخلطُ بين اسـتعداد البروتسـتانت لاعتبار مريَم كنمـوذَجٍ للإخـلاص مـع موقـف المعتدليـن عنـد الكاثوليـك. أولئـك الذين يتمسّـكون بموقـف المعتدليـن يؤكّـدون علـى عقائـدِ الحَبَـل بـلا دنـس

وانتقالِ مريم بالجسَد وتتويجِها. لذلك، حتى موقف المعتدلين بعيدٌ بأشواطٍ طويلةٍ عن وجهة النظر البروتستانتيّة.

## عِلمُ اللاهوت المَريَميّ أو الوثنيّ؟

السؤالُ الأساسيّ هو ما إذا كان الانشغالُ الكاثوليكيّ بمَريَم، أي تكريمُها والتعبُّدُ لها وما إلى ذلك، يعتبر إضافة إلى علم اللاهوت المريميّ أو الوثنيّ. إنّ عبادة أيّ إنسان، بغضّ النظَر عن قدوتِهِ أو إخلاصه أو برِّه، يُعتبَر من العبادات الوثنيّة. على الصعيد الرسميّ، لا تسمح الكنيسة الكاثوليكية بعبادة مريم، لكنّها تقتربُ جدًّا من عبادتِها. ترى روما أنّه يوجد فرق بين ما تسمّيه «لاتريا» و «دوليا». لاتريا، هي الكلمة اليونانيّة للعبادة، بينما دوليا هي الكلمة اليونانيّة للخدمة. إنَّ تقديمَ «لاتريا» لشخصٍ آخرَ غير الله هو عبادة وثنيّة. بينما تقديمُ «دوليا» هو ببساطة تقديم الخدمة، أو الولاء، أو التبجيل أو الوقار، والتي بالإمكان تقديمُها لغير الله. جعلت روما هذا التمييز نفسَه ينطبق على التماثيل أثناءَ الجَدَل الذي قام حول نقدِ الأيقونات والاعتراض عليها في عصر الإصلاح؛ قالت روما إنّه عندما ينحني الناس ويُصلّون أمام الصوَر والتماثيل، فهم لا يعبدونها، بل يقدّمون لها الخدمة، ويستخدمونها كوسيلةٍ لتحفيز عبادَتِهم. تُصِرُّ روما على أنّ ما يُقدَّمُ لمريم هو «دوليا»، وليس «لاتريا»؛ بالتالي، هي مُبجَّلة ولكنّها لا تُعبَد.

لكنّني أعتقدُ لأسبابٍ عمليّة كثيرة أنّه يمكنُني القول من دون أن أقلقَ البتّة بأن يُثبتَ أحدٌ خطأي، بأنّ الملايين من الكاثوليك يعبدون مريم اليوم. وهم بذلك يعتقدون أنّهم يفعلون ما تدعوهم الكنيسة

للقيام به. أقرُّ بأنّ هنالك تمييزًا تقنيًّا مشروعًا بين «لاتريا» و «دوليا»، بين العبادة والتبجيل، ولكن قد يكون من الصعب جدًّا تحديدُ الخطِّ الذي يفصِلُ بينهما. فعندما ينحني الناس أمام التماثيل، فهذا يُعتبَر من جوهر العبادة.

إنّ القضيَّة الجَدليّة الأكبَر في اللاهوت المَريميّ هي كفايةُ المسيح. في الحقيقة، هذا هو خلافُنا مع اللاهوت الكاثوليكيّ من بدايتِه إلى نهايتِه. فخلافُنا يتمحوَرُ حول عقيدة روما في الكتاب المقدّس وعقيدة التبرير، وحتّى هنا حول عقيدتهم في مَريَم. هل المسيح وحده هو ذبيحتُنا الكاملة؟ هل بذل نفسَه عن خطايا شعبه أم أمُّه هي التي قدّمته؟ هل فيه وحده يتمُّ فداؤُنا، أم كان عليه أن يعتمِدَ على تعاون والدته؟ يؤمن البروتستانت بأنّ المسيح وحده هو الذي يبرّرُنا. لا يقارن الكتابُ المقدّس البتّة بين حواءَ ومريم. بل يركّزُ على التشابه بين آدَمَ والمسيح، الذي كان وحده الذّبيحَة الكاملة لإلغاء ما تسبّب به آدم مرَّةً واحدة وإلى الأبد.

أخيرًا، هنالك مسألة إسخاتولوجيّة. تنصُّ عقيدة انتقال مريم بالجسَد إلى أنّ الله، بنعمتِه، أخذ مريم إلى السماء، حيث تشاركُ الآن في جميع الفوائد التي وعد بها المسيح شعبَه. تقول روما إنّ هذه العقيدة تؤكّد لنا مشاركتَنا في قيامة المسيح. لكن العهد الجديد يؤسّسُ ويؤكّدُ ضمانتَنا على قيامة يسوع. لسنا بحاجةٍ إلى مثالٍ آخر؛ نحن ببساطة نحتاج أن نؤمِنَ بوعود المسيح. من خلال هذا الادّعاء، تضيف روما إلى شهادَةِ العهد الجديد التي هي أساسُ ضمان الخلاص والفداء النهائيّ في المسيح. هذا من اختراع البشَر، وليس نتيجةَ تفسيرٍ لكلمة الله.

## تأكيداتٌ كاثوليكيّة وبروتستانتيّة

في التعليم المَسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة (١٩٩٥) الكثيرُ عن مريم. فيما يلي بعضُ التأكيدات التي تتطرّقُ إلى القضايا التي ناقشناها، وتكشفُ أنّ روما ما زالت متمسّكَةً بهذه المواقف غير الكتابيّة:

على مرّ العصور وَعتِ الكنيسَةُ أنّ مريَم «الممتلئة نعمَة» من الله، قد افتُدِيَتْ منذ حُبِل بها؟ هذا ما تعترف به عقيدة الحَبَل بلا دنس. (القسم ٤٩١)

«فالعذراءُ مريم... يُعترَفُ بها وتُكرّمُ حقًّا وحقيقَةً كوالدَةِ الإلَهِ والفادي... وهي أيضًا وحقًّا أمُّ أعضَاء المسيح... لاشتراكِها بمَحبّتِها في ميلادِ المؤمنين في الكنيسة الذين هم أعضاءُ هذا الرأس». (٩٦٣)

«أخيرًا فإنَّ العذراءَ الطاهرة، بعد أن عَصمَها اللهُ من كلِّ صلةٍ بالخطيئَةِ الأصليَّةِ، وطوَت شَوطَ حياتِها الأرضيَّة، نُقلَتْ جَسدًا وروحًا إلى مجد السماء، وأعلنها الربُّ سلطانَةَ الكونِ لتكونَ بذلك أكثرَ ما يكون الشبَهَ بابنِها، رَبِّ الأرباب، وقاهِرِ الخطيئة والموت». فانتقالُ القدّيسة العذراء اشتراكٌ فريدٌ في قيامَةِ ابنِها، واستباقٌ لقيامَةِ المسيحيّين الآخرين. (٩٦٦)

بخضوع مريم العذراء الدائم والكامل لإرادة الآب، وبممارساتِها لعَمَلِ ابنِها الفدائيّ، ولعمَل الروح القدُس كلّه، كانت للكنيسَةِ مثالَ الإيمان والمحبَّة. وهي بذلك «عضوٌ في الكنيسة فائقٌ

ووَحيـد»، بـل إنّها «التحقيـقُ المثاليُّ» للكنيسـة. (٩٦٧)

تسـتمرُّ أمومتُها هـذه، بـلا انقطـاع، فـي تدبيـر الخـلاص، إلى أن يكتمِـلَ نهائيًّـا جميـعُ المختاريـن؛ فإنّها بعـد انتقالِها إلى السـماء لـم تتوقَّـفْ مَهَمّتُهـا فـي عمَـلِ الخـلاص. إنّهـا بشـفاعتِها المتّصلة تسـتمرُّ فـي إمدادِنـا بالنعَـم التـي تضمَـنُ خلاصَنـا الأبـديّ... مـن أجـل ذلك تدعـى العذراءُ الطوباويّةُ في الكنيسـة بألقابٍ مختلفة هـي: «المُحاميـة، والنصيرة، والمحسـنة، والوَسـيطة». (٩٦٩)

«تكريـمُ الكنيسَـةِ للعـذراءِ المباركـة هـو جوهـري فـي العبـادة المسـيحيّة». «والعَـذراءُ المباركـة» تكرّمُها الكنيسـة بحـقٍّ إكرامًا خاصًّـا. والواقـع أنّ العـذراء المباركـة قـد كُرّمـت، منـذ أبعـد الأزمنـة، بلقـبِ «والـدَةِ اللـه»، والمؤمنـون يلـوذون بحمايتِهـا، مبتهليـن إليها في جميـع مخاطرهم وحاجاتِهـم... وهذا التكريم، وإن كان ذا طابـع فريـدٍ علـى الإطـلاق، غيـر أنّـه يختلـف اختلافًا جوهريًّـا عـن العبـادة التـي يُعبَـدُ بهـا الكلمـة المتجسّـد والآبُ والـروح القـدُس، وهـو خليـقٌ جـدًّا بـأن يعزّزَهـا». وهـو يجـد التعبيـرَ عنـه فـي الأعيـاد الطقسـيّة التـي خُصّـت بها والـدة الله، وفـي الصـلاة المَريميَّـة، كالورديّـةِ المقدّسـة، «خلاصـة الإنجيـل كلِّـه». (٩٧١)

منـذ أن قالـت مريـم «ليَكُـن» فـي يـوم البشـارة، وقبولُـها سِـرَّ التجَسُّـد، سـاهَمَت فـي العمَلِ كلّه الذي كان ابنُهـا مزمعًا أن يقومَ بـه. إنّهـا أمٌّ حيثمـا كان هـو مخلّصًـا ورأسًـا للجسَـدِ السِـرِّي. (٩٧٣)

بعدما أتمَّت مريمُ العذراء الكلّية القداسة حياتَها الأرضيّة، نُقِل جسدُها ونفسُها إلى مجد السماء، حيث تشترك في مجدِ قيامة ابنِها، مستبقةً قيامة جميع أعضاءِ جسده. (٩٧٤)

«إنّنا نعترفُ بأنّ والدَةَ الإله الكلّية القداسة، حوّاء الجديدة، أمُّ الكنيسَة، تواصل في السماء دورَها الأموميَّ في شأن أعضاءِ المسيح». (٩٧٥)

كان لدى المُصلحين البروتستانت القليلُ ليقولوه عن مريَم. إنّ فشلَهم في إعطائِها ما تستحقُّه كمثالٍ على التقوى هو بلا شكّ بسبب غيرَتِهم لتجنّبِ تجاوزاتِ روما. يذكرُ إقرارُ إيمان وستمنستر مريَمَ مرّةً واحدة، مُحافظًا على صَمتٍ بليغ في مواجهة جميع الأدوار الممنوحة لها في اللاهوت الكاثوليكيّ:

ابنُ الله، الأقنومُ الثاني في الثالوث، الكائنُ إلهًا حقًّا وسرمديًّا، من جوهر واحد ومتساوٍ مع الآب، أخذَ، لمّا جاءَ مِلءُ الزّمان، على نفسِه طبيعةَ الإنسان، بكلّ صفاتِها الجوهريّة، وضعفاتِها المشتركة، لكن من دون خطيّة؛ كونَه حُبلَ به بواسطة الروح القدُس، في رحم مريم العذراء، من جوهرها. في حين أنَّ طبيعتَيْن تامَّتَيْن، وكاملتَيْن، ومتميّزَتَيْن، اللاهوت والناسوت، اتّحدتا معًا بلا انفصال في شخص واحد، بدون تحوّل، أو تركيب، أو اختلاط. هذا الشخصُ هو إلهٌ حَقّ، وإنسانٌ حقّ، لكنّه مسيحٌ واحد، الوسيطُ الوَحيدُ بين الله والإنسان. (٨. ٢)

يمثّلُ الموقفُ الكاثوليكيُّ تجاه مريم إشكاليّةً كبيرة في نهج روما تجاه الإيمان المسيحيّ، بحيث تتجاوز تعاليمُها عن مريم تعاليمَ الكتاب المقدّس وتمثّلُ أفكارَ البشَر. علاوة على ذلك، هم يضربون بذلك أساسَ الإيمان البروتستانتيّ في الخلاص والتبرير بواسطةِ المسيح وحده. يجبُ أن يستمرَّ البروتستانت في الوقوفِ بحَزمٍ على مبدأ سولوس كريستوس (المسيحُ وحدَه).

## الخاتمَة

# كيف نتابعُ من هنا؟

لقـد اسـتخدمتُ عبـاراتٍ قويّـة فـي هـذا الكتـاب لأنّنـي أعتقـدُ أنّ أخطـاءَ الكنيسـة الكاثوليكيـةّ عميقـةٌ وذاتُ أهمّيَّـة. كمـا أشـرتُ فـي المقدّمـة. يُسـعدُني أن أشـارك الكاثوليـك فـي القضايـا الاجتماعيّـة، لكـن ليـس لدينا قضيّـة مشـترَكة فـي الإنجيـل، فقـد قوَّضَـت رومـا الإنجيـل بعقائدِهـا غيـرِ الكتابيّـة، وأنـا أؤمـنُ إيمانًا راسـخًا بأنّهـا «تعلّـمُ تعاليمَ هي وصايـا الناس» (متـى ١٥: ٩).

إذًا، كيف نمضي قُدمًا؟ كيف يجب أن نتعامَلَ مع الكاثوليك؟

أعتقـد أنّـه علينـا كأفـرادٍ أن نتواصَـلَ مـع الكاثوليـك. يجـب أن نحِبَّ أقرباءَنـا الموجوديـن في كنيسـة رومـا. يجب أن نصادِقَهـم ونقضي الوقتَ معهـم. فمـن خـلال القيـام بذلك، نكتسِـبُ الحَـقَّ في نقـدِ آرائِهـم بمَحبَّة.

ككنائـس، يجـب أن ندافـعَ عـن الإنجيـل الكتابـيّ، ولا شَـيءَ أكثـر من ذلـك. إنّهـا دعوَتُنـا بأن نرفعَ الحقيقـة ونفضح الباطل. تحقيقًـا لهذه الغاية،

مـن الضـروريّ أن نعـرف ونفهَـمَ مـاذا تعلّمُ رومـا، حتى نسـتطيع أن نميّزَ بيـن الأمـور. مـن المهـمّ تثقيفُ النـاس في مقاعد الكنيسـة حول مـا يؤمنُ بـه البروتسـتانت وما تعلّمُه كنيسـة رومـا الكاثوليكيّة.

علـى الرعـاة أن يكـرزوا بالإنجيـل وأن يشـيروا إلـى الطـرُق التـي يسـتخدِمُها النـاس لتحريفِـه، بمـا فـي ذلـك كنيسـة رومـا الكاثوليكيّـة. أنـا لا أقـول إنّـه علينـا أن نهاجِـمَ رومـا فـي كلِّ عِظـةٍ نلقيهـا، ولكـن بالنظـر إلـى الجاذبيّـة التـي تمارسُـها الكاثوليكيّـة علـى بعـض البروتسـتانت، فمن الضـروريّ الكشـفُ عـن أخطائهـا. مـن خـلال الكـرازة بالإنجيـل بأمانـة، سـيدافعُ الرعـاة عـن الإصـلاح.

عندمـا تجعلنا مشـاركتُنا في القضايـا الاجتماعيّة على اتّصـالٍ وصداقةٍ حميمـة مـع الكاثوليـك، فلا داعيَ للتراجـع. إنّهم أعضاءٌ في كنيسـة حوّرَتِ المعنـى الأصيـل للإنجيـل، لذلـك يجـب أن نصلّـيَ مـن أجلهـم ونسـعى لربحِهم للمسـيح.

كان بإمكانـي أن أقـولَ الكثيـر فـي هـذا الكتـاب عـن العديـدِ مـن الموضوعـاتِ الأخـرى المتعلّقـة بالمعتقـدات والممارسـات الكاثوليكيّـة التـي كان بإمكانـي تشـريحُها. ومـع ذلـك، آمـلُ أن يكـونَ هـذا الكتـابُ الصغيـرُ قـد عرّفـكَ علـى بعـض القضايـا التـي كانـت – ومـا زالـت - محـلَّ نـزاع بيـن البروتسـتانت والكاثوليك. أشـجّعُكَ علـى التعمّق أكثـر بمفردِكَ حتـى تصبحَ علـى درايـةٍ أكثـر فـي التعامـل مـع هـذه القضايـا وتفصيلهـا. هنـاك الكثيـر علـى المِحَـكّ، وهنـاك حاجـةٌ ماسّـة لعلمانيّيـن مثقّفيـن.

لـم ينتـهِ الإصـلاحُ بعـد. لا يمكنُـه أن ينتهـيَ ويجـبُ ألّا ينتهـي حتـى

يكـونَ لـكلِّ مَـن يسـمُّونَ أنفسَـهم مسـيحيّين ربٌّ واحـدٌ وإيمـانٌ واحـدٌ ومعموديّـة واحدة. سـوفَ تبقى قضيّةُ سـولا سـكريبتورا (الكتاب المقدس وحـده)، سـولا فيـدي (الإيمـانُ وحـدَه)، سـولا جراتيـا (النعمَـة وحدَهـا)، سـولاس كريسـتوس (المسـيح وحـدَه)، وسـولي ديـو جلوريـا (لمَجـدِ اللـه وحـدِه) هـي القضيّـة الحَقيقـة الكتابيّـة وسـتظلُّ مـن أجلِهـا.

# ملاحظات

## المقدّمة

١. «إنّ الذين سقطوا بالخطيئة بعد ما نالوا نعمة التبرير، يستطيعون أن يستعيدوا تبريرهم عندما، بدافع من الله، يعملون على استعادة النعمة الضائعة بواسطة سرّ التوبة، بفضل استحقاقات المسيح. هذا النوع من التبرير هو إنهاضُ الخاطئ الذي دعاه الآباء القدّيسون «خشبة الخلاص الثانية بعد الغرق الذي هو فقدان النعمة». (قوانين ومراسيم مجمع ترنت، الجلسة السادسة، الفصل الرابع عشر، http://history.hanover.edu/texts/trent/trentall.html، تمّت زيارة الموقع في ١٢ مارس / آذار ٢٠١٢.)

٢. «إذا قال أحدٌ أنّ الكافرَ يُبرَّرُ بالإيمان وحده، عانيًا بذلك أنّ لا شيءَ غير الإيمان ضروريٌّ للحصول على النعمة، وأنّه ليس بحاجةٍ البتّة إلى التأهّب والاستعداد بحركةٍ من إرادته: فليكن محرومًا». (شرائع ومراسيم مجمع ترنت، الجلسةالسادسة، الفصل السادس عشر، القانون التاسع، http://history.hanover.edu/texts/trent/trentall.html ، تمت زيارة الموقع في ١٢ مارس / آذار ٢٠١٢.)

3. Evangelicals & Catholics Together: The Christian Mission in the Third Millennium, http://www.leaderu.com/ftissues/ft9405/articles/mission.html, accessed March 12, 2012.
4. The Manhattan Declaration: A Call of Christian Conscience, http://manhattandeclaration.org/the-declaration/read.aspx, accessed March 12, 2012.
5. G. C. Berkouwer, Vatikaans Concilie en Nieuwe Theologie (Kampen: JH Kok N.V., 1964), 15.
6. Mark A. Noll and Carolyn Nystrom, Is the Reformation Over? An Evangelical Assessment of Contemporary Roman Catholicism (Grand Rapids: Baker Academic, 2005). "Things Are Not the Way They Used to Be" is the title of chapter 1.
7. From the hymn "A Mighty Fortress Is Our God" by Martin Luther, 1529.

## الفصل ١

1. Martin Luther, cited in Roland H. Bainton, Here I Stand: A Life of Martin Luther (Nashville: Abingdon Press, 1950), 144. Bainton notes that the words "Here I stand. I cannot do otherwise" are not in the earliest printed versions, but that may have been because the listeners were too moved to take notes at that point.

2. Canons and Decrees of the Council of Trent, Fourth Session, http://history.hanover.edu/texts/trent/trentall.html, accessed March 13, 2012.

3. Vatican Ecumenical Council I Decrees, Session 3: 24 April 1870—Dogmatic Constitution on the Catholic Faith, chapter 2, http://www.intratext.com/IXT/ENG0063/_P6.HTM, accessed March 13, 2012.

٤. المصدر نفسه

5. Hans Küng, Infallible? An Inquiry, trans. Edward Quinn (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1971), 174.

6. Divino Afflante Spiritu, http://www.papalencyclicals.net/Pius12/P12DIVIN.HTM, accessed March 13, 2012.

٧. المصدر نفسه

٨. المصدر نفسه

٩. المصدر نفسه

١٠. المصدر نفسه

11. Vatican Ecumenical Council II Documents, Dei Verbum, Dogmatic Constitution on Divine Revelation, Chap. 3, http://www.intratext.com/IXT/ENG0037/_P4.HTM, accessed March 13, 2012.

12. Canons and Decrees of the Council of Trent, Fourth Session, http://history.hanover.edu/texts/trent/trentall.html, accessed March 13, 2012.

13. G. C. Berkouwer, Vatikaans Concilie en Nieuwe Theologie (Kampen: JH Kok N.V., 1964), 111–13.
14. All citations of the Roman Catholic catechism are from Catechism of the Catholic Church, Second Edition (New York: Doubleday, 1995).
15. Canons and Decrees of the Council of Trent, Fourth Session, http://history.hanover.edu/texts/trent/trentall.html, accessed March 13, 2012.

## الفصل ٢

1. Canons and Decrees of the Council of Trent, Sixth Session, Chap. V, http://history.hanover.edu/texts/trent/trentall.html, accessed March 14, 2012.
2. John Calvin, Institutes of the Christian Religion, ed. John T. McNeill, trans. Ford Lewis Battles, The Library of Christian Classics, Vols. 20–21 (Philadelphia: The Westminster Press, 1960), 2.8.59; 3.4.28.
3. Canons and Decrees of the Council of Trent, Sixth Session, Chap. XIV, http://history.hanover.edu/texts/trent/trentall.html, accessed March 14, 2012.

## الفصل ٣

1. Ecumenical Council of Florence, Session 11, http://www.ewtn.com/library/COUNCILS/FLORENCE.HTM, accessed March 15, 2012. This sentiment was echoed in

certain statements made by Vatican Council I.

2. Quanto Conficiamur Moerore, Section 7, http://www.papalencyclicals.net/Pius09/p9quanto.htm, accessed March 15, 2012.

٣. المصدر نفسه، القسم ٨.

4. Presbyterorum Ordinis, Chap. 1, http://www.vatican.va/archive/hist_councils/ii_vatican_council/documents/vat-ii_decree_19651207_presbyterorum-ordinis_en.html, accessed March 15, 2012.

5. Responses to Some Questions Regarding Certain Aspects of the Doctrine on the Church, Fifth Question, http://www.doctrinafidei.va/documents/rc_con_cfaith_doc_20070629_responsa-quaestiones_en.html, accessed March 15, 2012.

## الفصل ٤

1. Canons and Decrees of the Council of Trent, Sixth Session, Chap. XIV, http://history.hanover.edu/texts/trent/trentall.html, accessed March 16, 2012.

2. Mysterium Fidei, http://www.papalencyclicals.net/Paul06/p6myster.htm, accessed March 16, 2012.

## الفصل ٥

1. Syllabus of Errors, #18, http://www.ewtn.com/library/PAPALDOC/P9SYLL.HTM, accessed March 19, 2012.
2. Hans Küng, Infallible? An Inquiry, trans. Edward Quinn (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1971), 92–93.
3. Vatican Ecumenical Council I Decrees, Session 4: 18 July 1870—First Dogmatic Constitution on the Church of Christ, http://www.intratext.com/IXT/ENG0063/_PD.HTM, accessed March 19, 2012.
4. Canons and Decrees of the Council of Trent, Sixth Session, Chap. XVI, Canon IX, http://history.hanover.edu/texts/trent/trentall.html, accessed March 19, 2012.
5. Vatican Ecumenical Council I Decrees, Session 4: 18 July 1870—First Dogmatic Constitution on the Church of Christ, Chap. 1, http://www.intratext.com/IXT/ENG0063/_PE.HTM, accessed March 19, 2012.

٦. المصدر نفسه، الفصل ٢.

٧. المصدر نفسه، الفصل ٣.

٨. المصدر نفسه، الفصل ٤.

9. Vatican Ecumenical Council II Documents, Lumen Gentium, Dogmatic Constitution on the Church, Chap. 3, http://www.intratext.com/IXT/ENG0037/_PA.HTM, accessed March 19, 2012.

١٠. المصدر نفسه.

١١. المصدر نفسه.

## الفصل ٦

1. Jaroslav Pelikan, Mary Through the Centuries (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1996), 55.
2. Mystici Corporis Christi, Section 110, http://www.papalencyclicals.net/Pius12/P12MYSTI.HTM, accessed March 20, 2012.

٣. المصدر نفسه.

٤. المصدر نفسه.

٥. المصدر نفسه.

٦. المصدر نفسه، القسم ١١١.

7. Munificentissimus Deus, section 27, http://www.papalencyclicals.net/Pius12/P12MUNIF.HTM, accessed March 20, 2012.

# عن الكاتب

كان الدكتور أر. سي. سبرول مؤسس خدمات ليجيونير، والراعي المؤسّس لكنيسة القديس أندرو في سانفورد بولاية فلوريدا، وأوّل رئيس لكليّة الكتاب المقدس المُصلحة، والمحرّر التنفيذي لمجلّة Tabletalk. لا يزال برنامجه الإذاعي «تجديد عقلك» يُبثّ يوميًّا على مئات المحطّات الإذاعيّة حول العالم، ويمكن أيضًا سماعها عبر الإنترنت. ألّف أكثر من مئة كتاب، بما في ذلك «قداسة الله» و «مُختار من الله» و«الجميع علماء لاهوت». تمّ الاعتراف به في جميع أنحاء العالم لدفاعه الواضح عن عصمة الكتاب المقدّس والحاجة بأن يَثبُتَ شعب الله بقناعة في كلمته.

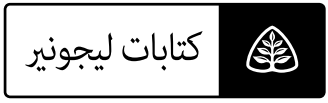


خدمات ليجونير هي هيئة دوليَّة للتلمذة المسيحيَّة أسَّسها عالم اللاهوت الدكتور أر. سي. سبرول في عام ١٩٧١ من أجل إعلان قداسة الله وشرحها والدفاع عنها في كل ملئها لأكبر عدد ممكن من الناس. أصبحت علامة «كتابات ليجونير» تشير إلى ما هو جدير بالثقة في جميع أنحاء العالم وبالعديد من اللغات.

بدافع من الإرساليَّة العُظمى، تُقدِّم خدمات ليجونير موارد التلمذة حول العالم سواء مطبوعة أو رقميَّة. تتم ترجمة موارد موثوق بها من كتب ومقالات أو دبلجة سلاسل تعليم بالفيديو إلى أكثر من أربعين لغة. رغبتنا هي دعم كنيسة يسوع المسيح من خلال مساعدة المؤمنين على معرفة ما يؤمنون به، ولماذا يؤمنون به، وكيف يعيشونه، وكيف يشاركونه مع الآخرين.

**الموقع الإلكتروني لخدمات ليجونير:**

https://ar.ligonier.org

**ندعوكم للانضمام إلينا عبر وسائل التواصل الاجتماعي التالية:**

facebook.com/LigonierAR

twitter.com/LigonierAR

t.me/Ligonier_Arabic

**للتواصل معنا:**

info@ar.ligonier.org

إنّ إنجيلَ يسوع المسيح مُعرّضٌ دائمًا لخطر التّشويه. أصبحَ مشوّهًا في القرون التي سبقت الإصلاح البروتستانتيّ في القرن السّادس عشر. لقد تمّ تشويهُه في نقاطٍ أخرى لا حصرَ لها من تاريخ الكنيسة، وغالبًا ما يتمُّ تشويهُه اليوم أيضًا. لهذا قال مارتن لوثر إنّه يجب الدّفاع عن الإنجيل في كلّ جيل. الإنجيلُ هو النُّقطة المركزيّة التي تهجُمُ عليها قوى الشرّ. يعرفون أنّهم إذا تمكّنوا من التخلّص من الإنجيل، فيمكنُهم بالتالي التخلّص من المسيحيّة.

للإنجيل، أي أخبار العهد الجديد السَّارّة، وجهَان: جانبٌ موضوعيّ وجانبٌ شخصيّ. المحتوى الموضوعي للإنجيل هو شخص يسوع وعمله: أي من هو، والأمور التي أنجزها في حياته. الجانبُ الذاتيّ هو السّؤال عن كيفيّة منحِ فوائدِ عمل المسيح للمؤمن. هنا تأتي عقيدة التبرير إلى المقدّمة.

تطرّقَ المُصلحون إلى العديد من القضايا خلال فترة الإصلاح، ولكن كان الإنجيلُ الموضوعَ الأساسيَّ والملموس للإصلاح، وبشكلٍ خاصّ عقيدة التبرير. لم يكن الخلافُ كبيرًا بين سلطات الكنيسة الكاثوليكيّة والمُصلحين البروتستانت حول المحتوى الموضوعيّ للإنجيل. لقد اتّفقَ جميعُ الأطراف على أنّ يسوعَ هو شخصٌ إلهيّ، وبأنّه ابنُ الله وبأنّه وُلِدَ من مريم العذراء، وبأنّه عاشَ حياة الطّاعة الكاملة، وبأنّه مات كَفّارَةً عنّا على الصَّليب، وبأنّه قام من القبر. كانت المعركة تدور حول الوجه الثاني من الإنجيل، أي الجانب الذاتيّ المتعلّق بكيفيّة منح فوائد المسيح للمؤمن.

لقد آمن المُصلحون أنّنا مُبرَّرون بالإيمان وحده وعلّموا ذلك. قالوا إنّ الإيمان هو المُسبّب الأساسيّ الوحيد لتبريرنا. كانوا يقصدون بهذا أنّنا نُمنح كلّ فوائد عمل يسوع من خلال وضع ثقتِنا فيه وحده. لكنّ روما اعتبرت أنّه يُمكن للإنسان أن يتمتّعَ بإيمانٍ حقيقيّ ويبقى غيرَ مُبرّر لأنّ التَّبريرَ في النّظام الرّوماني يحتاج إلى أكثر من الإيمان.

يقدّم لنا الكاتب شرحاً وافياً لأعمق الإختلافات التي تفصل بين الإيمان البروتستانتي المُصلح، وعقيدة كنيسة روما الكاثوليكية. ليستخدم الرب هذا العمل ليضيء معنى الإنجيل الحقيقي في قلوب كنائس المسيح وابناءها في العالم العربي.

ISBN: 978-1-5136-9903-5
9 781513 699035
500 PLUS SPIRITUAL PRODUCTIONS
كتابات ليجونير